المحـور السادس

السُّنَّة النبويَّة وعلومها

غير مرخصة للطباعة

١٠٧

الرسـول والـعـلـم

الإمـام يوسف القرضاوي

نسخة مجانية

من الدستور الإلٰهي للبشرية

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

٥

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**من يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّين**». متفق عليه.

عن أبي هُرَيْرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**من سَلَكَ طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنَّة، وما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلَّا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمةُ وحَفَّتْهم الملائكة، وذكرهم اللهُ فيمن عنده**». رواه مسلم.

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**طلبُ العلم فريضةٌ على كلِّ مسلم**» رواه ابن ماجه.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمدُ لله، والصَّلاة والسلام على معلِّم الناس الخير، مُحَمَّد رسول الله ﷺ، وعلى آله وصحبه ومن اتَّبع هداه.

(أمَّا بعد)

فلم تعرف البشريَّة دينًا مثل الإسلام عُنِيَ بالعلم أبلغ العناية وأتمَّها: دعوةً إليه، وترغيبًا فيه، وتعظيمًا لقدره، وتنويهًا بأهله، وحثًّا على طلبه وتعلُّمه وتعليمه، وبيانًا لآدابه، وتوضيحًا لآثاره، وترهيبًا من القعود عنه، أو الازورار عن أصحابه، أو المخالفة لهدايته، أو الازدراء بأهله.

بين القرآن والكتب المقدَّسة:

ومن درس الأديان السابقة على الإسلام، أو قرأ كتبها المُقدَّسة، ازداد إيمانًا بعَظمة الإسلام في هذا الجانب.

إنَّك تقرأ «الأسفار المقدَّسة» في العهد القديم أو الجديد، فلا تكاد تقع عينك على هذه الكلمات: «العقل» أو «الفكر» أو «النظر» أو «البرهان» أو «العلم» أو «الحكمة» أو ما اشتُق منها، أو تفرَّع عنها، أو كان له قرابة بها.

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

فإذا قرأت القرآن وجدتَ فيه ـ كما يذكر «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» ـ ما يلي:

كلمة «عِلم» نكرة ومعرفة ذكرت (٨٠) ثمانين مرَّة، أمَّا مشتقَّاتها: علم ويعلم ويعلمون وعلَّم، ويُعَلِّم وعليم وعلَّام، إلخ. فقد ذكرت مئات ومئات من المرَّات.

كلمة «عقل» لم ترد اسمًا أو مصدرًا في القرآن، وورد بديلًا عنها كلمة «الألباب» وتكرَّرت (١٦) ست عشرة مرَّة، وكلمة «النُّهى» بمعنى العقول أيضًا مرتين.

أمَّا مشتقَّات (عقل) فقد تكرَّرت في القرآن (٤٩) تسعًا وأربعين مرَّة.

وكذلك مشتقَّات (فكر) (١٨) ثماني عشرة مرَّة.

ومشتقَّات (فقه) (٢١) إحدى وعشرين مرَّة.

وكلمة (حكمة) (٢٠) عشرين مرَّة.

وكلمة (برهان) مضافة وغير مضافة (٧) سبع مرَّات.

وهذا عدا كلمات أخرى لها صلة بالعلم والفكر، مثل: «انظروا» و«ينظروا» وكلمة: «حجة» و«سلطان» ويقصد به سلطان العلم والبيِّنة، وكلمة: «يقين»، وكلمة «هدى» ومشتقاتها، وكلمة «بيِّنة» و«بيِّنات»، وكلمات أخرى ذكرت في معرض الذم، مثل «الظنِّ» و«الهوى» وغيرها. ممَّا يؤكد عناية القرآن البالغة بالجانب العقلي والمعرفي، ويَبْنِيه على أرسخ الأسس والدعائم[١].

(١) قد أصدرنا في ذلك كتابًا مستقلًّا، بعنوان: العقل والعلم في القرآن، نشرته مكتبة وهبة، بالقاهرة.

QaradawiBooks.com

العلم في كتب الحديث:

وإذا طالعت كتب الحديث النبوي، وجدت في جميع الكتب المصنفة حسب الموضوعات والأبواب ـ أو بتعبير ذلك العصر: الكتب ـ كتابًا حافلًا موضوعه «العلم».

ففي «الجامع الصحيح» للإمام مُحَمَّد بن إسماعيل البخاري (ت: ٢٥٦هـ) نجد ـ بعد أحاديث بدء الوحي، وكتاب الإيمان ـ كتابَ العلم، وقد اشتمل كما يقول الحافظ ابن حجر في «الفتح» من الأحاديث المرفوعة على مئة حديث وحديثين، منها ستة عشر حديثًا مكرَّرًا، وفيه من الآثار الموقوفة على الصحابة ومَنْ بعدهم: اثنان وعشرون أثرًا.

وفي صحيح مسلم وباقي الأصول السبعة (الموطأ وسنن الترمذي وأبي داود والنسائي وابن ماجه) كتاب أو أبواب للعلم، تقْصُر أو تطول.

وحسبنا أن نذكر هنا أنَّ كتابًا مثل «الفتح الرباني» في ترتيب مسند الإمام أحمد (ت: ٢٤١هـ) قد ضمَّ في كتاب العلم (٨١) واحدًا وثمانين حديثًا.

وأنَّ كتاب العلم من صحيح ابن حبان (ت: ٣٥٤هـ) حسب ترتيب الإحسان قد بلغ (٦٧) حديثًا.

وأنَّ كتاب «العلم» في «مجمع الزوائد» للحافظ نور الدين الهيثمي (ت: ٨٠٧هـ) قد بلغ (٨٤) صفحة في كل صفحة عدد من الأحاديث.

وفي «المستدرك» للحاكم النيسابوري (ت: ٤٠٤هـ) بلغت أحاديث العلم (٤٤) صفحة.

وأنَّ كتاب «الترغيب والترهيب» للحافظ المنذري (ت: ٦٥٦هـ) جمع في كتاب العلم (١٤٠) حديثًا.

QaradawiBooks.com

وأنَّ كتاب العلم من «جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد» للعلَّامة مُحَمَّد بن سليمان (ت: ١٠٩٤هـ) قد ضمَّ (١٥٤) حديثًا.

ولا يخفى أنَّ قدْرًا كبيرًا من الأحاديث في كلِّ كتاب من هذه مكرَّر مع أحاديث الكتب الأخرى.

ولكن ليس معنى هذا أنَّ هذا العدد من الأحاديث في هذا الكتاب أو ذاك هو كل ما يتعلق بالعلم.

فالواقع أنَّ هناك عشرات ومئات أخرى من الأحاديث لها صلة بالعلم، ولكنَّها وُضعت في مَظانَّ أخرى من أبواب الكتاب، حيث يظهر للحديث الواحد أكثر من دلالة، ويستفاد منه أكثر من حكم.

فالحديث الَّذي استفدنا منه اهتمام الرسول بالإحصاء الكتابيِّ لعدد الرجال من المسلمين هو في صَحيحَي البخاري ومسلم، ولم يُذكر في كتاب العلم.

والحديث الَّذي دلَّ على إقرار التجربة ونتائجها في شؤون الحياة الدنيا، ووكل للناس أمر دنياهم، هو في صحيح مسلم وغيره، ولكن لم يوضَع في كتاب العلم.

والحديث الَّذي دلَّ على محاربة الرسول للأميَّة بتعليم أبناء المسلمين الكتابة عن طريق الأسرى لم يذكره من ذكره في أبواب العلم.

والأحاديث التي أعلنت الحرب على الخرافة والسحر والشعوذة والكهانة والتمائم والرُّقى لم تذكر في كتاب العلم.

والأحاديث التي عُنيت بما يتعلق بالطب والتداوي ونحوها لم تذكر في كتاب العلم، بل ذُكرت في كتاب الطب أو التداوي.

QaradawiBooks.com

وهكذا نجد كثيرًا ممَّا يتَّصل بالعلم متناثرًا في أبواب كتب الحديث تحت عناوين شتى.. وما على البحَّاث البصير المطلع إلَّا أن يلتقطها من مظانِّها القريبة والبعيدة، ويجمع شتاتها، ويصنِّفها التصنيف الَّذي يوضِّح فكرته، ويحقِّق هدفه.

وهذا هو عملنا في هذا البحث «الرسول وموقفه من العلم»: أن نجمع الأحاديث المقبولة المتناثرة من مختلف المصادر، وبخاصة الأصليَّة منها، ودراستها دراسة علمية موضوعية، لبيان موقف الرسول ﷺ في السُّنَّة والسيرة من «العلم» بمفهومه العام، أو بمفهومه الحديث.

عمدتنا الأحاديث الصحاح والحسان:

وإنَّما قلت «الأحاديث المقبولة»؛ لأنَّ الأحاديث الموضوعة، والتي لا أصل لها، والضعيفة جدًّا، لا يجوز الاستشهاد بها عند أحد من العلماء، ولو كان ذلك في فضائل الأعمال.

أمَّا الأحاديث الضعيفة فقط، فقد أجاز جمهور العلماء الاستفادة منها في فضائل الأعمال، أي: في الأمور التي لا يترتَّب عليها حكم، ولا يؤْخذ منها حلال ولا حرام.

ولهذا نرى الحافظ الفقيه ابن عبد البَرِّ (ت: ٤٦٣هـ) في كتابه «جامع بيان العلم وفضله» يذكر كثيرًا من الأحاديث الضعيفة ثم يعقِّب عليها بمثل قوله: «والفضائل تروى عن كل أحد، والحجَّة من جهة الإسناد إنَّما تُتَقَصَّى في الأحكام، وفي الحلال والحرام»[1].

(١) جامع بيان العلم لابن عبد البر (١٥٨)، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، نشر دار ابن الجوزي، السعودية، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

QaradawiBooks.com

وهذه الفكـــرة جعلت الأحاديـــث الضعيفة تزحف علـــى الأحاديث الصحاح والحســـان وتطغى عليها، هذا مع عـــدم الحاجة إليها؛ لأنَّ في الأحاديث المقبولة من الصحاح والحسان ما يغني عنها.

ولم يتقيَّـــد الأكثرون بما اشـــترطه أئمَّة المحدِّثين عند الاستشـــهاد بالحديث الضعيف. وهو: ألَّا يكون ضعيفًا جدًّا، وأن يندرج تحت أصل كليٍّ ثابت، وألَّا يعتقد ثبوته بل الاحتياط.

على أنَّنا حين نريد أن نُجليَ موقف الإسلام، أو موقف الرسول من أمر من الأمور، فلا بدَّ أن نعتمد على الصحيح والحســـن؛ لأنَّ الضعيف لا يتبيَّن منه موقف، كما لا يُبنى عليه حكم.

عملنا التمحيص والاستنباط:

ولهذا كان عملنا في هذا البحث مزدوجًا، وهو تمحيص ما يستشهد به من الأحاديث وبيان درجتها بإيجاز واختصار، ثم يأتي استنباط الحكم أو المعنى المراد منها.

فالواجب أولًا إثبات النصِّ وتوثيقه، ثم استخراج الدلالة منه.

ومن الباحثين من يحســـب أنَّه يكفيه في التوثيق العلمي أن يسند الحديث أو النصَّ المنقول إلى كتـــاب معروف، مبيِّنًا الجزء والصفحة والطبعة، معتبرًا أنَّ ذلك هو غاية التوثيـــق، ونهاية التحقيق والتدقيق، كما يفعـــل الكثيرون ممَّن ينقلون عن كتب التفســـير، أو التصوف، أو الفقه، أو حتَّى كتـــب الحديث التي لم يلتـــزم مخرِّجوها الصحَّة فيما يروونه منهـــا، فلا يكفي هنا لقَبـــول الحديث مجرَّد نقلـــه من كتاب، وصحة نِسْبته إليه.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ومثل هذا يقع فيه الذين يكتبون التاريخ، ومَبْلغ التحقيق عندهم نسبة ما ينقلون إلى الطبري أو ابن الأثير أو غيرهمـا؛ مع أنَّ في هذه الكتب المقبول والمردود، والغث والسمين.

انتشار الأحاديث الواهية:

ولقد لاحظت انتشـار عدد كبير من الأحاديث الواهية عند كثير من المتحدِّثين عن العلم أو الكاتبين فيه، وذلك لاعتماد الكثيرين منهم على النقل من الكتـب التي تذكر في كل موضـوع ما تجده من حديث دون اشتراط صحته، ولا بيان درجته.

وأظهر مثال لذلك هو «إحياء علوم الدين» للإمام أبي حامد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) الَّذي يرجع إليه الكثيرون مـن الوعَّاظ والكتَّاب، فقد ذكر في فضيلـة «العلم» و«التعلُّم» و«التعليم» نحو (٥٥) خمسـة وخمسـين حديثًا، (١٣) ثلاثة عشـر منها صحيح أو حسـن، والباقي ضعيف، رغم اشتهاره جدًّا على الألسنة والأقلام.

وأحمد الله أنِّي لم أحتجَّ في هذا البحث إلى الضعيف المردود، فقد أغناني الله بالصحيح والحسن، وهو موفور غير قليل، وإذا ذكرت حديثًا على غير هذا الشـرط، فذلك في الغالب لمجرَّد الاستئناس، ومع بيان درجته، فليس هو العمدة.

وإنَّما اقتصرت على بيان موقف السُّـنَّة النبويَّة من العلم؛ لأنَّ بيان موقف القرآن الكريم من العلم يحتاج إلى بحـث آخر، لعلي أوفَّق في إخراجه في سلسـلة «التفسـير الموضوعي للقرآن»[1]، فعسـى أن يجد

(١) قد صدر والحمد لله، كما أشرنا سابقًا.

QaradawiBooks.com

القارئ الكريـــم ما قصدت إليه واضحًا في هـــذه الصحائف، ويرى فيها نهج الإسلام، وهدي الرسول الكريم بيِّنًا واضح المعالم.

هذا وقد قسمت البحث إلى خمسة أقسام:

الأوَّل: في بيان منزلة العلم والعلماء.

الثاني: موقف الرسول من العلم التجريبي.

الثالث: في أخلاقيات العلم.

الرابع: في التعلُّم وآدابه.

الخامس: في التعليم ومبادئه وقيمه.

فلنشرع في بيانها، وعلى الله قصد السبيل، ومنه العون، وبه التوفيق.

يوسف القرضاوي

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

منزلة العلم والعلماء في ضوء السُّنَّة

تكاثرت أحاديث النبيِّ ﷺ وتتابعت ـ بعد آيات القرآن الكريم ـ في بيان فضل العلم ومنزلة العلماء عند الله وعند الناس، في الدنيا والآخرة، ورفعت العلماء مكانًا عَليًّا، لا يُسعى إليه على قدم، ولا يُطار له على جناح إلَّا بوساطة العلم.

ولا ريب أنَّ أوْلى العلوم بذلك هو علم الدين، الَّذي به يعرف الإنسان نفسه ويعرف ربَّه، ويهتدي إلى غايته، ويكتشف طريقه، ويعلم ما له وما عليه، ثم بعد ذلك كل علم يكشف عن حقيقة تهدي الناس إلى حق، أو تقرِّبهم من خير، أو تحقِّق لهم مصلحة أو تدرأ عنهم مفسدة.

يقول ﷺ: «**من يُرِد الله به خيرًا، يُفَقِّهْهُ في الدِّين**»[١].

ويقول: «**مَنْ سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهَّل الله به طريقًا إلى الجنَّة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلَّا حفَّتهم الملائكة، ونزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده**»[٢].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (٧١)، ومسلم في الإمارة (١٠٣٧) (١٧٥)، عن معاوية.

(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٩)، وأحمد (٧٤٢٧)، عن أبي هريرة.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ويقول: «**إنَّ الملائكة لتضعُ أجنحتهـا لطالب العلم رضًا بما يصنع، وإنَّ العالِم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، حتَّى الحيتان في الماء، وفضلُ العالِم على العابد كفضل القمر على سـائر الكواكب، وإنَّ العلماء ورثة الأنبيـاء، وإنَّ الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنَّما ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر**»[(١)].

فهذه الأحاديث تـدلُّ على فضل العلم، وبخاصـة العلم بالدِّين، أو على حدِّ تعبير الحديث: الفقـه في الدين. والواقـع أنَّ الفقه في الدين أخص وأعمق من مجرَّد العلم بالدين، فالعلم معرفة بالظاهر فحسـب، والفقه معرفـة بالظاهر واللبِّ معًا، والعلم يتصـل أكثر ما يتصل بالعقل وحده، والفقه بالعقل والقلب جميعًا.

ولهذا فإنَّ مجرَّد العلم بالأحكام الشـرعية الجزئية كأحكام الطهارة والنجاسـة والرضاع والطلاق والبيع والشـراء كما هو مدلول الفقه في اصطلاح الخلف، لا ينشـئ الفقه المراد في الحديـث، والذي هو دليل على إرادة الله الخير بصاحبه.

وحسب هذا العلم فضلًا أنَّ مجالسه تحفُّها ملائكة الله، وتنزل عليها السكينة، وتغشاها الرحمة، ويذكرها الله في الملأ الأعلى.

وهذه الملائكة التي تحـفُّ مجالس العلم تضـع أجنحتها لطالبيه، فالوضع: تواضع وتوقير وتبجيل، والحفُّ: حفظ وحماية وصيانة.

---

(١) رواه أحمد (٢١٧١٥)، وقال مخرِّجوه: حسـن لغيره. وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، كلاهما في العلم، وابن ماجه في المقدمة (٢٢٣)، وابن حبان في العلم (٨٨)، وقال السخاوي في المقاصد الحسنة (٧٠٣): صحَّحه ابن حبان والحاكم وغيرهما، وحسَّنه حمزة الكتاني، وضعَّفه غيرهم بالاضطراب في سنده، لكن له شواهد يتقوى بها. عن أبي الدرداء.

QaradawiBooks.com

فتضمَّن الحديثان تعظيم الملائكة له، وحبَّها إيَّاه، وحمايتها له، وكفى بهذا شرفًا وفضلًا.

هذه الأحاديث ومثلها كثير وكثير بجوار ما جاء في القرآن من آيات غزيرة وفيرة، جعلت أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان على مرِّ القرون، يشيدون بشأن العلم، وينوِّهون بقدر العلماء؛ تحريضًا على طلب العلم والزيادة منه، وتحذيرًا من الجهل وما يجرُّه على أهله من شؤم في الدنيا والآخرة.

يقول عمر: أيُّها الناس، عليكم بطلب العلم، فإنَّ لله رداءَ محبة، فمن طلب بابًا من العلم، ردَّاه الله بردائه ذلك[١].

وسـأل رجل ابن عباس عن الجهاد، فقال لـه: ألَا أدلُّك على ما هو خير لك من الجهاد؟ تبني مسـجدًا تُعَلِّم فيه القرآن، وسـنن النبيِّ ﷺ، والفقه في الدين[٢].

وقال ابن مسعود: نِعْمَ المجلس مجلسٌ تُنشر فيه الحكمة، وتُنشر فيه الرحمة[٣]. يعني مجلس العلم.

وقال معاذ بن جبل: «تعلَّموا العلم، فإنَّ تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسـته تسـبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهلـه قربة، وهو الأنيس فـي الوحدة، والصاحـب في الخلوة، والدليل على الدين، والنصير على السَّرَّاء والضَّرَّاء، والوزير عند الأخلاء، والقريب عند القرباء، ومنار سبيل الجنَّة، يرفع الله به أقوامًا، فيجعلهم في

(١) جامع بيان العلم وفضله (٣٠٠).
(٢) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٣٢٥).
(٣) المصدر السابق (٢٤٤).

QaradawiBooks.com

الخير قادة سادة هُداة يُقتدى بهم، أدلة في الخير تُقتفى آثارهم، وتُرمق أفعالهم، وترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، وكل رَطْب ويابس يستغفر لهم، حتَّى حيتانُ البحر وهوامه، وسباعُ البرِّ وأنعامه، والسماءُ ونجومها». إلى أن قال: «به يطاع الله، وبه يُعبد، وبه يُوحَّد، وبه يُمجَّد، وبه يُتورَّع، وبه تُوصَل الأرحام، وبه يُعرف الحلال والحرام، وهو إمام والعمل تابعُه، ويُلهَمُه السعداء ويُحرمه الأشقياء»[١].

وقال الحسن: لولا العلماء، لصار الناس مثل البهائم. أي: أنَّهم بالعلم يخرجون الناس من حدِّ البهيميَّة إلى حدِّ الإنسانيَّة.

وقال يحيى بن معاذ: العلماءُ أرحم بأمة محمد ﷺ من آبائهم وأمهاتهم. قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأنَّ آباءهم وأمهاتهم يحفظُونهم من نار الدنيا، وهم يحفظونهم من نار الآخرة[٢].

وسئل ابن المُبارك: مَن الناس؟ فقال: العلماء. قيل: فمن الملوك؟ قال: الزهَّاد[٣].

قال الغزالي: «ولم يجعل غير العالم من الناس، لأنَّ الخاصيَّة التي يتميَّز بها الناس عن سائر البهائم هي العلم، فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله، وليس ذلك بقوة شخصه (جسمه)؛ فإنَّ الجمل أقوى منه، ولا بِعِظَمه؛ فإنَّ الفيل أعظم منه، ولا بشجاعته؛ فإنَّ السَّبُع أشجع منه،

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢٣٨/١)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢٦٩) موقوفًا. ورواه ابن عبد البر مرفوعًا (٢٦٨)، وقال عقبه: وهو حديث حسن جدًّا، ولكن ليس له إسناد قوي.

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (١١/١)، نشر دار المعرفة، بيروت.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٦٧/٨).

QaradawiBooks.com

ولا بأكله؛ فإنَّ الثور أوسع بطنًا منه، ولا ليجامع؛ فإنَّ أخسَّ العصافير أقوى على السفاد منه، بل لم يخلق إلَّا للعلم»[١].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حاجة الإنسان إلى العلم أكثر من حاجته إلى الطعام والشراب[٢].

العلم دليل الإيمان:

والعلم في نظر الإسلام ليس مقابلًا للإيمان، فضلًا عن أن يكون معاديًا له كما شاعت هذه الفكرة في أوربا في القرون الوسطى، حين وقفت الكنيسة في تلك العصور تؤيِّد الخرافة، وتحارب العلم، وتناصرُ الجمود والتقليد، وتقاوم التفكير الحرَّ والابتكار المبدِع، وتدافع عن القوى المتسلطة من حكام وإقطاعيين، وتقف في وجه الشعوب والفئات المسحوقة.

الإسلام لم يعرف هذا الصِّراع بين العلم والإيمان في تاريخه؛ لأنَّ هذه الفكرة لا مجال لها في تعاليمه، لا نصًّا ولا روحًا.

أمَّا النصرانيَّة، فتقوم أساسًا على أنَّ الإيمان قضية لا علاقة لها بالفكرة، بل هي ضده، فهي لا تدخل في دائرة العقل والعلم، بل في نطاق الوجدان والقلب، وليس من شروط العقائد أن تكون مقبولة عقلًا، بل يحسنُ بها أن تكون شيئًا فوق العقل، ولهذا كان من الشعارات المرفوعة عند النصارى: «آمِن ثم اعْلَمْ». أو «اعتقد وأنت أعمى»!

(١) إحياء علوم الدين (٧/١).

(٢) إعلام الموقعين لابن القيم (١٨٢/٢)، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

QaradawiBooks.com

وآخر يقول على لسان القسيس: «أغمضْ عينيك ثم اتَّبعني»!

وذلك لأنَّ العقيدة النصرانيَّة مؤسَّسة على قضايا يرفضها العقل المجرَّد، مثل التثليث والتخليص والفداء، وما يتفرَّع عنها، وما يلحق بها، حتَّى قال بعض فلاسفة النصارى في بعض معتقداتهم «اللامعقولة» وهو القدِّيس (أوجستين): أومن بهذا؛ لأنَّه محال!

وهذا على عكس الإسلام الَّذي يرفض في بناء العقيدة «التقليد» و«التبعيَّة» كقول من قالوا: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [المائدة: ١٠٤]، أو: ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧]. أو: «أنا مع الناس».

ويرفض أيضًا الظنَّ، حيث لا يُغني في شأن العقائد إلَّا العلم واليقين. ولهذا أنكر على النصارى عقيدتهم في الصلب بقوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧].

وقال في شأن المشركين وآلهتهم المزعومة: اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨].

ويأبى القرآن إلَّا أن تُبنى العقائد على أساس البرهان القائم على النظر العميق، والتفكير الهادئ، ولأجل هذا صاح القرآن في أصحاب العقائد الباطلة: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

ولا عَجَب أن تكرَّرت في القرآن هذه العبارات الموقظة للفكر من غفلته، والمحرِّرة للإنسان من ربقة تقليده وجموده، مثل: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾، ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟﴾، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾، ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

QaradawiBooks.com

وحَسْبك أن تقرأ هذه الدعوة القوية الصريحة إلى التفكير: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ [سبأ: ٤٦].

وهذا ما دعا الأستاذ عباس العقاد رَحِمَهُ اللَّهُ أن يُخرج كتابًا عنوانه: «التفكير فريضة إسلامية» وهذا تعبير صحيح؛ فالإسلام كما فرض على الناس أن يتعبَّدوا، فرض عليهم أن يتفكَّروا.

فالعقيدة في الإسلام تقوم على العلم لا على التَّسليم الأعمى، يقول القرآن: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

لم يخشَ القرآن عواقب الدعوة إلى النظر والتفكر والعلم أن تأتي بنتائج تناقض حقائق الدين ومسلَّماته، لأنَّ فكرة الإسلام: أنَّ الحقيقة الدينيَّة لا يمكن أن تناقض الحقيقة العقليَّة، فالحقُّ لا يناقض الحقَّ، واليقينُ لا يعارض اليقين، إنَّما يعارض اليقينُ الظنَّ، وتنافي الحقيقةُ الشكَّ أو الوهمَ أو الافتراضَ.

ومن هنا لا يمكن بحال مناقضة صحيح المنقول لصريح المعقول، وإذا بدا لنا في بعض الأحيان تناقض ظاهريٌّ، فلا بدَّ أن يكون المنقول غيرَ صحيح، أو المعقول غير صريح.

وهذا يقع كثيرًا: أن يظنَّ ما ليس من الدِّين دِينًا، وأن يحسب ما ليس من العلم علمًا.

فليست كل أفهام أهل الدين دينًا، كما أنَّه ليست كل نظريات أهل العلم علمًا.

QaradawiBooks.com

إنَّ القرآن يعتبر العلم الحقَّ داعيةً إلى الإيمان، ودليلًا إليه.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤]. فهذه المعاني الثلاثة مُترتِّب بعضها على بعض، كما يدلُّ عليه العطف بحرف (الفاء) التي تفيد الترتيب والتعقيب بلا صلة.

فالعلم يتبعه الإيمان تبعيةَ ترتيبٍ بلا إمهال: ليعلموا فيؤمنوا.

والإيمان تتبعه حركةُ القلوب من الإخبات والخشوع لله تعالى، وهكذا يثمر العلم الإيمانَ، ويثمر الإيمانُ الإخباتَ والتواضع لله ربِّ العالمين.

وفي آية أخرى يذكر العلم والإيمان متعاطفَين جنبًا إلى جنب: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦].

فالعلم والإيمان في الآية الكريمة مقترنان متعاطفان، وليسا من الأضداد التي إذا ثبت أحدُهما، انتفى الآخر.

وإذا أردنا بالعلم: العلم بمفهومه الشائع اليوم، وهو المادي القائم على المشاهدة الحسيَّة والتجربة ـ فلا ننكر أيضًا قيمة هذا العلم، وحاجةَ الناس إليه؛ لأنَّ العلم الماديَّ مطلوب للإنسان، ولا شك، ولكنَّه مطلوب طلب الوسائل لا طلب الغايات.

وهو يعين الإنسان على الحياة، وييسِّر له سبلها، ويختصر له الزمان، ويطوي له المكان: فيقرِّب البعيد، ويلين الحديد، ولكنَّه وحده لا يستطيع إسعاد البشر، كما لا يمكنه وحده أن يضبط سيْر البشر، ويقاوم أنانيَّة الإنسان ونزَعات نفسه الأمَّارة بالسوء.

QaradawiBooks.com

ولهذا كان الإنسان في حاجة ماسَّة إلى «العلم الديني» الَّذي ينمِّي الإيمان ويحيي الضمائر، ويغرس الفضائل، ويقِي الإنسان شحَّ نفسه، وطغيانَ غرائزه على عقله، وهواه على ضميره، وهذا هو الَّذي يعصم «العلم المادي» من الانحراف، ويحول دون استخدامه في التدمير والعدوان.

وقد ضرب لنا القرآنُ مثلًا بسليمان عليه السلام الَّذي آتاه الله ملكًا لم يُؤْتِهِ أحدًا من بعده.

فقد أُحضر إليه عرش بلقيس من سبأ باليمن إلى مَقرِّه بالشام، قبل أن يرتدَّ إليه طرفُه، بفضل ذلك الَّذي وصفه القرآن بأنه: ﴿عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وهنا تجلَّى الإيمان حين أرجع سليمانُ الفضل إلى الله لا إلى نفسه، فلم يركبه الغرور، أو يستبدَّ به: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٞ﴾ [النمل: ٤٠].

وكذلك كان موقف ذي القرنين الَّذي فتح الفتوح غربًا وشرقًا، وتوَّج حكمه بإقامة سدِّه العظيم، مستخدمًا ما يسَّره له علمُ عصره من وسائل وأدوات، فلمَّا أتمَّ البناء قال في تواضع المؤمنين: ﴿هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾ [الكهف: ٩٨].

ألَا إنَّ العلم الحقَّ هو الَّذي يهدي إلى الإيمان، والإيمان الحق هو الَّذي يفسح مجالًا للعلم، فهما إذن شريكان متفاهمان، بل أخوان متعاونان.

وهذا هو العلم الَّذي يريده الإسلام، أيًّا كان موضوعه، ومجال بحثه. يريده علمًا في ظلِّ الإيمان، وفي خدمة مُثله العليا، وإلى ذلك أشار القرآن حين قال في أول آية نزلت: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]. والقراءة عنوان العلم ومفتاحه ومصباحه، فإذا كان أول أمر إلٰهي نزل به القرآن: «القراءة» كان ذلك أوضحَ دليل على مكانة العلم في الإسلام.

QaradawiBooks.com

ولكنَّ القرآن لم يطلب «مطلق قراءة» وإنَّما طلب قراءة مقيَّدة بقيد خاص وهو أن تكون «باسم الله»، أو كما قال القرآن: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

وإذا كانت القراءة باسم الله، فقد وجِّهت إلى الحقِّ والخير والهداية، لأنَّ الله تعالى هو مصدر هذا كله.

ولا غرو أن نشأ العلم في الإسلام في أحضان الدين، وأن نشأت المدارس في صحون المساجد، وبدأت الجامعات الإسلامية العريقة تحت سقوف الجوامع، بل سمِّي كلٌّ منها جامعًا: جامع الأزهر، جامع القرويين، جامع الزيتونة، وهكذا.

وكانت هذه الجوامع أو الجامعات تدرِّس علوم الدين وعلوم الدنيا معًا، وكان كثير من العلماء التجريبيِّين هم في نفس الوقت علماء الدين، مثل القاضي ابن رشد الحفيد مؤلف «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» في الفقه المقارن، ومؤلف «الكليات» في الطب.

ومثل الخوارزمي الَّذي ألَّف كتابه الفريد، الَّذي أسَّس به علم الجبر؛ ليحلَّ به مشكلات في الوصايا والمواريث من أبواب الفقه!

* * *

العلم دليل العمل:

والعلم في نظر الإسلام دليلٌ للعمل أيضًا، كما هو دليل للإيمان.

ترجم الإمام البخاري في «جامعه الصحيح»: «باب العلم قبل القول والعمل»[1]، وقال ابن المُنيِّر: أراد به أنَّ العلم شرطٌ في صحَّة القول

(١) صحيح البخاري (٢٤/١).

QaradawiBooks.com

والعمل، فلا يُعتبران إلَّا به، فهو متقدِّم عليهما، مُصحِّح للنية المصحِّحة للعمل، فنبَّـه المصنِّف (يعني البخاري) على ذلك، حتَّى لا يسـبق إلى الذهن ـ من قولهم: إنَّ العلـم لا ينفع إلَّا بالعمل ـ تهويـن أمرِ العلم، والتساهل في طلبه»[١].

واستدلَّ البخاريُّ لما ذكره بجملةٍ من الآيات والأحاديث منها: قوله تعالـى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

فبدأ بالعلم، وثنَّى بالعمل، ورأس العلم: معرفة الله تعالى وتوحيده. والخطـاب وإن كان للنبي ﷺ، فهو متنـاول لأمَّته. ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]. أي: إنَّما يخـاف اللهَ ﷻ ويقدِّره حقَّ قدره، مَن عرفه، وعلم عظيم قدرته، وسلطانه على خلقه، نتيجة التعامل في أسرار كونه وشـرعه، وهم العلماء، وهذه الخشـية هي التي تحفِّز على عمل الصالحات، واجتناب السيِّئات.

وقال النبيُّ ﷺ: «**من يُرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»[٢]، وذلك لأنَّه إذا فقه عمل، وأحسن ما عمل.

وأدنى درجـات الفقيه ـ كما يقـول الإمام الغزالـي ـ: أن يعلم أنَّ الآخرة خير من الدنيا، وهذه المعرفـة إذا صدقت وغلبت عليه برئ بها من النفاق والرياء[٣].

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٦٠/١)، نقلًا عـن ابن المنير، تحقيق محب الدين الخطيب، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

(٢) سبق تخريجه صـ١٥.

(٣) إحياء علوم الدين (٥/١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

يؤيِّد ذلك ما رواه زيد بن أسلم، أنَّ النبي ﷺ دفع رجلًا إلى رجل يعلِّمه فعلَّمه حتَّى بلغ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]. فقال الرجل: حسبي. فقال الرجل (أي المعلِّم): يا رسول الله، أرأيتَ الرجل الَّذي أمرتني أن أُعَلِّمه، لما بلغ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]. فقال: حسْبي؟ فقال النبيُّ: «**دعْه فقدْ فَقِهَ**»[(١)].

والسياق يدلُّ على أنَّ المعنى: قد استنار قلبه بنور الإيمان، والخشيةِ من الله، يدلُّ لذلك ما رواه المُطَّلب بن عبد الله بن حَنْطَبٍ: أنَّ رسول الله قرأ في مجلس، ومعهم أعرابي جالس: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. فقال الأعرابي: يا رسول الله، أمثقال ذرَّة؟ قال: «**نعم**». فقال الأعرابي: وا سوأتاه! ثم قام، وهو يقولها. فقال رسول الله ﷺ: «**لقد دخل قلبَ الأعرابي الإيمانُ**»[(٢)].

فكلمة النبي ﷺ هنا: «**لقد دخل قلبَ الأعرابيِّ الإيمانُ**»، في معنى قوله في الحديث السابق: «**فقدْ فقه**».

العلم شرط لصحَّة العمل:

وبهذا يتبيَّن أنَّ العلم شرط ضروري للعمل؛ لكي يصح ويستقيم على أمر الله، سواء كان هذا العمل عبادةً لله، أم معاملةً للناس.

روى سفيان بن عُيينة عن عمر بن عبد العزيز قال: من عمل في غير علم كان ما يفسد أكثر ممَّا يصلح[(٣)].

(١) رواه عبد الله بن المبارك في الزهد (٨١)، وعبد الرزاق في تفسيره (٣٦٧٠).

(٢) رواه القاسم بن سلام في فضائل القرآن صـ ٢٧٨، تحقيق مروان العطية، نشر دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

(٣) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٣٢).

QaradawiBooks.com

وفي حديث معاذ بن جبل السـابق في فضل العلم قـال: وهو إمامُ العمل، والعمل تابِعُه[١].

لا تصحُّ عبادة بلا علم:

فلا تسـتقيم عبادة يجهل صاحبها ما يجب لها من شروط، وما تقوم عليه من أركان، وما يبطلها من أعمال.

ولهذا قال النبيُّ ﷺ للرجل الَّذي أساء صلاته ولم يُؤدِّ لها حَقَّها من الطمأنينة: «**ارجع فصلِّ فإنَّك لم تُصل**»[٢]. وإنَّما قال له: «**لم تُصل**» مع أنَّه أدَّى الصلاة أمامه؛ لأنَّ صلاةً منقوصةً مبتورة كلَا صلاة.

لا تصح معاملة بلا علم:

وفي المعاملات وشؤون الحياة عامة: شـخصيَّة وأسريَّة واجتماعيَّة، يجب أن يُعرف فيها الصحيح من الفاسـد، والحـلال من الحرام، حتَّى لا يتورَّط في الحرام وهو لا يدري. والجهل بالأحكام في دار الإسـلام ليس عذرًا.

فما كان من الحلال بيِّنًا فلا جُناح عليه في فعله أو تركه، وما كان من الحرام بينًـا فلا عُذر له فـي ارتكابه، ومـا كان من المشـتبهات التي «**لا يعلمهنَّ كثير من النـاس**» فالجزم أن يدَع ما يريبُـه إلى ما لا يريبُه، «**فمن اتَّقى الشبهات فقد اسـتبرأ لدِينِه وعِرْضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حَوْل الحِمَى يوشك أن يُوَاقعه**»[٣].

---

(١) سبق تخريجه صـ١٨.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٧٥٧)، ومسلم في الصلاة (٣٩٧)، عن أبي هريرة.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، عن النعمان بن بشير.

QaradawiBooks.com

وكان السلف يوصون التاجر الَّذي يدخلُ السوق أن يتفقَّه في أحكام البيوع والتعامل، أو يَلزم فقيهًا يسدِّده ويرشده، كما كانوا يوصون من يؤهِّل نفسه للسيادة والقيادة، أن يتزوَّد من العلم بما يلزم لمنصبه، وما ينير له الطريق، ومن مأثور قولهم: «**تفقَّهوا قبل أن تُسَوَّدوا**»[1].

العلم شرط لتولي المناصب القيادية:

وقد قدَّم يوسف الصِّدِّيق نفسه لملك مصر، ليضعَه حيث يجب أن يوضع مثلُه، مشيرًا إلى مؤهِّلاته الشخصيَّة، وعلى رأسها الحفظ (يعني الأمانة) والعلم: ﴿**ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ**﴾ [يوسف: ٥٥].

وفي الأعمال القياديَّة العليا ـ مثل الإمامة العُظمى والقضاء ـ اشترط الفقهاء فيمن يتولَّاها: العلم الاستقلالي الَّذي يبلغ بصاحبه درجة الاجتهاد، حتَّى إذا استُفتِي، أفتى بعلم، وإذا أمر، أمر بحقٍّ، وإذا حكم، حكم بعدل، وإذا دَعَا، دعا على بصيرة.

ولم يقبلوا (المقلد) في الإمامة والقضاء إلَّا من باب الضرورات التي تبيح المحظورات، والنزول من المثل الأعلى إلى الواقع الأدنى.

على أنَّ من الواجب على الأمَّة أن تتدارك أمورها، وتُصلح من شأنها، حتَّى لا يلي أمورها إلَّا أكْفاء الناس، وأصلحهم للقيادة علمًا وعملًا.

ولم يُجِز أحدٌ من الفقهاء أن يليَ أمور المسلمين في السياسة والقضاء من يجهل شرع الله، الَّذي هو أساس الحكم بين المسلمين، فإنَّه سيحكم بالجهل أو الهوى، وكلاهما في النار.

---

(١) علَّقه البخاري بصيغة الجزم في العلم باب الاغتباط في العلم والحكمة (٢٥/١)، ورواه موصولًا ابن أبي شيبة في الأدب (٢٦٦٤٠)، والدارمي (٢٥٦)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٥٠٨)، عن عمر رضي الله عنه موقوفًا.

QaradawiBooks.com

روى بريدة مرفوعًا: «**القضاةُ ثلاثة: واحدٌ فـي الجنَّة، واثنان في النار؛ فأمَّا الَّذي في الجنَّة: فرجلٌ عرف الحق فقضى به، ورجلٌ عرف الحقَّ وجار في الحكم فهو في النار، ورجلٌ قضى للناس على جهل فهو في النَّار**»[1].

العلم هو المبيِّن لمراتب الأعمال وأولوياتها:

ثم إنَّ العلم هو الَّذي يبيِّن راجـح الأعمال من مرجوحها، وفاضلها من مفضولها، كما يبيِّن صحيحها من فاسـدها، ومقبولها من مردودها، ومسنونها من مبتدعها، ويعطي كل عمل سعره وقيمته في نظر الشرع.

وكثيرًا ما نجد الذين حُرموا نور العلم يذيبون الحدود بين الأعمال، فلا تتمايز، أو يحكمون عليها بغير ما حكم الشرع، فيُفْرِطون أو يُفرِّطون، وهنا يضيع الدين بين الغالي فيه والجافي عنه.

وكثيـرًا ما رأينا مثل هؤلاء ـ مـع إخلاصهم ـ يشـتغلون بمرجوح العمل، ويدعون راجِحه، وينهمكون في المفضول، ويغفلون الفاضل.

وقد يكون العمل الواحد فاضلًا فـي وقت مفضولًا في آخر، راجحًا في حال مرجوحًا في آخر، ولكنَّهم ـ لقلـة علمهم وفقههم ـ لا يفرِّقون بين الوقتين، ولا يميِّزون بين الحالين.

خلل في فقه الأولويات:

رأيت من المسلمين الطيِّبين في أنفسهم من يتبرَّع ببناء مسجد في بلد حافل بالمساجد، قد يتكلف نصف مليون أو مليونًا من الجنيهات

(١) رواه أبو داود في الأقضية (٣٥٧٣)، والترمذي في الأحكام (١٣٢٢)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣١٥)، والنسـائي في الكبرى في القضاء (٥٨٩١)، وصحَّحـه ابن الملقن في البدر المنير (٥٥٢/٩)، والألباني في غاية المرام (١٧٥)، عن بريدة بن الحصيب.

QaradawiBooks.com

أو الدولارات، فإذا طالبتــه ببذل مثل هذا المبلــغ أو نصفه أو نصف نصفه في نشر الدعوة إلى الإســلام، أو مقاومة الكفر والإلحاد، أو في تأييد العمل الإســلامي لإقامة الحكم بما أنــزل الله، أو نحو ذلك من الأهداف الكبيرة التي قد تجد الرجال ولا تجد المال، فهَيْهات أن تجد أذنًا صاغية، أو إجابة ملبِّيــة؛ لأنَّهم يؤمنون ببناء الأحجار، ولا يؤمنون ببناء الرجال!

وفي موســم الحج من كلِّ عــام أرى أعدادًا غفيرة من المســلمين الموسرين يحرصون على شهود الموســم متطوِّعين، وكثيرًا ما يضيفون إليه العمرة في رمضان، وينفقون في ذلك عن ســخاء، وقد يصطحبون معهم أناسًــا من الفقراء على نفقتهم، وما كلَّــف الله بالحج هؤلاء، فإذا طالبتهم ببذل هذه النفقات الســنويَّة ذاتها لمقاومة الغزو التنصيري في إندونيســيا، أو الغزو الشيوعي في أفغانســتان، لوَّوا رؤوسهم، ورأيتهم يصُدُّون وهم مستكبرون.

هذا مع أنَّ الثابت بوضوح في القرآن الكريم: أنَّ جنس أعمال الجهاد أفضلُ من جنس أعمال الحج، كما قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۞ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ١٩ ـ ٢١].

هذا مع أنَّ حَجَّهــم واعتمارهم من باب التَّطــوُّع والتنفل، أمَّا جهاد الكفر والإلحــاد والعلمانيَّــة والتَّحلل، وما يســندها من قــوى داخليَّة وخارجيَّة، فهو الآن فريضة العصر، وواجب اليوم.

QaradawiBooks.com

ولقد رأيت شـبابًا مخلصين كانوا يدرسون في كليات جامعية في الطب، أو الهندسـة، أو الزراعة، أو الآداب، أو غيرهـا من الكليات النظرية، أو العلمية، وكانوا من الناجحين بل المتفوقين فيها، فما لبثوا إلَّا أن أداروا ظهورهم لكليَّاتهم، وودَّعوها غير آسـفين، بحجة التفرغ للدعوة والإرشـاد والتبليغ، مـع أنَّ عملهم فـي تخصصاتهم هو من فروض الكفاية التي تأثم الأُمَّة جميعُها إذا فرَّطت فيها، ويستطيعون أن يجعلوا من عملهم عبادةً وجهـادًا إذا صحَّت فيه النيَّة والتُزمت حدودُ الله تعالى.

ولو ترك كل مسـلم مهنتَه فَمَنْ ذا يقوم بمصالح المسـلمين؟ ولقد بُعث الرسول ﷺ، وأصحابه يعملون في مهن شتَّى، فلم يطلب من أحد منهم أن يـدع مهنته ليتفرغ للدعوة، وبقـي كلٌّ منهم في عمله وحرفته، سـواء قبل الهجرة أم بعدها؛ فإذا دعا داعي الجهاد، واسـتُنْفروا، نفروا خفافًا وثقالًا مجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.

ولقد أنكر الإمام الغزالي على أهل زمنه توجُّهَ جمهور متعلِّميهم إلى الفقه ونحوه، على حين لا يوجد في البلد من بلدان المسلمين إلَّا طبيب يهودي أو نصراني يوكل إليه علاج المسلمين والمسلمات، وتوضع بين يديه الأرواح والعورات[1].

ورأيت آخرين يقيمون معارك يوميَّة من أجل مسائل جزئيَّة أو خلافيَّة، مهملين معركة الإسـلام الكبرى مع أعدائه الحاقديـن عليه، والطامعين فيه، والخائفين منه والمتربِّصين به.

(١) إحياء علوم الدين (٢١/١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

حتى في قلب أمريكا وكنـدا وأوربا، وجدت من جعلوا أكبر همِّهم: الساعة أين تُلبس.. أفي اليد اليمنى أم اليسرى؟

ولبس الثوب الأبيض بدل «القميص والبنطلون»: واجب أم سُنَّة؟

ودخول المرأة في المسجد: حلال أم حرام؟

والأكل على منضدة، والجلوس على الكرسـيِّ للطعام، واستخدام الملعقة والشوكة: هل يدخل في التشبه بالكفار أم لا؟

وغيرهـا... وغيرهـا من المسـائل التي تـأكل الأوقـات، وتمزِّق الجماعات، وتخلق الحزازات، وتُضيع الجهود والجهاد، لأنَّها جهود في غير هدف، وجهاد مع غير عدو.

ورأيت فتيانًا ملتزميـن متعبِّدين يعاملون آباءهم بقسـوة، وأمَّهاتهم بغلظة، وأخواتهم بعنف، وحجَّتهـم أنَّهم عصاة أو منحرفون عن الدين، ناسين أنَّ الله تعالى أوصى بالوالدين حسنًا، وإن كانا مشركيْن يجاهدان ولدهما على الشرك، ويحاولان بكلِّ جهدهما فتنته عن إسلامه.

يقول تعالـى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ [لقمان: ١٥].

فرُغم المحاولـة المصرَّة من الأبوين، التي سـمَّاها القرآن: مجاهدة على الشرك، أمر بمصاحبتهما بالمعروف؛ لأنَّ للوالدين حقًّا لا يفوقه إلَّا حق الله ﷻ، ولهذا ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

أمَّا الطاعة لهما في الشـرك فهي مرفوضـة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وأمَّا المصاحبة بالمعروف فلا مناص منها، ولا عذر في التخلِّي عنها.

QaradawiBooks.com

الابتداع في الدين سببه نقص العلم:

ورأينا أناسًا مخلصين، يشرعون في الدين ما لم يأذن به الله، يُحرِّمون ما لم يحرِّمه الله ورسوله، ويأمرون بما لم يأمر به الله ورسوله، ويتعبَّدون الله بغير ما شرع، بل بالأهواء والبدع.

شفيعهم لذلك ـ فيما زعموا ـ حُسْن نيتهم، وصفاء طويتهم، وصدق رغبتهم في التقرُّب إلى الله تعالى.

وهذا فهمٌ خاطئ لمعنى العمل الصالح المقبول عند الله تبارك وتعالى.

فلا يكفي في حُسن العمل حُسن النيَّة، وحرارة الإخلاص حتَّى يكون العمل مأذونًا به، ممْهورًا بخاتَم الشرع.

ولله درُّ العالم الزاهد الورع ـ الفضيل بن عياض ـ الَّذي عبَّر عن هذا المعنى بعبارات جامعة ناصعة، حين سُئل عن «أحسن العمل» في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. قال: أحسن العمل: أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي: ما أخلصُه؟ وما أصوبُه؟ قال: إنَّ العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل. ولا يقبل حتَّى يكون خالصًا وصوابًا. والخالص: أن يكون لله. والصواب: أن يكون على السُّنَّة[1].

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/٩٥).
وانظر كتابنا: العبادة في الإسلام، فصل: لا يُعبد الله إلَّا بما شرع صـ ١٣٧ ـ ١٤٤، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢٩، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

QaradawiBooks.com

فضل العلم على العبادة:

والإسلام ـ فيما نعلم ـ أول دين يفضِّل الاشتغال بالعلم وطلبه، والتبحر فيه على التطوع بالشعائر المعروفة، من صلاة وصيام وحج ونحوها مع أنَّ القرآن يعلن في صراحة وجلاء أنَّ الله تعالى لم يخلق الثقلين إلَّا ليعبدوه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ولكنَّ العبادة إذا أدِّيت على غير علم، فهي كبنيان على غير أساس، فالعلم هو الَّذي يوضِّح أركان العبادة، وشروطَها، وآدابَها الظاهرة، وأسرارها الباطنة، كما يبيِّن ما يصحِّحها وما يبطلها وما يكملها أو ينقصها.

والعلم يُعرِّف صاحبَه بمنازل الأشياء، ومراتب الأعمال، حتَّى يميِّز بين النفل والفرض، ويبيِّن المهم وغير المهم، ويبيِّن الأصول والفروع، فلا يقدِّم نافلة على فريضة، ولا يقدِّم غير المهم على المهم، ولا يضيع أصلًا من أجل فرع.

وفي مثل هذا قال السلف: إنَّ الله لا يقبل النافلة حتَّى تؤدَّى الفريضة[١].

وقالوا: من شغله الفرض عن النفل فهو معذور، ومن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور[٢].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في زهد الصحابة (٣٥٥٧٤)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (١١٤)، عن أبي بكر.

(٢) رأينا من الناس من يصوم الاثنين والخميس تطوعًا، ثم يفرط في واجبه نحو عمله اليومي الذي يتقاضى عليه أجرًا، بحجة تعبه من الصيام، أو يقصر في واجبه نحو أسرته أو المجتمع من حوله. =

QaradawiBooks.com

ومن فضل العلم على العبادة: أنَّ معظم العبادات قاصرة النفع لا تتجاوز صاحبها، فالمُصلِّي والصائم، والحاجُّ والمعتمر، والذاكر والمُسبِّح، يزيد عملهم من حسناتهم، ويرفع من درجاتهم. ولكنَّ المجتمع من ورائهم لا ينال من جرَّاء عبادتهم شيئًا مباشرًا، يحقِّق لهم منفعة، أو يدفع عنهم مضرَّة.

أمَّا العلم فنفعه مُتَعَدٍّ، لا يقتصر على صاحبه، بل يتجاوزه إلى غيره من الناس من كل من يسمعه، أو يقرؤه، وقد يكون بينه وبينهم جبال ووهاد، أو بحار وقفار.

فالعلم لا يعرف القيود، ولا يعترف بالحواجز والسُّدود، وخاصَّة في عصرنا الَّذي ينشر فيه العلم المسموع بالإذاعة، والمرئي بالتلفاز، في ثوانٍ معدودة، بل في نفس اللحظة، إلى المستمعين والمشاهدين في مساحات شاسعة، وينشر العلم المكتوب بوساطة الطباعة الحديثة إلى آفاق المعمورة في أيام بل ساعات معدودة.

ولا عجب أن روى أبو أمامة رضي الله عنه قال: ذُكر للنبيِّ ﷺ رجلان أحدهما عالم، والآخر عابد، فقال عليه الصلاة والسلام: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**»(١).

وروى عنه حذيفة بن اليمان: «**فضلُ العلم خيرٌ من فضل العبادة**»(٢).

= ورأينا من يحج أو يعتمر كل عام، ومع هذا يماطل في قضاء ديونه، أو يجور على عمَّاله وموظفيه، أو يتعامل مع المصارف بالربا...، وهذا كلُّه في الأغلب نتيجة لقلَّة الفقه في الدين.

(١) رواه الترمذي في العلم (٢٦٨٥)، وقال: حسن صحيح غريب. وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٤٢١٣)، عن أبي أمامة.

(٢) رواه البزار (٢٩٦٩)، والطبراني في الأوسط (٣٩٦٠) مرفوعًا. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٧٨): فيه عبد الله بن عبد القدوس، وثقه البخاري وابن حبان، وضعفه ابن معين وجماعة.

QaradawiBooks.com

وقد تقدَّم حديث أبي الدرداء: «**فضلُ العالم على العابدِ كفضلِ القمر ليلةَ البدر على سائر الكواكب**»(١).

ومن فضل العلم على العبادة: أنَّه لا ينقطع بانقطاع الحياة، ولا يموت بموت أصحابه.

فمن صلَّى، أو صام، أو زكَّى، أو حجَّ، أو اعتمر، أو سبَّح وهلَّل وكبَّر، فإنَّ هذه الأعمال لها مثوبتها الجزيلة عند الله تعالى، ولكنَّها تنتهي بانتهاء أدائها والفراغ منها.

أمَّا العلم فإنَّ أثره يظلُّ باقيًا ممتدًّا، ما دام في الناس من ينتفع به، مهما تطاولت السنون، وتعاقبت القرون.

فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا مات ابنُ آدم انقطع عمله إلَّا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»(٢).

وقال أيضًا: «**إنَّ ممَّا يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علمًا علَّمه ونشره، وولدًا صالحًا تركه، أو مصحفًا ورَّثه، أو مسجدًا بناه، أو بيتًا لابن السبيل بناه، أو نهرًا أجراه، أو صدقةً أخرجها من ماله في صحَّته وحياته، تلحقه من بعد موته**»(٣).

وبهذا يعيش العالِم عمرًا طويلًا بعد عمره المحدود، وبخاصَّة من كتب وصنَّف، فإنَّ عمر المكتوب أطول، وأثره أبقى.

---

(١) سبق تخريجه صـ١٦.

(٢) رواه مسلم في الوصية (١٦٣١)، وأحمد (٨٨٤٤)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه ابن ماجه في المقدمة (٢٤٢)، وابن خزيمة في الزكاة (٢٤٩٠)، وحسَّن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (١٢٣)، وقال ابن الملقن في البدر المنير (١٠٢/٧): إسناده حسن أكثر رجاله رجال الصحيح. وحسَّنه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٩٨)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

ألَّا ترى أنَّنا اليوم ننتفع بتراث علمائنا السابقين، وندعو لهم، ونترحَّم عليهم، وبيننا وبينهم أزمان وقرون تندقُّ فيها أعناق المَطي.

قال يحيى بن أكثم: قال الرشيد يومًا: ما أنبل المراتب؟

قلت: يا أمير المؤمنين، ما أنت فيه. قال: فتعرف من هو خير مني؟ قلت: لا. قال: لكنِّي أعرفه. رجل يقول: حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ.

قال: قلت: يا أمير المؤمنين! أهذا خيرٌ منك وأنت ابن عم رسول الله ﷺ ووليُّ عهد المؤمنين؟

قال: نعم، ويلك! هذا خيرٌ منِّي؛ لأنَّ اسمه مقترن باسم رسول الله ﷺ لا يموت أبدًا. ونحن نموت ونفنى، والعلماء باقون ما بقي الدهر[١].

وما أبلغ ما قال الإمام علي رضي الله عنه لكميل بن زياد: «العلم خير من المال؛ العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والعلم يزكو على الإنفاق، والمال تُنْقِصُه النفقة، والعلم حاكم والمال محكوم عليه»[٢].

«العلم يُكسب العالِم الطمأنينة في حياته، وجميلَ الأحدوثة بعد وفاته، وصنيعة المال تزول بزواله. مات خُزَّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة»[٣].

(١) رواه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث صـ ٩٩، ١٠٠، تحقيق د. محمد سعيد أوغلي، نشر دار إحياء السُّنَّة النبويَّة، أنقرة.
(٢) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢٨٤).
(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٧٩/١).

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

الاشتغال بالعلم أفضل ما يُتطوَّع به:

وهذه الأحاديث وما جاء في معناها، وما جاء في فضل العلم عامة ـ هي التي جعلت كثيرًا من السلف يعدُّون العلم أفضل ما يتطوعون به متقرِّبين لله تعالى.

فعن ابن مسعود قال: الدراسة صلاة[١].

وعن أبي الدرداء قال: مذاكرة العلم ساعة خير من قيام ليلة[٢].

وعن ابن عباس: تذاكر العلم بعض ليلة أحب إليَّ من إحيائها[٣].

وعن أبي هريرة: لأن أجلس ساعة فأفقه في ديني أحبُّ إليَّ من أن أحيي ليلة إلى الصباح[٤].

وقال قتادة: باب من العلم يحفظه الرجل لعلاج نفسه، وصلاح من بعده، أفضل من عبادة حوْل[٥].

وقال الثوري: ليس بعد الفرائض أفضل من طلب العلم[٦].

وعنه أيضًا: ما أعلم اليوم شيئًا أفضل من طلب العلم. قيل له: ليس لهم نيَّة! قال: طلبهم له نيَّة[٧].

---

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٩٤).

(٢) رواه الخطيب في الفقيه والمتفقه (١٠٢/١)، تحقيق عادل بن يوسف العزازي، نشر دار ابن الجوزي، السعودية، ط٢، ١٤٢١هـ.

(٣) رواه البيهقي في المدخل إلى السنن (٤٥٨) تحقيق د. محمد ضياء الرحمٰن الأعظمي، نشر دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٠٧).

(٤) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٠٩).

(٥) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٤١/٢).

(٦) المصدر السابق (٣٦٣/٦).

(٧) رواه ابن الجعد (١٩١٤).

QaradawiBooks.com

وقال ابن وهب: كنت عند مالك قاعدًا أسأله، فجمعت كتبي لأقوم. قال مالك: أين تريد؟ قال: قلت: أبادر إلى الصلاة. قال: ليس هذا الَّذي أنت فيه دون ما تذهب إليه، إذا صحَّ فيه النيَّة[١].

وقال الزهري: ما عُبِد اللهُ بمثل الفقه[٢].

وقال مُطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير: حظٌّ من علمٍ أحبُّ إليَّ من حظٍّ من عبادة[٣].

وقال الشافعي: طلبُ العلم أفضل من صلاة النافلة[٤].

وقد نُقل عن أبي حنيفة مثل ما نُقل عن الشافعي ومالك وسفيان من تفضيل العلم على سائر النوافل[٥].

هؤلاء هم أئمَّة الفقه وأصحاب المذاهب المتبوعة.

وبهذا يتَّضح أنَّ المفاضلة بين العلم والعبادة لا تعني المفاضلة بين العلم المفروض والعبادة المفروضة، ولا بين نفل العلم وفرض العبادة، ولا العكس، فإنَّه لا مفاضلة بين فريضتين لازمتين.

---

(١) شرح السنة للبغوي (٢٧٩/١)، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش، نشر المكتب الإسلامي، دمشق، ط٢، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

(٢) رواه عبد الرزاق في جامع معمر (٢٠٤٧٩)، تحقيق حبيب الرحمٰن الأعظمي، نشر المجلس العلمي بباكستان، وتوزيع المكتب الإسلامي ببيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.

(٣) المصدر السابق (٢٠٤٦٨).

(٤) انظر: مسند الشافعي (١٨/١) بترتيب السندي، نشـر دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م.

(٥) انظر: مفتاح دار السـعادة لابن القيم (٣٣٢/١)، تحقيق عبد الرحمٰن بن حسن بن قائد، نشر دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط١، ١٤٣٢هـ.

QaradawiBooks.com

فلا يجوز أن يشغل شيءٌ عن العبادة المفروضة كالصلاة، والمحافظة عليها وأدائها في وقتها، ولو كان هو طلب العلم.

ولا يُتصوَّر من ذي علم أن يُجيز لنفسه أو غيره الاشتغال بالعلم عن أداء الفرائض المكتوبة.

ولهذا لمَّا نقل المُحقِّق ابن القيم حديث عائشة: «فضل العلم خير من نفل العمل». قال: وهذا الكلام هو فصل الخطاب في المسألة، فإنَّه إذا كان كل من العلم والعمل فرضًا فلا بدَّ منهما كالصوم والصلاة، فإذا كانا فضلين ـ وهما النفلان المتطوَّع بهما ـ ففضل العلم ونفله خيرٌ من فضل العبادة ونفلها؛ لأنَّ العلم يعم نفعه صاحبه والناس معه، والعبادة يختص نفعها لصاحبها، ولأنَّ العلم تبقى فائدته، ولما مرَّ من الوجوه السابقة[١].

فضل العلم على الجهاد:

ويندرج في فضل العلم على العبادة، فضله على الجهاد الَّذي هو ذروة سنام الإسلام الَّذي استفاضت في بيان فضيلته آيات القرآن وأحاديث الرسول.

يقول الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود أحد أوعية العلم، ومصابيح الهدى: والذي نفسي بيده، لَيَودَّنَّ رجالٌ قُتِلُوا في سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء، لما يرون من كرامتهم[٢]. أي: من كرامة العلماء.

ويقول الفقيه الداعية المربِّي الحسن البصري: يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء، فيرجح مدادُ العلماء[٣].

(١) مفتاح دار السعادة (٣٣٦/١).

(٢) المصدر السابق (٣٣٩/١).

(٣) إحياء علوم الدين (٨/١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ذلك أنَّ الجهاد لا يُعرف فضله إلَّا بالعلم.

ولا تتَّضح شروطه وحدوده إلَّا بالعلم.

ولا يتبيَّن الجهاد المشروع من القتال غير المشروع إلَّا بالعلم.

ولا يتميَّز النَّفل فيه عن الفرض إلَّا بالعلم.

ولا يُعرف فرض الكفاية فيه من فرض العين إلَّا بالعلم.

وكم ردَّ النبي ﷺ من مسلم جاءه يجاهد معه، لأنَّه رأى أنَّه ترك واجبًا يخصُّه ألزم من الجهـاد، فعن عبد الله بـن عمرو قال: جـاء رجل إلى النبي ﷺ فاسـتأذنه في الجهاد، فقال: «**أحيٌّ والـداك؟**». قال: نعم. قال: «**ففيهما فجاهد**»[(١)].

وفي رواية: أنَّ الرجل قال: يا رسـول الله، جئت أريد الجهاد معك، ولقد أتيـت وإنَّ والديَّ يبكيـان. قال: «**فارجع إليهمـا فأضحكهما كما أبكيتهما**»[(٢)].

وعن أبي سعيد، أنَّ رجلًا هاجر إلى النبي ﷺ من اليمن فقال: «**هل لك أحد باليمن؟**». فقال: أبواي. فقال: «**أذِنا لك؟**». فقال: لا. قال: «**ارجع إليهما فاستأذنهما، فإنْ أذنا لك فجاهد، وإلَّا فبرَّهما**»[(٣)].

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٠٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٤٩).

(٢) رواه أحمد (٦٨٣٣)، وقال مخرِّجوه: حديث حسن. وأبو داود في الجهاد (٢٥٢٨)، والنسائي في البيعة (٤١٦٣)، وابـن ماجه في الجهاد (٢٧٨٢)، وصحَّحـه ابن الملقن في البدر المنير (٤٠/٩).

(٣) رواه أبو داود في الجهاد (٢٥٣٠)، وابن حبان في البر والإحسان (٤٢٢)، والحاكم في الجهاد (١٠٣/٢)، وصحَّح إسناده، وتعقبه الذهبي: دراج ـ أحد رواته ـ واه. وقال الألباني في الإرواء (١١٩٩) بعد أن ذكر كلام الذهبي: لكن الحديث بمجموع طرقه صحيح.

QaradawiBooks.com

وفي حديث آخر أنَّه ﷺ قال لمن جاء يستشـــيره في الغزو معه: «**هل لك من أم؟**». قال: نعم. فقال: «**الزمها؛ فإنَّ الجنَّة عند رجليها**»[(١)].

وبهذه الأحاديث اســـتدل العلماء على وجوب استئذان الأبوين في الجهاد، وبذلـــك قال الجمهور، وجزمـــوا بتحريم الجهـــاد إذا منع عنه الأبوان أو أحدُهما؛ لأنَّ برَّهما فرض عيـــن، والجهاد فرض كفاية، فإذا صار الجهاد فرضَ عين فلا إذن؛ لأنَّ تركه معصية، ولا طاعة لبشـــر في معصية الله تعالى.

وهذا بشرط أن يكون الأبوان مسلمَيْن، لأنَّ الكافرَيْن لا يرضيان يومًا بالجهاد لنصرة الإسلام وخذلان دينهما.

وكل هذه الحدود والفوارق الدقيقة إنَّما تُعرف بالعلم، فمن أعرض عن العلم، واشتغل بالجهاد كان حريًّا أن يقع في الخطأ، أو ينحرف عن سواء الصِّراط وهو لا يدري.

وكم من أناس في الماضي حملوا ســـيوفهم على عواتقهم يقاتلون من عصم الله دماءهم وأموالهم يزعمون أنَّهم بذلـــك يجاهدون، فيقتلون أهل الإسلام، ويدَعون أهل الأوثان! أولئك هم الخوارج الَّذي صحَّ الحديث في ذمِّهم من عشرة أوجه[(٢)]، كما قال الإمام أحمد بن حنبل، وأيَّده ابن تيمية[(٣)].

---

(١) رواه أحمد (١٥٥٣٨)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. والنسائي (٣١٠٤)، وابن ماجه (٢٧٨١)، والحاكم (١٠٤/٢)، وصحَّحـــه، ووافقه الذهبي، ثلاثتهم في الجهـــاد، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٨٥)، عن معاوية بن جاهمة.

(٢) إشارة إلى الحديث المتَّفق عليه: «إن من ضئضئ هذا... يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد». رواه البخاري فـــي أحاديث الأنبياء (٣٣٤٤)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٤)، عن أبي سعيد الخدري.

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٧٩/٣)، تحقيق عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم، نشر مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

QaradawiBooks.com

وما ذلـك إلَّا لأنَّهم تعبَّدوا قبل أن يتعلَّموا، وجاهـدوا قبل أن يتفقَّهوا، وتعجَّلوا العمل قبل العلم، فضلَّ سعيهم، وهم يحسَبون أنَّهم يُحسنون صنعًا.

وكم من شـباب في زمننا دفعهم الحماس الكثير في صدورهم، مع العلم القليل في رؤوسهم، والإعجاب المزهو برأيهم، إلى رفض أمتهم، وتكفير جماهيرها، واعتبار أوطانها ديارَ كفر لا دار إسـلام، فاسـتحلوا بذلك ما حرَّم الله، وأسـقطوا ما أوجب الله، اتباعًا لمتشـابه النصوص، وابتغاء الفتنة، وابتغاءَ تأويله.

ولو تعلَّموا وفقهوا، وتلقَّوا العلم من أهله، وعرفوه من مناهله، لوقف بهم العلم عنـد حدودهم، وعرَّفهم حقيقة الجهـاد: كيف يكون؟ ومتى يكون؟ ولمن يكون؟

وهذا ما نصحَ به الإمام الحسـن البصري رضي الله عنه حيـث يقول: العامل على غير علم كالسـالك على غير طريق، والعامل على غير علم يفسـد أكثر ممَّا يصلح. فاطلبوا العلم طلبًا لا يضرُّ بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبًا لا يضرُّ بالعلـم، فإنَّ قومًـا طلبوا العبـادة وتركوا العلـم حتَّى خرجوا بأسيافهم على أمة مُحَمَّد ﷺ، ولو طلبوا العلم لم يدلَّهم على ما فعلوا[1].

على أنَّ الجهاد الَّذي جاء به الإسـلام ليس كله جهادًا بالسيف، فهناك جهاد بالقلب واللسان، والحُجَّة والبيان، أي جهاد بالعلم. وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

فلم يكتف القرآن بتسـميته جهادًا بل سمَّاه «جهادًا كبيرًا»، وهذا في مكة قبل أن يُشرَع القتال.

(١) جامع بيان العلم (٩٠٥).

QaradawiBooks.com

وهو جهاد المنافقين في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣، والتحريم: ٩].

فجهاد الكفار أخصُّ باليد، وجهاد المنافقين أخصُّ باللسان. ولا تعجب إذا جاء في الحديث: «**من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتَّى يرجع**»(١).

قال الإمام ابن القيم: «إنَّما جُعل طلب العلم في سبيل الله؛ لأنَّ به قوام الإسلام كما أنَّ قوامه بالجهاد. فقوام الدين بالعلم والجهاد. ولهذا كان الجهاد نوعين: جهاد باليد والسنان. وهذا المشارك فيه كثير. والثاني: الجهاد بالحجة والبيان. وهذا جهاد الخاصَّة من أتباع الرسل، وهو جهاد الأئمة، وهو أفضل الجهادَيْن؛ لعظم منفعته، وشدَّة مؤنته، وكثرة أعدائه. قال تعالى في سورة الفرقان، وهي سورة مكية: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۞ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥١، ٥٢]. فهذا جهادٌ لهم بالقرآن وهو أكبر الجهادَيْن. وهو جهاد المنافقين أيضًا، فإنَّ المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين بل كانوا معهم في الظاهر، وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم، ومع هذا فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩]. ومعلوم أنَّ جهاد المنافقين بالحجَّة والقرآن. قال: والمقصود أنَّ «سبيل الله» هي الجهاد، وطلب العلم، ودعوة الخلق به إلى الله، ولهذا قال معاذ رضي الله عنه: عليكم بطلب العلم، فإنَّ تعلُّمه لله خشية، ومدارسته عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد.

(١) رواه الترمذي في العلم (٢٦٤٧)، وقال: حسن غريب، ورواه بعضهم فلم يرفعه. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٨٨): حسن لغيره. عن أنس بن مالك.

QaradawiBooks.com

ولهذا قرن ـ سبحانه ـ بين الكتاب والميزان والحديد الناصر، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

فذكر الكتاب والحديد، إذ بهما قوام الدين. كما قيل:

فَمَا هُوَ إِلَّا الْوَحْيُ[١] أَوْ حَدُّ مُرْهف[٢] تُمِيلُ ظُبَاهُ[٣] أَخْدعَيْ كُلِّ مَائِلِ[٤]

فَهَذَا دَوَاءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ عَالِمٍ وهَذَا دَواءُ الدَّاءِ من كلِّ جَاهِلِ[٥]

والمقصود أنَّ كلًّا من الجهاد بالسيف والحجَّة يسمَّى (سبيل الله)، وفسَّر الصحابة رضي الله عنهم قوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]. بالأمراء والعلماء؛ فإنَّهم المجاهدون في سبيل الله: هؤلاء بأيديهم وهؤلاء بألسنتهم.

فطلب العلم وتعلُّمُه من أعظم سبيل الله عز وجل.

قال كعب الأحبار: طالب العلم كالغادي الرائح في سبيل الله عز وجل[٦].

وجاء عن بعض الصحابة رضي الله عنه: إذا جاء الموت طالبَ العلم، وهو على هذا الحال، مات وهو شهيد.

---

(١) الوحي: أي القرآن المجيد، وبيان الرسول ﷺ.

(٢) أو حد مرهف: أي: أو حد سيف مرهف. المرهف المسنون ذو الشفرة الرقيقة.

(٣) ظباه: الظبة حد السيف والسنان والخنجر ونحوها وجمعها: ظبا وظباة وظبون.

(٤) أخدعي كل مائل: الأخدع أحد عرقين في جانبي العنق، وهما الأخدعان.

(٥) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي (٤٢/٢)، تقديم راجي الأسمر، نشر دار الكتاب العربي، ط٢، ١٩٩٤م.

(٦) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٧٧/٥).

QaradawiBooks.com

وقال سفيان بن عُيينة: من طلب العلم فقد بايع اللهَ ﷻ.

وقال أبو الدرداء: من رأى الغدوَّ والرواح إلى العلم ليس بجهاد، فقد نقص في عقله ورأيه[١].

العلم ينفع في الدنيا قبل الآخرة:

ومن فضائل العلم ومزاياه: أنَّ نفعه لأهله لا يقتصر على ثواب الآخرة وحدها، بل ينفعهم في الدارَيْن، ويجمع لهم بين الحُسنييْن، ويرفع درجاتهم عند الله وعند الناس، فثمراته معَجَّلة، وقطوفه دانية.

قال الإمام الحسن البصري في تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: هي العلم والعبادة. ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١]: هي الجنَّة.

قال الإمام ابن القيم: وهذا من أحسن التفاسير فإنَّ أجلَّ حسنات الدنيا: العلم النافع والعمل الصالح[٢].

ومن أجمل ما ورد في ذلك قصَّة ابن أَبْزَى. ذلك أنَّ نافع بن عبد الحارث لقيَ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعُسفان ـ وكان عمر ولَّاه على مكة ـ فسأله: من استخلفت على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزى. قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا. قال: فاستخلفت عليهم مولى؟ قال: إنَّه قارئ لكتاب الله ﷻ وإنَّه عالم بالفرائض (المواريث). قال عمر: أمَا إنَّ نبيَّكم ﷺ قد قال: «**إنَّ الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا، ويضع به آخرين**»[٣].

(١) مفتاح دار السعادة (١/١٩٣).
(٢) مفتاح دار السعادة (١/٣٣٩).
(٣) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٨١٧)، وأحمد (٢٣٢).

QaradawiBooks.com

وقال إبراهيم الحربي:

«كان عطاء بـن أبي رباح عبدًا أسـود لامـرأة من مكة. قـال: وجاء سليمان بن عبد الملك ـ أمير المؤمنين ـ إلى عطاء هو وابناه، فجلسوا إليه وهو يصلِّي، فلما صلَّى انفتل إليهم، فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج، وقد حوَّل قفاه إليهم! ثم قال سـليمان لابنيْه: قومَـا، فقاما. فقال: يا بني لا تَنِيَا في طلب العلم؛ فإنِّي لا أنسى ذلَّنا بين يدي هذا العبد الأسود!»[(١)].

ضَياع العلم مُؤْذن بخراب الدنيا:

وقد نبَّهت الأحاديث الصحيحة إلى حقيقـة مهمَّة، وهي: أنَّ الحياة بغير علم لا تسـتحق البقاء، وأنَّ ضياعَه أو إضاعتَه نذيرٌ بخراب الدنيا، وأنَّ الساعة على الأبواب.

روى البخاري، عن أنس بن مالك قال: قال رسـول الله ﷺ: «**إنَّ من أشـراط السـاعة أن يُرفع العلم، ويثبت الجهل** ـ وفي رواية: يقلَّ العلم ويكثر الجهل ـ **ويشرب الخمر، ويظهر الزنى**»[(٢)].

قال العلَّامة الكرماني في شـرحه للبخاري: إنَّمـا كان اختلال هذه الأمور مُؤْذنًا بخراب العالَم، لأنَّ الخلـق لا يُتركون هملًا، ولا نبيَّ بعد نبينا ﷺ فيتعيَّن ذلك[(٣)].

والمراد بالعلم هنا: علم الدين الموروث عن النبوَّة، فهو الَّذي يهدي الناس إلى الله، ويقفهم عند حدوده، ويعرِّفهم أمره ونهيه، وحلاله وحرامه.

(١) رواه الخطيب في الفقيه والمتفقه (١٤٠/١).

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري (٨٠)، ومسلم (٢٦٧١)، كلاهما في العلم.

(٣) فتح الباري (١٧٩/١).

QaradawiBooks.com

ولا يبعد أن يضيِّع الناس هذا العلم وإن وصلوا في علم الدنيا إلى غزو الفضاء والصعود إلى الكواكب، فقد يفعلون ذلك وهم بالله جاهلون، وعنه غافلون، كعامَّة الغربيين اليوم، إلَّا من رحِم ربُّك، فهم كالذين وصفهم الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٦، ٧].

فانظر كيف نفى الله عنهم العلم، بقوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾. ثم قال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧]. ولا يناقض هذا الإثبات ذلك النفي، لأنَّ هذا النوع وهذا المستوى من العلم ـ العلم بظاهرٍ من الدنيا مع الغفلة عن المصدر ـ هو علم أشبه بالجهل؛ فلا عجب أن يوصَف أصحابُه بأنَّهم لا يعلمون.

ولكن كيف يرفع العلم ويَذهب؟ إنَّه يذهب بذهاب أهله الذين يُرجع إليهم في المعضلات، ويُحتكَم إليهم عند الخلاف، الذين إذا استُفتوا أفتوا بعلم، وإذا استقضُوا قضوا بحق، وإذا دعوا كانت دعوتهم على بصيرة.

وفي «الصحيحين»، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعًا من العباد** ـ أي: محوًا من الصدور ـ **ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتَّى إذا لم يبق عالمٌ، اتَّخذ الناسُ رؤساء جهالًا، فسُئِلوا، فأفتَوا بغير علم، فضلُّوا وأضلوا**»[1].

وكان تحديث النبي ﷺ بذلك في حجَّة الوداع، كما رواه أحمد والطبراني من حديث أبي أمامة قال: لمَّا كان في حجَّة الوداع قال

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣)، كلاهما في العلم، عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

النبي ﷺ: «**خذوا العلم قبل أن يُقبض أو يُرفع**». فقال أعرابي: كيف يُرفع؟ فقال: «**ألَا إنَّ ذهابَ العلم ذهابُ حَمَلَته**» ثلاث مرات[١].

ومن هنا كان موت العلماء الثقات مصيبةٌ يحزن لها المؤمنون، ويسألون الله الصبر عليها، والعِوض عنها، حتَّى روي عن عمر قوله: «لموت ألف عابد، قائمٍ الليلَ، صائمٍ النهار، أهونُ من موت عالم، بصيرٍ بحلال الله وحرامه»[٢].

ولمَّا مات زيد بن ثابت، كاتب الوحي، وقارئ القرآن، وعالم الأنصار، قال عبد الله بن عباس: من سرَّه أن ينظر كيف ذهاب العلم، فهكذا ذهابه[٣].

وقال الحسن: موت العالم ثلمة ـ أي: ثغرة وخلل في البناء ـ في الإسلام، لا يسدُّها شيءٌ ما اطَّرد الليل والنهار[٤].

وقال ابن عباس أيضًا: لا يزال عالمٌ يموت، وأثر للحق يُدْرس، حتَّى يكثر أهلُ الجهل، وقد ذهب أهل العلم، فيعملون بالجهل، ويدينون بغير الحق، ويضلون عن سواء السبيل[٥].

وكان أبو الدرداء يقول: ما لي أرى علماءكم يذهبون، وجُهَّالكم لا يتعلَّمون؟ تعلَّموا قبل أن يُرفع العلم، فإنَّ رفعَ العلم ذهابُ العلماء[٦].

---

(١) رواه أحمد (٢٢٢٩٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. والطبراني (٢٣٢/٨).
(٢) جامع بيان العلم (١٢٦).
(٣) المصدر السابق (٦٠٠/١).
(٤) رواه الدارمي في المقدمة (٣٣٣).
(٥) جامع بيان العلم (١٠٣٩).
(٦) رواه الدارمي في المقدمة (٢٥١).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

كذلك كان حرصهم على طلب العلم وتعليمه وتدوينه، حتَّى لا يأتي وقت يفقدون فيه من يَحمله، ويقوم بحقِّه.

كتب عمر بن عبد العزيز في خلافته إلى أبي بكر بن حزم ـ واليه على المدينة ـ يقول له: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإنِّي خفت دروس العلم، وذهاب العلماء، ولا يقبل إلَّا حديث النبي ﷺ، وليُفْشوا العلم، وليجلسوا، حتَّى يعلم من لا يعلم، فإنَّ العلم لا يهلك حتَّى يكون سرًّا[١].

فهو بهذا يرفع شعار: العلم للجميع.

قال الحافظ في «الفتح»: وقد روى أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» هذه القصة بلفظ: «كتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق: انظروا حديث الرسول ﷺ فاجمعوه»[٢].

* * *

(١) صحيح البخاري في كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم (٣١/١). قال العيني في عمدة القاري (١٢٩/٢): هذا تعليق لم يقع وصله عند الكشميهني وكريمة وابن عساكر، ووقع وصله للبخاري عند غيرهم، وهو بقوله في بعض النسخ: حدثنا العلاء بن عبد الجبار... إلى آخره، على ما يأتي ذكره عن قريب. وقد روى أبو نعيم في تاريخ أصبهان هذه القصة بلفظ: كتب عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، إلى الآفاق: انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه.

(٢) رواه أبو نعيم في تاريخ أصبهان (٣٦٦/١)، تحقيق سيد كسروي حسن، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م. وانظر: فتح الباري (١٩٥/١).

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الرسول والعلم التجريبي

العلمُ الَّذي دعَا إليه الإسلامُ، وحثَّ عليه القرآن والسُّنَّة: هو كل معرفة مستندة إلى استدلال، ولهذا لا يعدُّ علماء المسلمين التقليدَ علمًا، لأنَّه اتِّباع لقول الغير بلا حجَّة.

وعلى هذا يشمل العلم في الإسلام مجالات عدَّة تقصر عن الدلالة عليها كلمة «العلم» بمفهومها الغربيِّ الحديث.

فيشمل العلم مجالَ «ما وراء الطبيعة» ممَّا جاء به الوحي، فكَشَفَ به عن حقائق الوجود الكبرى، وأجاب به عن الأسئلة الخالدة التي حيَّرت الإنسان منذ فكر وتفلسف، وهي: **من أين؟ وإلى أين؟ ولم؟**

بالجواب عن هذه الأسئلة عرف الإنسان مبدأه ومصيره ورسالته، عرف نفسه وعرف ربه، واطمأنَّ إلى غايته.

وهذا أوْلى ما يطلق عليه لفظ «العلم»، بل هو كما يسمِّيه الإمام ابن عبد البَرِّ (العلم الأعلى)[1].

ويشمل العلم مجال (الإنسان) وما يتعلق به من دراسات، تبحث عن جوانب حياته، وعلاقاته المكانيَّة، والزمانيَّة، والنفسيَّة،

(١) جامع بيان العلم (١٤٨٢).

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

والاجتماعيَّة، والاقتصاديَّة، والسياسيَّة، وغير ذلك ممَّا تهتم به العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة.

ويشمل العلم مجال (الماديَّات) المبثوثة في الكون عُلويِّه وسفليِّه، وهي تتضمَّن علوم الطبيعة، والكيمياء، والأحياء، والفلك، والطب، والهندسة، وغيرها، ممَّا يقوم على الملاحظة والتجربة.

وهذا المعنى أو هذا المجال، هو الَّذي يقف عنده الغربيون اليوم، لا يجاوزونه إذا تحدَّثوا عن «العلم»، لأنَّه وحده الَّذي يخضع للاختبار والقياس، وتحكم عليه المشاهَدَة والتجربة، ويمكن إدخاله «المعمل» أو «المختبر».

وأقول: إنَّ الإسلام لا يقف عقبة في سبيل هذا النوع من «العلم» الَّذي تُعتبر المادة موضوعًا له، ولا يعدُّه مقابلًا للإيمان، أو معاديًا له، كما اعتبرت ذلك أديان أخرى في مراحل تاريخيَّة معيَّنة.

بل أقول بكل صراحة واعتزاز: إنَّ تعاليم القرآن والسُّنَّة قد هيَّأت المناخ النفسيَّ والعقليَّ الَّذي ينْبت فيه هذا العلم، بحيث ترسخ أصوله، وتمتدُّ فروعه، ويُؤْتي أُكُلَه بإذن ربِّه.

ومن هذه التعاليم:

١ ـ تكوين العقليَّة العلميَّة:

فهناك عقليَّة عاميَّة أو خرافيَّة تُصدِّق غالبًا كل ما يقال لها، وتقبل كل ما يُلقى إليها، وخصوصًا إذا جاء ممَّن تُعظِّمه من الآباء أو الكبراء، وتنقاد لما عليه جمهور الناس صوابًا كان أو خطأً، ولا تمتحن أفكارها،

QaradawiBooks.com

ولا تُخضع معلوماتها لمناقشـة أو اختبار، شعارها: «هذا ما وجدنا عليه آباءنا». أو «نحن مع الناس أحسنوا أو أساؤوا».

وفي مقابل هـذا اللون: «العقليَّة العلميَّـة الموضوعيَّة» التي لا تَقبل نتائج بغيـر مقدِّمـات، ولا تخضـع إلَّا للحجة والبرهـان، ولا تحكِّم العواطف والظنون في مقام يطلب فيـه اليقين المجرَّد، والعلم المحقَّق، وقد وضح القرآن والسُّنَّة المعالم الأساسية التي تقوم عليها هذه العقلية العلميَّة، ونستطيع أن نوجزها في النقاط التالية:

(١) ألَّا تُقْبَل دعوى بغير دليل مهما يكن قائلها، والدليل هو: البرهان النظري في العقليَّات: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤]، والمشـاهدة أو التجربة في الحسِّيَّات: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩]، وصحَّـة الرواية وتوثيقها في النقليَّـات: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤].

(٢) رفض الظَّنِّ فـي كل موضع يطلب فيه اليقيـن الجازم، والعلم الواثق، ولذا ردَّ القرآن مزاعم المشركين في آلهتهم بقوله: ﴿**وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا**﴾ [النجم: ٢٨].

وردَّ مزاعم اليهود والنصارى في صلب المسـيح، فقال: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ [النساء: ١٥٧].

وجاء فـي الحديث الصحيـح: «**إيَّاكم والظـنَّ؛ فإنَّ الظـنَّ أكذبُ الحديث**»[(١)].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٦٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

(٣) رفض العواطف والأهواء والاعتبارات الشخصية حيث يطلب الحياد والموضوعيَّة، وحيث يكون التعامل مع طبائعِ الأشياء وقوانينِ الوجود، أيًّا كانت نتائجها. يقول القرآن منكرًا على المشركين: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣].

وقال في خطاب داود: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

(٤) الثورة على الجمود والتقليد والتبعية الفكريَّة للآخرين، سواء كانوا من الآباء والأجداد، أم من السَّادة والكبراء، أم من العامَّة والجماهير، وفي القرآن إنكار شديد على الذين يقولون: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ وهو ردَّ عليهم بقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وفي القرآن كذلك نعيٌ شديد على موقف الأتباع الذين أطاعوا سادتَهُم وكبراءَهم فأضلُّوهم السبيل، وبيان تبرئهم يوم القيامة بعضهم من بعض، وتحميل الفريقين تَبِعة ما هم فيه من ضلال: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وفي الحديث أيضًا تحذيرٌ من اتِّباع الجمهور إن كانوا على خطأ، وإدانة لعقليَّة من يرضى لنفسه أن يكون تابعًا، وقد خلقه الله سيدًا: «**لا يكن أحدُكُم إمَّعة، يقول: أنا مع الناس، إن أحسنوا أحسنت، وإن أساؤوا أسأت. ولكن وطِّنوا أنفسكم؛ إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا ألَّا تظلموا**»[(١)].

(١) رواه الترمذي في البر والصلة (٢٠٠٧)، وقال: حسن غريب. والبزار (٢٨٠٢)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٢٧١)، عن حذيفة بن اليمان. ولكنَّه يتماشى مع القواعد العامة، والمبادئ الكلية في الإسلام.

QaradawiBooks.com

وهذا الموقف الأخلاقي الَّذي يتميَّز باستقلال الشخصيَّة في السلوك، يدعو إلى مثله في الفكر أيضًا.

(٥) الاهتمام بالنظر والتفكير والتأمُّل: ﴿فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وفي الإنسان نفسه فهو عالَم وحده: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

وفي سَيْر التاريخ البشـري، ومصاير الأمم، وسنن الله في الاجتماع الإنسـانيِّ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

٢ ـ محاربة الأميَّة:

ومن هذه التعاليم التي تُهيِّئ تربة المجتمع لظهور التفكير، والبحث العلمي: نشر التعليم ومطاردة الأميَّة، ولهذا حرص النبي ﷺ على محاربة الأمية التي كانت منتشـرة بيـن العرب، حتَّى كانـوا يُعرفون بين الأمم بـ «الأمِّيِّين»، وهكذا أسـماهم القـرآن: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]، وقال معبِّرًا عن الواقع القائـم حينذاك: «**نحن أمَّة أميَّة لا نكتب ولا نحسب**»(١).

والرائع هنا أنَّ هذا النبيَّ الأمِّيَّ في هذه الأمة الأميَّة، كان أول من مَجَّد «القلم» وعمل على إشاعة الكتابة، ومحوِ الأميَّة بين أتباعه، بكلِّ سبيل.

ولا غَرْو، فإنَّ أول آياتٍ أنزلت عليه من ربِّه، تضمَّنت التنويه بالقراءة والقلـم والتعليـم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلـق: ١ ـ ٥]، وثاني

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٩١٣)، ومسلم (١٠٨٠)، كلاهما في الصيام، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

سورة نزلت من القرآن العظيم سمِّيت سورة (القلم)، وفي مطلعها أقسم الله بهذه الأداة الصغيرة في حجمها، الكبيرة في أثرها (القلم)، فقال: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

وحينما أتيحت للرسول ﷺ فرصةٌ لتعليم بعض المسلمين الكتابة، لم يدعها تفوت دون أن يستفيد منها، وذلك في غزة بدر، حيث كان بعض أسرى قريش ممَّن يعرفون الكتابة، فجعل فداءَ الواحد منهم من أسْره، أن يعلِّم عشرةً من أبناء المسلمين الكتابة.

وذكر ابن سعد، عن عامر الشَّعبي قال: أسر رسول الله ﷺ يوم بدر سبعين أسيرًا، وكان يفادي بهم على قدْر أموالهم، وكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون؛ فمن لم يكن له فداء، دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة فعلَّمهم، فإذا «حذقوا» فهو فداؤه[1].

وذكَر أنَّ زيد بن ثابت ـ أحد كتَّاب الوحي ـ كان ممَّن علَّمه أسرى قريش. ومعنى هذا: أنَّ خطة النبي ﷺ لم تكن قائمة على مجرَّد «فك الخط» كما يقولون، بل لا بدَّ من درجة «الحذق» والإتقان، حتَّى لا ينسى ويرتد إلى الأميَّة من جديد.

ولم يمنع النبيَّ ﷺ اختلافُ الدين أن يأخذَ من المشركين خير ما عندهم، ولا سيما أنَّ مجرَّد تعلُّم الكتابة لا يَحمل ـ في العادة ـ فكرًا ولا ثقافة، ولا يتلوَّن بلون العلم.

(١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢٢/٢)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.

QaradawiBooks.com

ولم يقف حثُّ النبـيِّ ﷺ على تعلُّم الكتابة عنـد الرجال فقط، بل شمل النساء أيضًا، وقد علَّمت الشـفاءُ بنت عبد الله أمَّ المؤمنين حفصة بنت عمر الكتابة[1].

٣ ـ تعلم اللغات عند الحاجة:

ومن هذه التعاليم المهمة لإيجاد مناخ علمي: تعلُّم لغات الآخرين عند الحاجة إليهـا، وخصوصًـا إذا كان عندهم علم يُؤْخَـذ، أو حكمة تقتبس فلا سبيل إلى الانتفاع بما عند غيرك إذا جهلت لغته، ولم يمنع الإسلام من تعلُّم لغات الآخرين، بل دعا إليها باعتبارها وسيلة لنشر دعوته في العالم.

وذلك أنَّ رسالته ﷺ، رسالة عالميَّة، فهو ـ وإن كان عربيًّا، والكتاب المنزَّل عليه عربي، وقد أرسـله الله بلسـان قومِه ليبيِّـن لهم ـ قد بُعِث للناس كافَّة ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقـان: ١]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبيـاء: ١٠٧]، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فلا بد من ترجمة بينـه وبين أرباب اللغات الأخـرى، حتَّى يمكنه تبليغُ الدعوة إليهم، وتلقِّي الإجابة منهم، وقد كان عنده ﷺ من أصحابه من يعرف الفارسية والرومية والحبشيَّة، ويكفيه همَّ الترجمة منها وإليها، ولكن لم يكن عنده من يعرف اللغة السريانيَّة التي يكتب بها يهود، فأمر بذلك كاتبَ وحيـه الأنصاري النابغة زيد بن ثابـت رضي الله عنه؛ ليتقنها قراءةً وكتابة، ويستغني بها عن الوسطاء من اليهود في ذلك.

---

(١) رواه أحمد (٢٧٠٩٥)، وقال مخرِّجـوه: رجاله ثقات رجال الشـيخين. وأبو داود (٣٨٨٧)، والنسائي في الكبرى (٧٥٠١)، كلاهما في الطب، عن الشفاء بنت عبد الله.

QaradawiBooks.com

قال زيد: أمرني رسول الله ﷺ، فتعلَّمت له كتاب يهود بالسريانيَّة، وقال: «**إنِّي والله ما آمَن يهود على كتابي، فما مرَّ لي نصف شهر حتَّى تعلَّمته وحذقته، فكنت أكتب له إليهم، وأقرأ له كتبهم**»[١]. ولعلَّه كان على شيء من المعرفة بها من قبل (لمجاورة الأنصار لليهود) حتَّى أمكنه أن يحذِقَها في هذه المدَّة القصيرة. ومن هنا حرص كثير من المسلمين على معرفة اللغات، فترجموا منها وإليها، وقال في ذلك الشاعر:

بقدر لغاتِ المرء يكثُر نفعه فتلك له عند الملمَّات أعوان
فأقبل على درس اللغات وحفظها فكلُّ لسان في الحقيقة إنسان[٢]

٤ ـ استخدام أسلوب الإحصاء:

وإذا كان عصرنا يَعتبر استخدام أسلوب الإحصاء من أبرز دلائل الطريقة العلميَّة في معالجة الأمور، وهو فارقٌ مميِّز بين العِلميِّين والعشوائيِّين، أو الغوغائيِّين من الناس فإنَّ النبي ﷺ قد بادر على الانتفاع بالإحصاء منذ عهد مبكر من إقامة دولته بالمدينة.

فقد روى البخاري ومسلم، عن حذيفةَ بنِ اليمان رضي الله عنه قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ، فقال: «**أحصوا لي كم يلفظ الإسلام**».

وفي رواية للبخاري أنَّه قال: «**اكتبوا لي منْ يلفظ بالإسلام من الناس**». قال حذيفة: فكتبنا له ألفًا وخمسمائة رجل... الحديث[٣].

---

(١) رواه أحمد (٢١٦١٨)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. وأبو داود في العلم (٣٦٤٥)، والترمذي في الاستئذان (٢٧١٥)، وقال: حسن صحيح. وعلقه البخاري في صحيحه (٧١٩٥) بصيغة الجزم.

(٢) ديوان صفي الدين الحلي صـ٦٦٩، نشر دار صادر، بيروت.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٦٠)، ومسلم في الإيمان (١٤٩).

QaradawiBooks.com

فهو إحصاءٌ كتابيٌّ يراد تدوينه وتثبيته، وذلك ليعرف ﷺ مقدار القوة البشرية الضاربة التي يستطيع بها أن يواجِه أعداءه المتربِّصين به، ولهذا كان الإحصاء للرجال فقط، أي القادرين على القتال.

والإحصاءُ الَّذي تمَّ في عهدٍ مُبكِّر من حياة الدولة المسلمة، وتمَّ بأمرٍ من الرسول نفسه في سـهولة ويُسـر، يرينا إلى أيِّ حدٍّ يُرحِّب الإسلام باستخدام الوسائل العلميَّة.

وفي مقابل هذا نجد في «العهد القديم»: أنَّ أحد أنبياء بني إسرائيل أراد أن يعمَل لهم إحصاءً فنزلت عقوبة سـماويَّة بهم! كأنَّما (الإحصاء) يمثِّل تحدِّيًا للقدر أو للإرادة الإلٰهيَّة. وهذا ما اسـتنبط منه الفيلسـوف المعاصر الشهير «برتراند راسل» أنَّ «التوراة» والكتاب المقدَّس لا يتيح مناخًا مناسبًا لإنشاء عقلية علمية.

٥ ـ التخطيط:

وإذا كان الإحصاء من دلائل الطريقة العلميَّة فالتخطيط كذلك، بل هو أوضح دلالـة عليها، والتَّخطيط إنَّما يعتمـد على الإحصاء، ويُراد بالتخطيـط: وضع خطـة لمواجهة احتمـالات المسـتقبل، وتحقيق الأهداف المنشودة.

ومن الناس من يتصوَّرون أو يُصوِّرون الدين في موقف المعارض أو المناقض لفكرة التخطيط العلمي للمستقبل، وهذا من أثر الفكرة القديمة التي جعلـت العلمَ مقابلًا للإيمان، فهما ضـدَّان لا يجتمعان، أو خطَّان متوازيان لا يلتقيان.

QaradawiBooks.com

والحقيقة أنَّ فكـــرة الدين في جوهرها قائمةٌ على أســـاس التخطيط للمســـتقبل؛ ففيه يأخذ المرء المتديِّن من يومه لغده، وبعبارة أخرى: من حياته لموته، ومن دنيـــاه لآخرته، ولا بدَّ له أن يخطِّـــط لحياته، ويضع لنفسه منهاجًا يُوصِله إلى الغاية، وهي رضوان الله ومثوبتُه.

وفي القرآن الكريم قصَّةٌ، جعلها الله عبرةً لأولي الألباب، وهي قصَّة نبي الله يوســـف عليه السلام، وفيها يذكر القرآن لنا مشـــروع تخطيط للاقتصاد الزراعي لمدة خمسة عشر عامًا، لمواجهة أزمة غذائيَّة عامَّة، عرف يوسف ـ بما ألهمه الله، وعلَّمه من تأويل الأحاديث ـ أنَّها ستصيب المنطقة كلها، وقد اقترح يوسف عليه السلام مشـــروعَ الخطة، وَوُكِلَ إليه تنفيذُها، وكان فيها الخير والبركة على مصر وما حولها، قال تعالى على لسان يوسف: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۞ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ۞ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٧ ـ ٤٩].

ويظنُّ آخرون أنَّ التخطيطَ للغد ينافي التـــوكُّل على الله، أو الإيمانَ بقضائه وقدره، ولهذا يســـتبعدون كلَّ الاســـتبعاد أن يقبـــلَ الدِّينُ فكرةَ التخطيط، فضلًا عن أن يُوجِّهَ إليه، أو يَحُثَّ عليه.

والحقُّ أنَّ الَّذي يتعمَّق في دراســـة كتاب الله، وسُنَّة رسوله، يتبيَّن له أنَّهما يرفضان الارتجال والعَشوائيَّة، وتركَ الأمور تجري في أعِنَّتها بغير ضابط، ولا رابط ولا نظام.

وبيَّن الرســـول ﷺ أنَّ التوكُّل على الله لا يعني اطِّراح الأســـباب أو إغفالَ الســـنن، التي أقام الله عليها نظامَ هذا الوجود، ولا يكاد مســـلمٌ يجهل قصة الأعرابي الَّذي جاء إلى النبيِّ ﷺ، وترك ناقته أمام المسجد

QaradawiBooks.com

قائلًا: يا رسـول الله، أأعقل ناقتي وأتوكَّل أم أطلقها وأتوكَّل؟ فقال له: «**اعقلها وتوكَّل**»[١].

وقال الإمام الطبريُّ يردُّ على منْ زعم أنَّ تَعَاطيَ الأسباب يُؤثِّر في كمال التوكل: الحقُّ أنَّ من وثق بالله، وأيقـن أنَّ قضاءه عليه ماضٍ، لم يقدح في توكُّله تعاطيه الأسـباب، اتِّباعًا لسُـنَّته وسُـنَّةِ رسـوله، فقد ظاهر ﷺ بين درعين، ولبس على رأسـه المغفر، وأقعد الرماة على فم الشـعب، وخَنْدَقَ حول المدينة، وأذن في الهجرة إلى الحبشـة، وإلى المدينـة، وهاجر هو، وتعاطى أسـباب الأكل والشـرب، وادَّخر لأهله قُوتَهم، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السـماء وهـو كان أحقَّ الخلق أن يحصل له ذلك[٢].

ومن قرأ سـيرته عليه الصلاة والسلام، وجد أنَّه كان يعدُّ لكلِّ أمـرٍ عدَّته، ويُهيِّئ له أسـبابَه وأهميتَه، آخذًا حذرَه، مُقدِّرًا كافة الاحتمالات، واضعًا ما أمكنه من الاحتياطات مع أنَّه كان أقوى المتوكِّلين على الله تعالى.

فهو حين أمر أصحابَه ـ بعد أن اشتدَّ إيذاءُ قريش لهم ـ بالهجرة إلى الحبشة، لم يكن هذا الأمر اعتباطًا، أو رمْيةً من غير رامٍ، بل كان نتيجة معرفته بالظروف الجغرافية والدينية والسياسية للحبشة في ذلك الوقت.

فلم يكن من الحكمة ولا من حُسْـن الخطَّة أن يأمرَهُم بالهجرة إلى مكان ـ مهما بعد ـ في شبه جزيرة العرب، فإنَّ قريشًا ـ بما لها من نفوذٍ دينيٍّ وأدبيٍّ ـ تستطيع أن تلاحقهم.

---

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٧)، وقال: حديث غريـب. وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣٩٠/٨)، وحسنه الألباني في تخريج مشكلة الفقر (٢٢)، عن أنس.

(٢) نقله ابن حجر في فتح الباري (٢١٢/١٠).

QaradawiBooks.com

ولم يكن من الحكمة ولا من حُسْن الخِطَّة أن يذهبوا إلى بلد تحت سيطرة الفرس أو الروم، حيث يحكمها أباطرةٌ لا يقبلون مثل هذه الدعوة الجديدة.

ولم يكن من الحكمةِ ولا من حُسْنِ الخِطَّة أن يذهبوا بعيدًا إلى بلاد مثل الهند والصين، حيث تنقطع أخبارُهم، وتكون الهجرة مُهلكةً لهم.

ولقد كانت الحبشة هي المكانَ المناسب جغرافيًّا، فهو ليس جِدُّ بعيد، ولا جِدُّ قريب، بل بينه وبين قريش بحر.

وكانت الحبشة هي المكانَ المناسب دينيًّا، فقد كانوا أهل كتاب من النصارى الذين يُعدُّون أقرب مودَّة للمسلمين، وكانت الحبشة هي المكان المناسب سياسيًّا، فقد كان يحكمها رجل اشتهر بالعدل والنَّصَفة، ولهذا قال الرسول لأصحابه: «**إنَّ بها ملكًا أرجو ألَّا تُظلموا عنده**»[1].

وهذا يدلنا على أنَّ الرسول وأصحابه لم يكونوا في عزلة عن العالم من حولهم، رغم صعوبة المواصلات بين الأقطار بعضِها وبعض.

ويدلُّ على ذلك أيضًا: موقفهم من حرب الفرس والروم، وما كان من جدل بين المسلمين والمشركين في هذا، ممَّا نزلت فيه أوائل سورة الروم: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ [الروم: ٢، ٣].

وهكذا، فقد كانوا ـ وهم في فجر الدعوة ورغم الضعف والاضطهاد ـ على صلة بالصراع العالميِّ بين الدولتين العظميين في ذلك العصر، أو المعسكرين الكبيرين: الشرقي والغربي.

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ. ورواه البيهقي في الدلائل (٣٠١/٢): «إن بأرض الحبشة ملكًا لا يُظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا ممَّا أنتم فيه». وجوَّد إسناده العراقي في تخريج الإحياء صـ ٦٩٠، عن أم سلمة.

QaradawiBooks.com

وأوضح من ذلك: موقفُه ﷺ في هجرته إلـى المدينة، ففيها يتجلَّى التخطيط العلمي، والتوكل الإيماني جنبًا إلى جنب.

فلقد أعدَّ عليه الصلاة والسلام من جانبه كل ما يسـتطيع البشـر إعداده من الوسائل والاحتياطات والمُعِينات.

ولقد اطمأنَّ إلى المهجر الَّذي سـينتقل إليه، بعد أن بايع المؤمنين مـن الأوْس والخزرج بيعةَ العقبة الأولى والثانية، واشـترط لنفسـه أن يمنعوه ممَّا يمنعون منه أنفسهم وذراريهم.

واطمأنَّ إلى الرفيق الَّذي سـيصحبه في رحلته الجاهدة بما فيها من أخطار، وما تحمله من مفاجآت، ولم يكن هناك أفضلَ من أبي بكر رفيقًا.

واطمأنَّ إلى الفدائي الَّذي سـيَبِيْتُ مكانه، معرِّضًا نفسه لاحتمالات الخطر وغَـدَرات المتربِّصين، ولـم يكن ثمَّ أفضل مـن عليٍّ ابن عمه أبي طالب فارس الإسلام لهذه المُهمَّة.

ورتَّب الدليل الخِرِّيت الَّذي يدُلُّه على الطريق، وما فيه من منعطفات ومخابئ، يمكن أن تُضلِّل عنه أعينَ الطالبين، فكان مشـركًا أمينًا، وهو عبد الله بن أُريقط. وهو ما أخذ منه الفقهاء جوازَ الاستعانة بالخبرة الفنيَّة غير الإسلاميَّة، مع الاطمئنان والأمان.

وهيَّأ الرواحل التي سـيمتطيها هـو وصاحبُه، ودليلُه في سـفرهم الطويل، واتَّفقوا على المكان الموعود الَّذي يستقلُّون به الركائب.

وتخيَّر المخبأ الَّـذي يختفي فيـه أيامًا معدودة، حتَّـى تخِفَّ حدَّة الطلب، ويتملك القوم اليأس، واختاره في غير طريق المدينة؛ زيادةً في التعمية على القوم، فكان غار «ثور».

QaradawiBooks.com

وأعدَّ فريق الخدمة الَّذي يأتي بالزاد، والأنباء، خلال أيام الاختفاء، فكانت أسماء وعبد الله بن أبي بكر، ومِنْ بعدهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يأتي بغنمه فيحلبون منها ويُعفِّي على آثار أسماء وعبد الله.

خطَّةٌ مُحْكمة الحلقات، مُتْقنةُ التدبير، ولم تُتْرك فيها فجوةٌ دون أن تُمْلأ، ولا ثغرةٌ دون أن تُسدَّ، وَوُضع فيها كل جندي في دوره المناسب لظروفه وقدراته، فدور أبي بكر، غير دور عليٍّ، غير دور أسماء، وكلٌّ في موقعه الصحيح.

ومع هذا الإحكام الدقيق، كادت الخِطَّة تُخفق، واستطاع المشركون أن يصلوا إلى الغار، ويقفوا على بابه، وكان يكفي لكشف الأمر وإفسادِ الخِطَّة أن ينظر أحد القوم تحت قدميه ليرى الرسول وصاحبَه في الغار، وهذا ما خشيه أبو بكر، وصرَّح به للرسول الله ﷺ حين قال: لو نظر أحدُهم تحت قدميه لرآنا، فقال له كلمته المؤمنة الواثقة: «**ما ظنُّك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟**»[1]. ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وهنا تجلَّى دور «التوكل» الحق، فبعد أن يبذلَ الإنسانُ ما في وسعه، ويتَّخذَ من الأسباب والخطط ما يقدر عليه، ويدعَ ما لا يقدر عليه من مفاجآت القدر، لله وحده. وهنا تقع: «إنَّ الله معنا» موقِعَها وتُؤتي أكلها.

٦ ـ إقرار منطق التجربة في الأمور الدنيويَّة:

ولعل أظهر ما يميِّز «العلم» بالمفهوم العصري أو الغربي: أنَّه لا يقوم على المنطق الشكليِّ أو الصوريِّ أو القياسيِّ الَّذي ينسب إلى (أرسطو)،

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٦٦٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨١)، عن أبي بكر الصديق.

QaradawiBooks.com

وإنَّما يقوم على منطق الملاحظة والتجربة ويخضع في نتائجه لما تأتيان به. ولهذا يُسمَّى: «العلم التجريبي» ويُسمَّى منهجه: «المنهج التجريبي».

وهنا أيضًا نجد الرسول ﷺ سبق إلى إقرار مبدأ التجربة في الأمور الدنيويَّة الفنيَّة، مثل أمور الزراعة والصناعة والطب وما شاكلها، فما أثبتت التجربة نفعَه في هذا فهو مطلوب شرعًا، وما أثبتت ضرَره فهو مرفوضٌ شرعًا.

وأوضح مثال لهذا المبدأ: موقفُه عليه الصلاة والسلام من قضية تأبير النخل، حيث رأى أصحابه من الأنصار يفعلون ذلك، ولم يكن له بذلك عهد، حيث نشأ بمكة وهي وادٍ غير ذي زرع، فقال لهم كلمةً من باب الظنِّ والتخمين، يشير بها إلى أنَّ هذا العمل لا ضرورة له. وفهمَ الأنصار منها أنَّها من أمر الوحي والدين، الَّذي لا يجوز مخالفتُه. فتركوا التأبير في ذلك الموسم، فخرج التمر رديئًا.

فلمَّا علم ذلك عليه الصلاة والسلام، بيَّن لهم أنَّ كلمته لم تكن من باب الوحي الإلٰهيِّ، بل من باب المشورة الدنيوية، حسب ظنِّه الناشئ عن خبراته البيئية المحدودة، ثم قال لهم في النهاية: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**» فهذه الشؤون الدنيوية الفنيَّة المحضة، متروكةٌ لعقولهم ومعارِفِهم، يدبِّرونها وَفْقًا لمصلحتهم. وليس من شأن الوحي أن يتدخَّل فيها، فهم بها أدرى وأعلم.

والقصة في صحيح مسلم، ومسند أحمد وغيرهما، رواها عددٌ من الصحابة منهم طلحة بن عبيد الله، ورافع بن خَديج، وعائشة، وأنس رضي الله عنهم.

ففي المسند عن طلحة رضي الله عنه قال: مررت مع النبي ﷺ في نخل المدينة، فرأى أقوامًا في رؤوس النخل، فقال: «**ما يصنع هؤلاء؟**». قال: يأخذون من الذكر فيحطون في الأنثى يلقِّحون به، فقال: «**ما أظنُّ ذلك**

QaradawiBooks.com

يغْني شيئًا». فبلغهم، فتركوه ونزلوا عنها، فلم تحمل تلك السَّنَة شيئًا. فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ، فقال: «**إنَّما هو ظنٌّ ظننتُه، إنْ كان يغني شيئًا فاصنعوا، فإنَّما أنا بشر مثلُكُم، والظنُّ يخطئ ويصيب، ولكن ما قلت لكم: قال الله ﷻ؛ فلن أكذب على الله**»[(١)].

وفي صحيح مسلم من رواية رافع بن خديج أنَّه قال لهم: «**إنَّما أنا بشرٌ إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي، فإنَّما أنا بشر**»[(٢)].

وفيه من رواية عائشة وأنس: أنَّه ﷺ قال لهم بعد أن خرج التمر شيصًا ـ بُسْرًا رديئًا ـ: «**ما لنخلكم؟!**». قالوا: قلت كذا وكذا. قال: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**»[(٣)].

فالقانون الَّذي يجب الخضوعُ له هنا: هو القانون الَّذي تنتجُه الخبرةُ والممارسة، أو المشاهدة والتجربة. ويكفي العقل الإنساني في هذه الأمور هاديًا ودليلًا. أمَّا الوحيُ فحسبه أن يضعَ للناس القيم والمبادئ العامة والضوابط. ثم يدع البشر يتصرَّفون تبعًا لما يعلمون، وحسبهم هذه الكلمة الجليلة: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**».

٧ ـ النزول عند رأي الخبراء وأهل المعرفة:

ومن دلائل العقليَّة العلميَّة الحَقَّة: النزول عند رأي الخبراء، وأهل الذكر، والمعرفة في كلِّ فنٍّ من الفنون أو خبرة من الخبرات. وهذا

(١) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٦١)، وأحمد (١٣٩٩).
(٢) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٦٢).
(٣) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٦٣).

QaradawiBooks.com

ما هدى إليه القرآن في مثل قوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

ففي الأمور الحربيَّة، يجب الوقوفُ عند رأي الخبراء العسـكريين، وفي الاقتصاد يؤْخَذ برأي الاقتصاديين، وفـي الصناعة تُحترم توصيات الصناعيين... وهكذا.

وفي معركة بدر الكبرى، حيث التقى الرسول والمسلمون بالمشركين من قريش، ونزلت قريش بالعُدوة القصوى من الوادي، وخرج الرسـول يبادرهم إلى الماء، حتَّى جاء أدنى ماء بدر فنزل به.

وهنا يتقدم الحُباب بن المنذر الأنصاري إلى النبيِّ ﷺ، باقتراح يقول فيه: يا رسـول الله، أرأيت هذا المنـزل: أمنزلٌ أنزلكَـهُ الله، ليس لنا أن نتقدَّمه ولا أن نتأخَّر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟! قال: «**بل هو الرأي والحرب والمكيدة**» قال: يا رسول الله، إنَّ هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتَّى نأتـيَ أدنى ماء من القـوم فننزله، ثم نغـوِّر ما وراءه من القُلُب[1]، ثم نبني عليه حوضًا، فنملأه ماءً، فنشـرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد أشرتَ بالرأي**»[2].

يريد الحُبَاب بسؤاله أن يستوضح عن اختبار النبيِّ للمكان الَّذي نزل به: أهُو بوحيٍ من الله، فلا يَسعُه إلَّا السمع والطاعة والتنفيذ بكل دقَّة، أم هو من التدابير العسـكريَّة التي يتَّخذها النبي ﷺ بوصفه قائدًا للمعركة

(١) نغور: ندفن ونطمس، القلب بضم القاف واللام: جمع قليب وهو البئر.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٦٢٠/١)، تحقيق مصطفى السـقا وآخرين، نشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط٢، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م.

QaradawiBooks.com

وإمامًا للمسلمين؟ وفي هذه الحالة يستطيع أن يدليَ بدلوه، ويشيرَ برأيه، وبخاصَّة أنَّه خبير بالمنطقة، عالم بها وبقُلُبها كما ذكر ابن سعد[١].

وقدَّم الحُباب مشروعه إلى النبي ﷺ فرحَّب به، ونزل عن رأيه الأول إليه، وقال بكل شجاعة ووضوح: «**لقد أشرتَ بالرأي**»، ووضع الاقتراح موضع التنفيذ.

واقترح عليه سعد بن معاذ بناءَ عريش له، يكون فيه، ويُشرف على المعركة من بَعيد، فأثنى عليه خيرًا، ونفَّذ اقتراحه[٢].

وفي غزوة الأحزاب روي أنَّ سلمان الفارسي أشار على رسول الله ﷺ بحفر الخندق حول المدينة، فقبل النبيُّ ﷺ مشورتَه وبادر بتنفيذها.

ولهذا لمَّا أقبل فرسان المشركين تُسرع بهم خيولهم حتَّى وقفوا على الخندق، فلمَّا رأوه قالوا: والله إنَّ هذه لمكيدةٌ ما كانت العربُ تَكِيدُها[٣].

ولا عَجَب أن يقتبس المسلمون من أساليب الفرس أو الروم أو غيرهم ما يمتنعون به من عدوِّهم، وما يمكِّنهم من النصر عليه، وكل ما يعود عليهم بالخير في حياتهم، فالوسائل لا حكم لها في ذاتها، وإنَّما لها حكمُ مقاصدها.

٨ ـ اقتباسُ كلِّ علمٍ نافع:

ويَحثُّ النبيُّ على اقتباس كلِّ علم ينفع الإسلام وأهله، ولو كان من عند غير المسلمين، كما رأينا كيف استفاد من أسرى المشركين في بدر

(١) الطبقات الكبرى (١٥/٢).
(٢) سيرة ابن هشام (٦٢٠/١، ٦٢١).
(٣) سيرة ابن هشام (٢٢٤/٢).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

في تعليم أولاد المسـلمين الكتابة، كما جاء في الحديث الَّذي أخرجه الترمذي وابن ماجه:

«**الكلمةُ الحكمةُ ضالَّة المؤمن، أنَّى وجدها، فهو أحقُّ بها**»[١].

وقـال علـيٌّ رضي الله عنه: العلم ضالـة المؤمن، فخـذوه ولو مـن أيدي المشركين[٢].

وينطبق هذا أكثر ما ينطبق على نتائج العلـوم الماديَّة المحضة التي لا يصطبغ بعقائد أصحابها ولا بأفكارهم، لأنَّها قوانينُ كونيَّة عامَّة يدينُ بها المؤمن والكافر، ويخضع لسنَّتها البَرُّ والفاجر.

ومن هنا لم يجد المسـلمون حرَجًا في اقتبـاس العلوم الكونيَّة من الطب والكيميـاء والفلك والبصريـات، والرياضيـات وغيرها من أمم الحضارات القديمة مثل اليونان، والفرس، والروم، ولا سيما اليونان.

وهذا بخـلاف الدراسـات الأخـرى التي تتَّصـل بالديـن والقيم والمفاهيم، وتؤثِّر في وجهة نظر دارسـيها إلى الله والطبيعة والإنسـان والتاريخ والمجتمع.

ومن هنا أنكر النبيُّ ﷺ على عمر حين رآه يقرأ شـيئًا من صحائف أهل الكتاب من اليهـود؛ لأنَّ الله قد أغنى بالقـرآن المحفوظ عن كتبٍ أصابها التَّحريف والتَّبديـل، واختلطت فيها كلمات الله بأوهام البشـر،

(١) رواه الترمذي في العلم (٢٦٨٧)، وقال: حديث غريب لا نعرفه إلَّا من هذا الوجه. وابن ماجه في الزهـد (٤١٦٩)، وضعفـه الألباني في ضعيـف الترمذي (٥٠٦). ولكـن معناه صحيح بالإجماع. عن أبي هريرة.

(٢) جامع بيان العلم (٦٢١).

QaradawiBooks.com

وأهواءِ الخلق، ففقدت الثقة بعِصمتها، والدينُ لا يجوزُ أن يُؤْخَذَ إلَّا من مصدر إلٰهيٍّ معصوم، ثابتِ النسبة إلى الله تعالى.

روى الإمام أحمد عن جابر بن عبـد الله، أنَّ عمر بن الخطاب ﷺ أتى النبيَّ ﷺ، بكتابٍ أصابه من بعض أهل الكتاب، فـرآه النبيُّ فغضب فقال: «**أمُتَهَوِّكون[1] فيها يا ابن الخطاب؟ والَّذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاءَ نقيَّةً، لا تسألوهم عن شيء فيخبرونكم بحقٍّ فتُكَذِّبوا به، أو بباطلٍ فتُصَدِّقوا به. والذي نفسي بيده لو كان موسى حيًّا ما وسِعَه إلَّا أن يتَّبعني**»[2].

وإنَّما غضب النبي ﷺ، وتغيَّر وجهه واشتد في إنكاره؛ لأنَّ الأمر هنا أمرُ دين لا يُؤْخَذ إلَّا من الصادق المصدوق.

أمَّا علوم الحياة وفنونُهـا، وما يهتدي إليه الناس بعقولهم وتجاربهم فهو ملك عامَّة البشر، نأخذه من أيِّ وعاءٍ خرج، ونلتمسه من الشرق أو الغرب، ونقتبسه من المسلم أو المشرك، كما رأيناه ﷺ يستفيد من أسرى المشـركين في محوِ الأميَّة، ويأخذ بفكرة حفر الخنـدق حول المدينة، وهي من أسـاليب الفرس، ويسـتخدم المنجنيق في حصـار الطائف، ويخطب على المنبر وهو صنعة نجَّار رومي.

ونرى خلفاءه الراشدين يسنُّون للأمَّة أمورًا لم يكن للعرب بها عهد، وإنَّما اقتبسوها من غيرهم من الأمم، إذْ رأوا فيها صلاحًا ونفعًا، فها نحن

(١) متهوكون: أي متحيرون، يعني: هل أنتم متحيِّـرون أو متردِّدون في عقيدتكم حتى تأخذوا العلم من غير كتابكم ونبيِّكم.

(٢) رواه أحمد (١٥١٥٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. والدارمي في المقدمة (٤٤٩)، وأبو يعلى (٢١٣٥)، قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٣٣٤/١٣): رجاله موثقون إلَّا أن في مجالد ضَعْفًا. عن جابر بن عبد الله.

QaradawiBooks.com

نرى عمر يستجيب لمقترحات بعضِ أصحابه فيأخذ بفكرة التأريخ، وفكرة تدوين الدواوين.

بل ذهب بعض الباحثين إلى أنَّ التدوين قد بدأ منذ عهد النبي ﷺ، أخذًا ممَّا ذكرناه من قبل من الأمر بالإحصاء الكتابيِّ للمسلمين بعد الهجرة[1].

٩ ـ الحَمْلة على الأوهام والخرافات:

وأهم من هذا كلِّه، الحملة المشدَّدة المتكرِّرة على الأوهام، والخرافات، والشعوذات، التي كان لها في الجاهلية سوقٌ نافقة، ولها في ظلِّ كثير من الديانات السماوية المحرَّفة والوضعية سماسرة ودعاة، يقولون فيُسمعون، ويأمرون فيُطاعون، ويَدعون فيُجابون، أولئك هم الكَهَنة والعرافون، والسَّحَرة والمنجِّمون، الذين يزعمون أنَّهم قادرون على خرْق سنن الكون، وهَتْك أستار الغيب، وكشف مكنونات الصدور.

وجاء الإسلام فأغلق ـ بقوة ـ هذه السوق المخربة، وحجَر على تجارها المحترفين، وسماسرتها المخادعين، وصادر بضاعتَها الزائفة، وأعلن في وضوح مشرق: أنَّ سنن الله في الكون لا تتبدَّل، وأنَّ الغيب لا يعلمه إلَّا الله، وأنَّ الخير كلَّ الخير في احترام السُّنن، ورعاية قانون الأسباب والمُسبَّبات.

ولا غَرْو أن نقرأ في كتب السُّنَّة المشرَّفة مثل هذه الأحاديث عن رسول الله ﷺ:

(١) انظر: التراتيب الإدارية أو نظام الحكومة النبويَّة للكتاني (٢٠١/١)، تحقيق عبد الله الخالدي، نشر دار الأرقم، بيروت، ط١.

QaradawiBooks.com

روى البخاري، عن المغيرة بن شعبة قال: كسفت الشمس يوم مات إبراهيم ـ ابن النبي ﷺ من مارية القبطية ـ فقال الناس: انكسفت لموت إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته**»[١]. وبذلك طارد الأوهام التي شاعت عند الناس في الجاهلية أنَّ كسوف الشمس أو القمر إنَّما يحدث لموت عظيم أو نحو ذلك. وأثبت أنَّها آيةٌ من آيات الله، تجري على سنن الله.

وهذه جملة أخرى من الأحاديث النبويَّة:

«**اجتنبوا السبع الموبقات**». قالوا: وما هنَّ يا رسول الله؟ قال: «**الشرك بالله، والسحر...**» الحديث[٢].

«**ومن عقد عقدة، ثم نفث فيها فقد سحَر، ومن سحَر فقد أشرك، ومن علَّق شيئًا وُكل إليه**»[٣]، أي: علَّق على نفسه تميمةً أو حِرْزًا، أو نحوه، ممَّا يزعمون أنَّه يقي من الجنِّ أو العينِ أو المرض.

«**ليس منَّا من تَطيَّر أو تُطيِّر له أو تَكهَّن أو تُكهِّن له، أو سَحَر أو سُحِر له، ومن أتى كاهنًا فصدَّقه بما يقول، كفر بما أنزل الله على محمد**»[٤].

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (١٠٦٠)، ومسلم في الكسوف (٩١٥).

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦)، ومسلم في الإيمان (٨٩)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه النسائي في تحريم الدم (٤٠٧٩)، وفي الكبرى في المحاربة (٣٥٢٨)، والطبراني في الأوسط (١٤٦٩)، في الميزان في ترجمة عباد بن ميسرة (٣٩٤٤): هذا الحديث لا يصح للين عباد وانقطاعه. وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية بعد أن نقل كلام الذهبي (٨٢/٣): ويتوجه أنَّه حديث حسن. عن أبي هريرة.

(٤) رواه البزار (٣٥٧٨)، والطبراني (١٦٢/١٨)، وجود المنذري في الترغيب والترهيب إسناد البزار (٤٦٠٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٤٨٠): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح خلا إسحاق بن الربيع وهو ثقة. عن عمران بن حصين.

QaradawiBooks.com

«من أتى عَرَّافًـا أو كاهنًا فصدَّقه بما يقول فقـد كفر بما أنزل على محمد»[١].

«ومن أتى عَرَّافًا فسأله عن شـيء فصدَّقه، لم تُقبل له صلاة أربعين يومًا»[٢].

وعن ابن مسعود موقوفًا: **«من أتى عرافًا أو ساحرًا أو كاهنًا يؤمن بما يقول، كفر بما أُنزل على مُحَمَّد ﷺ»**[٣].

والكاهن: هو الَّذي يُخبـر عن بعض المضْمَـرات، فيصيب بعضها ويخطـئ أكثرها، ويزعم أنَّ الجـن تخبره بذلك، والعـرَّاف: كالكاهن، وقيل: هو سـاحر. وقال البغوي: العرَّاف: هو الَّذي يدَّعي معرفة الأمور بمقدِّمات وأسباب يُستدلُّ بها على مواقعها، كالمسروق من الَّذي سرقها، ومعرفة مكان الضَّالَّة، ونحو ذلك[٤].

ومثل الكاهن والعـرَّاف: المنجِّم وهو الَّذي يدَّعـي معرفة الغيوب المسـتقبلة عن طريق النجوم وما لها من أسـرار وتأثيـرات في العالم الأرضي، وبعضُهم يسمِّي المُنجِّم كاهنًا.

---

(١) رواه أحمد (٩٥٣٦)، وقال مخرِّجوه: حسن. وأبو داود في الطب (٣٩٠٤)، والترمذي (١٣٥)، وابن ماجه (٦٣٩)، كلاهما في الطهارة، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٥٢٢)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في السلام (٢٢٣٠)، عن بعض أزواج النبي ﷺ.

(٣) رواه أبو داود الطيالسـي (٣٨١)، والبزار (١٨٧٣)، وأبو يعلى (٥٤٠٨)، والطبراني في الكبير (٧٦/١٠)، والأوسط (١٤٥٣)، وجوَّد إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٤٦١٥)، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٠٤٨).

(٤) شرح السنة (١٨٢/١٢).

QaradawiBooks.com

وفي الحديث: «**من اقتبس علمًا من النجوم فقد اقتبس شعبةً من السحر، زاد ما زاد**»[(١)].

وليس المراد بعلم النجوم هنا: علم الفلك أو الهيئة ـ كما كان يسمَّى من قبل ـ والذي نبغ فيه كثير من علماء المسلمين، والذي اتَّسعت بحوثه وامتدَّت جذوره في هذا العصر، فهذا علم قائم على الملاحظة، والتجربة والقياس واستخدام الآلات، وبه استطاع الإنسان في عصرنا أن يصل إلى القمر، ويجلب منه بعض الأتربة والصخور ليُحلِّلها ويستفيد من ورائها.

وليس في هذا أيَّ منافاة لحقيقة دينية، أو لقاعدة شرعية، أو لنصٍّ ثابت في قرآن أو سنة.

ولست أستدلُّ لذلك بقوله تعالى في سورة الرحمٰن: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٍ﴾ [الرحمٰن: ٣٣]. ولا أفسِّر السلطان هنا بالعلم كما ذهب إلى ذلك بعض علماء العصر.

فالواضح أنَّ سياق الآية يدلُّ بوضوح أنَّ الخطاب في الآخرة لا في الدنيا، وهو خطاب تعجيز للثقلَين من الجن والإنس: أنَّهم لا يستطيعون الفرار من قبضة العدالة الإلٰهيَّة إلَّا إذا خرجوا من ملك الله، وأنَّى لهم أن يخرجوا منه، وأين يذهبون؟ فمعنى ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٍ﴾، أي: لا تنفذون مطلقًا؛ لأنَّه لا سلطان لكم أمام سلطان الله تعالى.

(١) رواه أحمد (٢٨٤٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود في الطب (٣٩٠٥)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٢٦)، وصحَّح إسناده النووي في رياض الصالحين (١٦٧١)، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (٣٣٠٥)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

أمَّا الصعود إلـى القمر فليس نَفاذًا من أقطار السـماوات والأرض، كيف وهو لا يـزال في إطار المجموعة الشمسـيَّة، بل في أقرب كوكب منها إلى الأرض، وهو القمر؟ فإذا اعتبرنا الصاعدَ إلى القمر خارجًا من قطر الأرض كما هـو الظاهر ـ حيث جعـل القرآن القمر في السـماء: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقـان: ٦١] ـ فإنَّه لـم يخرج لحظة من أقطار السماء.

وأوْلى من ذلك الاسـتدلال بآيات التَّسـخير للكون عامَّة وللشمس والقمر والنجوم خاصَّة، وهي كثيرة في القرآن الكريم.

والمقصود: أنَّ علم النجوم المُحرَّم الَّذي يُعدُّ شـعبةً من السِّحر هو: علم تأثيرها لا علم تسييرها كما قال العلماء[1].

هذه التعاليم التـي ذكرناها، جديـرةٌ بأن تُهيِّئ أفضلَ مناخ نفسـيٍّ وعقليٍّ واجتماعيٍّ، لقيام فكر علميٍّ وحياة علميَّة. وهذا ما رأينا مصداقه في الحضارة الإسلاميَّة الشامخة المتوازنة، التي وصلت الأرض بالسماء، وجمعت بين العلم والإيمان، ومزَجَت بين المادة والروح.

١٠ ـ الطب نموذجًا لعناية الرسول بالعلم التجريبي:

وإذا أردنا أن نتَّخذ مثلًا أو نموذجًا لعناية الإسـلام عامَّة والرسـول خاصَّة بالعلـم القائم على التجربة، فلن نجد أفضـل من الطبِّ نموذجًا يتجسَّد فيه موقف القرآن والسُّنَّة من هذه العلوم.

وحسبي أن أُسجِّل في هذه السطور أهم المبادئ الأساسيَّة التي جاء بها الإسلام، ووضع بها حجارة الأساس لقيام صرح مشيد لطب علمي سليم.

(١) انظر: فيض القدير للمناوي (٨٠/٦)، نشر المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ١٣٥٦هـ.

QaradawiBooks.com

أولًا: قرر قيمة البدن وحقه علـــى صاحبه: «**إنَّ لبدنك عليك حقًّا**»[(١)]. وإذا كان حقـــه عليه أن يطعمـــه إذا جاع، ويريحه إذا تعـــب، وينظفه إذا اتَّســـخ، فإنَّ حقه عليه كذلك أن يداويه إذا مـــرِض. ومعنى هذا أنَّه حقٌّ واجب لا يجوز أن يُهمل أو ينســـى لحســـاب حقوق أخـــرى منها حقُّ الله ﷻ، كما بيَّنت ذلك الأحاديث التي دعت إلى الاعتدال، وبيَّنت أنَّه منهج الإسلام وسُنَّة نبيه: «**فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[(٢)].

وبهذا أبطل الإسلام الفكرة الســـائدة في المذاهب الزهديَّة ـ مقاومة البدن وتعذيبه؛ لترقية الروح ـ معتبرًا أنَّ كيان الإنســـان بشـــقيه: الروح والبدن معًا.

ثانيًا: حلَّ مشـــكلة الإيمان بالقدَر الَّذي كان يعتقده كثير من الناس منافيًا للتداوي، وطلب العلاج، وهنا نجد أنَّ النبيَّ ﷺ، حين سُـــئل عن الأدوية التي تؤْخذ للعلاج، والأســـباب التي تُتَّخذ للوقاية: هل تردُّ من قدر الله شيئًا؟

فكان جوابه البيِّن الحاسم: «**هي من قدر الله**»[(٣)].

فبيَّن بهذا الجواب أنَّ الله يُقدِّر الأسباب والمُســـبَّبات جميعًا، فكما يقدِّر أنَّ الداء ينتج من كذا أو كذا، يقدِّر أنَّ دواءه يكون بكذا وكذا، وأنَّ اتِّقاءه يكون بكذا وكذا، والمؤمن الفقيـــه من يدفع قدر الله بقدر الله كما يفرُّ من قدر الله إلى قدر الله.

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩)، كلاهما في الصيام، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)، كلاهما في النكاح، عن أنس.

(٣) رواه أحمد (١٥٤٧٢)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف على خطأ فيه. والترمذي (٢٠٦٥)، وقال: حســـن. وابن ماجه (٣٤٣٧)، كلاهما في الطب، وحســـنه الألباني في تخريج مشكلة الفقر (١١)، عن أبي خزامة.

QaradawiBooks.com

ثالثًا: فتَح باب الأمل أمام الأطباء والمرضى معًا في إمكان الشـفاء من أيِّ مرض كان، وقضى على اليـأس المُحطِّم للنفوس، ورفض فكرة الأمراض المستعصية على الشفاء.

وجاء في ذلك جملة من الأحاديث:

«**ما أنزل الله داءً إلَّا أنزل له شفاء**»[١].

«**لكلِّ داءً دواء، فإذا أصاب دواء الداء برئ بإذن الله**»[٢].

وجاء أعرابي فقال: يا رسول الله أنتداوى؟ قال: «**نعم، فإنَّ الله لم ينزل داءً إلَّا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله**»[٣].

فالـدواء موجود فيما خلـق الله، وما على أهـل الاختصاص إلَّا أن يبحثـوا ويجتهـدوا، ولا يلقوا سـلاحهم يأسًـا، فسـيصلون يومًا إلى ما يريدون.

قال الإمام الشـوكاني: في الحديث دليل على أنَّه لا بأس بالتداوي لمن كان به داء، قد اعترف الأطباء بأنَّه لا دواء له وأقروا بالعجز عنه[٤].

رابعًا: اعترف بسُنَّة الله في العدوى، فقال ﷺ: «**فرَّ من المجذوم فرارك من الأسـد**»[٥]. وامتنعَ ﷺ عن مبايعة مجذوم بوضع اليد في اليد[٦]. بل

(١) رواه البخاري في الطب (٥٦٧٨)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في السلام (٢٢٠٤)، وأحمد (١٤٥٩٧)، عن جابر.

(٣) رواه أحمد (١٨٤٥٦)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح. عن أسامة بن شريك.

(٤) نيل الأوطـار (٢٣١/٨)، تحقيق عصام الدين الصبابطي، نشـر دار الحديـث، مصر، ط١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

(٥) رواه أحمد (٩٧٢٢)، وقال مخرِّجوه: صحيح. والبخاري تعليقًا (٥٧٠٧) مجزومًا به، والبيهقي في النكاح (١٣٥/٧)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٧٨٣)، عن أبي هريرة.

(٦) رواه مسلم في السلام (٢٢٣١)، وأحمد (١٩٤٧٤)، عن الشريد الثقفي.

QaradawiBooks.com

اعترف بالعدوى في عالم الحيوان أيضًا، فقال: «**لا يُورِدنَّ مُمْرض على مُصحٍّ**»[١]. والمُمْرض: صاحب الإبل المريضة بالجرب، يجب أن يجنِّبها الاختلاط بالسليمة من الإبل ساعة ورود الماء.

وأمَّا حديث «لا عدوى»: فمعناه أنَّ الأشياء لا تُعدي بطبعها وذاتها بل بتقدير الله تعالى وما وَضَع من سنن في خلقه.

كما سبق بإقرار مبدأ الحجر الصحي، أو العزل الصحي حين قال عن وباء الطاعون: «**إذا سمعتم به بأرض، فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع وأنتم بأرض لا تخرجوا منها فرارًا منه**»[٢].

خامسًا: قاوم ما يسمَّى (الطب الروحاني) طبَّ الكَهَنة والسحرة، وأمثالهم من المتاجرين بعمل التعاويذ والتمائم والودع وغيرها ممَّا شاع في الجاهلية، وكانت له سوق نافقة، أبطلها رسول الله ﷺ، واعتبرها من الشِّرك، وأعلن عليها حربًا لا هوادة فيها، ولم يسمح من الرُّقى إلَّا بما فيه ذكر الله تعالى وأسمائه الحسنى؛ لأنَّ هذا مجرَّد دعاء، وهو مشروع محمود.

سادسًا: كان النبيُّ ﷺ بقوله وعمله وتقريره أسوةً حسنةً في الهداية إلى الطبِّ الصحيح، القائم على العلم والتجربة، لا على التهويل والادِّعاء.

فهو ﷺ تداوى لنفسه وأمر بالتداوي؛ لأنَّ الَّذي خلق الداء خلق الدواء. وأرسل طبيبًا إلى أُبي بن كعب، فقطع له عرقًا وكواه عليه[٣]، أي:

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الطب (٥٧٧٠، ٥٧٧١)، ومسلم في السلام (٢٢٢١)، عن أبي هريرة.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الطب (٥٧٢٩)، ومسلم في السلام (٢٢١٩)، عن عبد الرحمٰن بن عوف.

(٣) رواه مسلم في السلام (٢٢٠٧)، وأحمد (١٤٣٧٩)، عن جابر.

QaradawiBooks.com

أنَّه أجرى له عملية جراحية. وأمر آخر أن يأتيَ الحارث بن كلدة الطبيب العربي المشهور من ثقيف. قال ذلك لسعد بن أبي وقاص[١].

ولم يثبت إسلام الحارث. ولهذا استدلَّ العلماء بما ذُكر على جواز الاستعانة بأهل الكفر في الطب[٢]، وإن كان الأوْلى أن يعالج المسلمَ مسلمٌ مثلُه ولا سيما أنَّ هناك أحكامًا شرعية كجواز الفطر في رمضان ونحوه، تترتَّب على حكم الطبيب.

وأصيب أحد الصحابة بجرح فاحتقن الدم، فدعا النبي ﷺ رجلين من بني أنمار، فنظروا إليه فسألهما رسول الله: «**أيكما أطب**». (أي: أحذق وأمهر؟) فقالا: أوَفي الطب خير، يا رسول الله؟ فقال: «**أنزل الدواء الَّذي أنزل الداء**»[٣].

قال ابن القيم: في هذا الحديث: إنَّه ينبغي الاستعانة في كلِّ علم وصناعة بأحذقِ مَن فيها فالأحذقِ، فإنَّه إلى الإصابة أقرب[٤].

سابعًا: جاء عنه ﷺ: «**من تطبَّب ولم يُعلم عنه الطب فهو ضامن**»[٥]. وبهذا طارد الأدعياء الذين يتزيَّون بهيئة أهل الطب وليسوا من أهله،

(١) رواه أبو داود في الطب (٣٨٧٥)، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٨٣٤)، وقال الأرناؤوط في تخريجه لسنن أبي داود: رجاله ثقات لكنَّه مرسل. عن سعد بن أبي وقاص.

(٢) التراتيب الإدارية للكتاني (٣٥٢/١).

(٣) رواه مالك في العين (٣٤٧٤) ت الأعظمي، وقال الحافظ في فتح الباري (١٣٤/١٠): مرسل.

(٤) زاد المعاد لابن القيم الجوزية (١٢١/٤)، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت ـ مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط ٢٧، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

(٥) رواه أبو داود في الديات (٤٥٨٦)، والنسائي في القسامة (٤٨٣٠)، وابن ماجه في الطب (٣٤٦٦)، والحاكم في الطب (٢١٢/٤)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في الصحيحة (٦٣٥)، عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

وحمَّلهم مسؤولية أخطائهم في التَّشخيص والعلاج، واحترام أهل الاختصاص والخبرة. فلكلِّ علمٍ رجالُه ولكلِّ صناعةٍ أهلُها، ولا ينبِّئك مثلُ خبير.

وفي هذه المبادئ السبعة ما يكفي لإلقاء الضوء على موقف الرسول من الطب، وهو موقف سبق عصر النهضة في الغرب بقرون، وقام على أساسه في عالم الإسلام طبٌّ نظريٌّ وعمليٌّ، كانت كتبه مراجع لأوربا وغيرها عدَّة قرون، ويكفي في ذلك كتاب «القانون» لابن سينا، و«الحاوي» للرازي، و«الكليات» لابن رشد.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

أخلاقيَّات حملة العلم

إنَّ العلم في نظر الإسلام ليس مجرَّد حشوِ الرؤوس بالمعلومات، مهما تكن قيمة هذه المعلومات من جلالة القدر في موضوعها، أو في طريقة ثبوتها، حتَّى العلم المقتبَس من طريق النبوة ـ الَّذي هو العلم الأعلى ـ لا يكفي فيه محض اكتسابه وتحصيلِه، بل لا بدَّ لصاحب العلم من الالتزام بالقيم الخلقية التي يفرضها العلم على أهله، والتي جعلتهم أهلًا لأن يكونوا خلفاء الأنبياء، وسنخصُّ بالحديث هنا أبرز هذه الفضائل التي يجب أن يتخلَّق بها أهل العلم:

١ ـ الشعور بالمسؤولية:

وأولى هذه القيم: الشعور بالمسؤولية أمام الله، فالعلماء ورثة الأنبياء، ولا رتبة أعلى من رتبة النبوة، ولا درجة أعظم من درجة الوارثين لهذه الرتبة، وعلى قدر المنزلة تكون المسؤولية.

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لن تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتَّى يُسأل عن أربع خصال: عن عمره فيمَ أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ وعن ماله: من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وعن علمه: ماذا عمل به؟**»[(١)].

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤١٦)، وقال: حديث غريب. والبزار (١٤٣٥)، وأبو يعلى (٥٢٧١)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٢٨): حسن لغيره. عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

وكلما اتَّسعت دائرة علم الإنسان عظُمت مسؤوليته، فليس من عَلِم مسألة كمن علم عشرًا أو مئة، وكما أنَّ من كثُر ماله كثُر حسابُه، وطال سؤاله، وعسر جوابه. فكذلك من كثُر علمه واستبحرت معارفه، كانت مسؤوليته أكبر، وتَبِعته أثقل.

فهو مسؤول عن علمه من عدَّة جوانب:

مسؤول عن صيانته وحفظه حتَّى يبقى، ومسؤول عن تعميقه وتحقيقه حتَّى يرقى، ومسؤول عن العمل به حتَّى يثمر، ومسؤول عن تعليمه لمن يطلبُه حتَّى يزكو، ومسؤول عن بثِّه ونشره حتَّى يعمَّ نفعه، ومسؤول عن إعداده من يرثُه ويحمله حتَّى يدوم اتِّصال حلقاته، وقبل كل ذلك كله، مسؤول عن إخلاصه في علمه لله حتَّى يقبله منه.

وعن مالك بن دينار، عن الحسن البصري قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من عبد يخطب خطبة إلَّا الله ﷻ سائله عنها**». أظنُّه قال: «**ما أراد بها؟**».

وكان مالك بن دينار إذا حَدَّث بهذا الحديث بكى حتَّى ينقطع، ثم يقول: تحسبون أنَّ عيني تقَر، وأنا أعلم أنَّ الله ﷻ سائلي عنه يوم القيامة: ما أردت به[(١)]؟

وكان أبو الدرداء الصحابي الفقيه الزاهد رضي الله عنه يقول: إنَّما أخشى من ربِّي يوم القيامة، أن يدعوَني على رؤوس الخلائق، فيقول لي: يا عُويمر[(٢)]. فأقول: لبيك ربِّ. فيقول: ما عملتَ فيما علمت[(٣)]؟

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (٥١٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٦٤٩)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢١٣): رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي مرسلًا بإسناد جيد.

(٢) اسم أبي الدرداء: عامر، وعويمر تصغير له.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٧١١).

QaradawiBooks.com

٢ ـ الأمانة العلمية:

ومن أخلاقيات العلم: الأمانة، فهي من لوازم الإيمان، ولا إيمان لمن لا أمانة لـه، قـال تعالى في وصـف المؤمنيـن: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

كما أنَّ الخيانة من لوازم النفـاق، فمن آيات المنافق البارزة أنَّه: «**إذا اؤْتمن خان**»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أنَّ رسـول الله ﷺ قال: «**تناصحوا في العلم، فإنَّ خيانة أحدكم في علمه أشـدُّ من خيانته في ماله، وإنَّ الله سائلُكم يوم القيامة**»(٢).

وما ذلك إلَّا لأنَّ الخيانة في المال ـ مهما عظُمت ـ محدودة الضرر، أمَّا الخيانة في العلم فقد تدمِّر مجتمعًا بأسره.

ومن أمانة العلم: أن يُنسبَ القول لمن قاله، والفكرة لصاحبها، والذي يسـتفيد من الغير ثم يسند الفضل إلى نفسـه، فإنَّ هذا لون من السَّرِقة، وضرب من الغش والتزوير.

وفي هذا قال سـلفنا: من بركة القول أنْ يُسنَد إلى قائله. ولهذا نجد كتب السلف المتقدِّمين موثَّقة بالأسانيد التي عن طريقها وصلت الآراء

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

(٢) رواه الطبراني (٢٧٠/١١)، وأبو نعيم في الحلية (٢٠/٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٠٥): فيه أبو سعد البقال، قال أبو زرعة: لين الحديث، مدلس، قيل: هو صدوق؟ قال: نعم، كان لا يكذب. وقال أبو هشـام الرفاعي: حدثنا أبو أسـامة قال: حدثنا أبو سعد البقال، وكان ثقة. وضعفه شـعبة لتدليسـه والبخاري ويحيى بن معيـن، وبقية رجاله موثقون. عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

والأقوال في مختلف العلوم، ولم يكن الإسناد في الحديث وعلوم الدين وحدَها، بل شمِل علومًا أخرى كالتاريخ واللغة والأدب وغيرها.

ومن أمانة العلم: أن يقف الإنسان عند ما يعلم، وأن يقول لما لا يعلم: لا أعلم، فليس في العلم خجل ولا كبرياء، وأنْ يتقبَّل أي حقيقة أو فائدة علمية تأتيه، ولو على يد من هو أقلُّ منه علمًا، أو أصغرُ سنًّا، أو أدنى منزلة.

وحسبه أنَّ رسول الله ﷺ سئل أمام الملأ من الناس عن الساعة، فقال بصريح العبارة: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»[(١)]، وذلك في حديث جبريل المشهور.

وعن أبي هريرة، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أحبُّ البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها**»[(٢)].

فهذا هو موقف العالم الأمين: ألَّا يعيب منْ سأله، ولا يفتي من استفتاه إلَّا بما يستيقنُه ويتبيَّنُه.

أمَّا من أفتى بغير علم، أو أشار على من يستشيره بغير ما يعتقد، فقد خان الأمانة، واستحقَّ من الله العقوبة.

وفي الحديث: «**من أُفتِيَ ـ بصيغة المبني للمجهول ـ بغير علم، كان إثمه على من أفتاه، ومَن أشار على أخيه بأمر يعلم أنَّ الرُّشد في غيره فقد خانه**»[(٣)].

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٧١). وإنَّما بغضت الأسواق لما يكثر فيها من الطمع والغش والحلف بغير الله، واللهو عن ذكر الله؛ لا لكراهية التجارة أو البيع والشراء.

(٣) رواه أبو داود في العلم (٣٦٥٧)، وابن ماجه في المقدمة (٥٣)، والطحاوي في مشكل الآثار (٤١٠)، والحاكم في العلم (١٢٦/١)، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٦٨)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وهكذا تعلَّم أصحابه ﷺ ومن تبعهم بإحسـان من علماء الأمة، فلم يهابوا أن يقولوا: لا نـدري فيما لا يدرون، وأن يردَّهـم مَنْ دونهم إلى الصواب، فيرجعوا جهرة غير متأفِّفين، ولا مستكبرين، وأن يُغيِّروا فتواهم إذا تغيَّر اجتهادهم غير خزايا ولا مُتحرِّجين.

يقول الإمام مُحَمَّد بن سيرين: لم يكن أحدٌ بعد النبيِّ ﷺ أهيبَ لما لا يعلم من أبي بكر، ولم يكن أحدٌ بعد أبي بكر أهيب لما لا يعلم من عمر، وإنَّ أبا بكر نزلت به قضية فلم يجد لها من كتاب الله تعالى أصلًا، ولا في السُّنَّة أثرًا، فقال: أجتهد رأيي، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمنِّي، وأستغفر الله[١].

وهذا عمر أمير المؤمنين تردُّه امرأة، وهو يخطب على المنبر في شأن صداق النسـاء، فلا يسـتنكف أن يُخطِّئ نفسـه على مرأى ومسمع من الناس قائلًا: كل الناس أفقه من عمر[٢]!

وأفتى عمر في المسـألة المعروفة في الميراث بـ(الحمارية)، أو (المشتركة) في سنة فلم يشرِّك فيها، فلمَّا كان العام المقبل شرَّك فيها، فلمَّـا قيل لـه في ذلك قـال: تلـك علـى ما قضينا، وهـذي على ما نقضي[٣].

(١) جامع بيان العلم وفضله (١٥٥٥).

(٢) رواه عبد الرزاق في النكـاح (١٠٤٢٠)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٥٠٦)، والبيهقي في الصداق (٢٣٣/٧)، وقال: منقطع. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٥٠٢): رواه أبو يعلى في الكبير وفيه مجالد بن سعيد وفيه ضعف وقد وثق. وذكره البوصيري في إتحاف الخيرة (٣٢٧٦)، بسند أبي يعلى؛ وجود إسناده ابن كثير في تفسيره (٢٤٣/٢، ٢٤٤)، والسخاوي في المقاصد (٨١٤).

(٣) رواه عبد الرزاق في الفرائض (١٩٠٠٥).

QaradawiBooks.com

وهذا أمير المؤمنين عليٌّ، أَقْضَى الأمة، وحلَّال المعضلات، والبحر الَّذي لا تكدِّره الدِّلاء، يقول: لا يستحي أحدكم إذا لم يعلم أن يتعلَّم، وإذا سئل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم.

وسُئل يومًا عن مسألة، فقال: لا علم لي بها. ثم قال: وأبردها على الكبد، سئلت عما لا أعلم، فقلت: لا أعلم[1].

وسأله رجل عن مسألة فأجابه، فقال الرجل: ليس هكذا يا أمير المؤمنين، ولكن كذا وكذا، فقال علي: أصبت وأخطأتُ «وفوقَ كلِّ ذي علمٍ عليم»[2].

٣ ـ التواضع:

ومن أخلاق العلماء: التواضع.

فالعالم الحق لا يركبه الغرور، ولا يستبدُّ به العُجْب؛ لأنَّه يدرك بيقين أنَّ العلم بحرٌ لا شطآن له، ولا يصل أحد إلى قراره، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

كما أنَّه يعلم أنَّ قافلة العلم والعلماء مديدةٌ طويلة، ضاربةٌ في أغوار الماضي، موصولة بالحاضر، ممتدةٌ في المستقبل، وليس هو إلَّا واحدًا منها، فلا ينبغي له أن يغمطَ فضل السابقين، أو ينكر جهدَ اللاحقين.

وليس هناك من أحاط بكل شيء علمًا إلَّا الله تعالى. أمَّا الإنسان فهو يعرف شيئًا وتغيب عنه أشياء، ويعرف اليوم ما كان يجهل بالأمس،

(١) رواه الدارمي في المقدمة (١٨١).
(٢) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٨٦٥).

QaradawiBooks.com

ويعرف اليوم ما ينساه في الغد، ويعرف الظاهر من الأشياء دون الباطن، والحاضر دون المستقبل.

وأكثر الناس ادِّعاءً للعلم والمعرفة هم أنصاف المتعلمين، وأشباههم الذين لا يعرفون من العلم إلَّا القشور دون اللباب، والسطوح دون الأعماق.

وأمَّا من اتَّسع أفقه، وعمُق إدراكه، فهو يكتشف مع كل حقيقة جديدة أنَّه يجهل أكثر ممَّا يعلم، وأنَّ العلم أكبر من أن يحاط به، وكفى بهذا الاعتراف علمًا.

يقول الإمام الشافعي:

كُلَّمَا أَدَّبَنِي الدَّهْرُ أَرَانِي نَقْصَ عَقْلِي
وَإِنْ أَرَانِي ازْدَدْتُ عِلْمًا زَادَنِي عِلْمِي بِجَهْلِي[1]!

ذكر الحافظ المنذري في كتابه «الترغيب والترهيب» تحت عنوان (الترهيب من الدَّعوى في العلم والقرآن) ما رواه الشيخان، عن أُبيِّ بن كعب، عن النبيِّ ﷺ قال: «**قام موسى عليه الصلاة والسلام خطيبًا في بني إسرائيل، فسُئِل: أيُّ الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم. فعتب الله عليه؛ إذ لم يرُدَّ العلم إليه، فأوحى الله إليه: أنَّ عبدًا من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال: يا ربِّ: كيف به؟ فقيل له: احمل حوتًا في مِكْتَل**[2]**، فإذا فقدته فهو ثمَّ**». فذكر الحديث في اجتماعه بالخضر، إلى أن قال: «**فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، ليس لهما سفينة، فمرَّت بهما سفينة فكلَّموهم أن**

(١) ديوان الشافعي صـ ٩٠، جمع وتحقيق ودراسة الدكتور مجاهد مصطفى بهجت، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٩٩٩م.

(٢) مكتل ـ بوزن مِنْبَر ـ وعاء يشبه الزنبيل، يسع ١٥ صاعًا.

QaradawiBooks.com

يحملوهما فعرف الخَضِر فحملوهما بغير نــوْل[١]... فجاء عصفور فوقع على حرف الســفينة، فنقر نقــرة أو نقرتين فــي البحر، فقــال الخضِر: يا موسى، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلَّا كنقرة هذا العصفور في هذا البحر»[٢]! والعلم في هذه العبارة الأخيرة بمعنى المعلوم.

وهذا ما أراد عبد الله الخضِر أنْ يؤكِّده لكليم الله موسى عليه السلام: أنَّ علم البشر لا يعدُّ شيئًا يُذكر بالنسبة إلى علم الله تعالى.

وهذا ما جعل فحول العلماء من فرسان علم الكلام، الذين حَصَّلوا أفكار المتقدِّمين والمتأخِّريــن، والذين حاولوا يومًا ما الغــوص إلى كُنه الحقائق الكبرى، فلم يحصلوا في النهاية على طائل، وهلك منهم الظهر، وانقطع بهم الطريق، وقال في ذلك قائلهم وهو فخر الدين الــرازي إمام المتكلِّمين في عصره، وصاحب التفسير الكبير، والكتب المشهورة في الكلام والأصول:

الْعِلْــمُ للرحمٰنِ جــلَّ جلالُه وَسِــوَاهُ في جَهَلَاتِهِ يَتَغَمْغَمُ
مَــا للتُّرَابِ وللعُلُــومِ؟ وإنَّما يَسْــعَى لِيَعْلَمَ أنَّه لا يَعلمُ[٣]

وقد رُوي مثل هذا عن عدد من الكبار مثل الباقلاني وإمام الحَرَمَيْن والشَّهْرَسْتاني وغيرهم.

وقد جاء في الحديث ذمُّ أولئك المُدَّعين المغرورين المنتفخين بما قرؤوا، أو حصَّلــوا من علم، ولو كانوا علماء حقًّا لعرفوا قدر أنفســهم، وأنَّهم لم يُؤْتَوا من العلم إلَّا قليلًا، بل أقلَّ من القليل.

---

(١) أي: بغير أجر يُنال ويُعطى.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢٢)، ومسلم في الفضائل (٢٣٨٠)، عن أبي بن كعب.

(٣) من شعر الإمام الفخر الرازي. انظر: العواصم والقواصم لابن الوزير (٣٥٧/٦)، نشر مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

QaradawiBooks.com

عن عمر بن الخطاب قال: قال رسـول الله ﷺ: «**يَظهر الإسلام حتَّى تختلف التجار في البحر، وحتى تخوض الخيل في سبيل الله، ثم يظهر قوم يقرؤون القرآن يقولون: من أقرأ منا؟ من أعلم منا؟ من أفقه منا؟**». ثم قال لأصحابه: «**هل في أولئك من خير؟**». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**أولئك منكم من هذه الأمة، أولئك هم وقود النار**»[1].

وإذا رُزق العالم التواضع، وقف عند حدِّه، وأنصف غيره، وعرف له حقَّه، ولم يتطاول على الناس بالادِّعاء الباطل.

روى أبو عمر بن عبد البَرِّ عـن إمام دار الهجرة مالك بن أنس قال: لما حجَّ أبو جعفر المنصور دعاني، فدخلت عليه فحدَّثته، وسأل فأجبتُه، فقال: إنِّي قد عزمت أن آمـر بكتبك هذه التي وضعتها ـ يعني الموطأ ـ فتنسخ نُسخًا، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة، وآمرُهم أن يعملوا بمـا فيها، لا يتعدَّوها إلى غيرها، ويَدَعوا ما سـوى ذلك من هذا العلـم المُحْدَث، فإنِّي رأيت أصل هـذا العلم رواية أهل المدينة وعلمهم.

قال: فقلت: يا أمير المؤمنين لا تفعل؛ فإنَّ الناس قد سـبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، وروَوا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم، وعملوا بـه، ودانوا بـه، من اختـلاف الناس أصحابِ رسـول الله ﷺ وغيرِهم، وإنَّ ردَّهـم عمَّا اعتقدوه شـديد، فدع النـاس وما هم عليه، وما اختار كل بلد لأنفسهم.

(١) رواه البزار (٢٨٣)، والطبراني في الأوسـط (٦٢٤٢)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢٢٧): إسـناده لا بأس به. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٧٧): رجال البزار موثقون. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٣٥): حسن لغيره.

QaradawiBooks.com

فقال أبو جعفر: لَعَمري لو طاوعني على ذلك لأمرت به. قال أبو عمر بعد ذكر هذه القصة: وهذا غايةٌ في الإنصاف لمن فهِم[١].

وروى بسنده إلى عبد الرحمٰن بن القاسم أنَّه قال لمالك: ما أعلم أحدًا أعلم بالبيوع من أهل مصر. فقال له مالك: وبِمَ ذلك؟ قال: بك. قال: فأنا لا أعرف البيوع فكيف يعرفونها بي[٢]؟!

هذا هو موقف العلماء حقًّا: تواضعٌ لله، وإنصافٌ من النفس، وتقدير لموقف الآخرين، والتماس الأعذار لهم.

روى مسلم، عن أبي هريرة، أنَّ النبي ﷺ قال: «**إذا سمعت الرجل يقول: هلك الناس، فهو أهلكهم**»[٣].

وذلك إذا دلَّت حاله على أنَّه يقول ذلك إعجابًا بنفسه، وتيهًا بعلمه أو عبادته، واستصغارًا لشأن الآخرين، وازدراءً لما هم عليه.

وقد رُويت كلمة «أهلكَهم» بضم الكاف وفتحها، ومعناها على الضم، أنَّه أشدُّهم هلاكًا، أو أحقُّهم بالهلاك أو أقربهم إليه؛ لذمِّه للناس وذكره عيوبَهُم، ونسيانه عيوب نفسه، وتكبُّره عليهم.

وأمَّا بالفتح فهو فعل ماض «أهلكَهم»، أي: جعلهم هالكين، لا أنَّهم هلكوا حقيقة، أو أهلكهم، لأنَّه أقنطهم من رحمة الله، وأيأسهم من غفرانه.

قال الغزالي: إنَّما قاله، لأنَّ هذا القول يدلُّ على أنَّه مزْدرٍ لخلق الله، مُغترٌّ بالله، آمنٌ من مكره، غيرُ خائفٍ من سطوته وقهره، حيث رأى الناس

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٨٧٠).
(٢) المصدر السابق (٨٧١).
(٣) رواه مسلم في البر والصلة (٢٦٢٣)، وأحمد (٧٦٨٥)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

هالكين ورأى نفسه ناجيًا، وهو الهالك تحقيقًا مهما رأى ذلك، ويكفيه شرًّا احتقار الغير؛ فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إيَّاه لله، فهم يتقرَّبون إلى الله بالدُّنوِّ منه، وهو يتمقَّت إلى الله بالتنزه والتباعد منهم، كأنه يترفع عن مجالستهم، فما أجدرهم إذ أحبوه لصلاحه أن ينقلهم الله إلى درجته في العمل! وما أجدره إذ ازدراهم بعينه أن ينقله الله إلى حدِّ الإهمال[1]!

٤ ـ العـزَّة:

ومن أخلاق العلمـاء: العزَّة التي هي من أخـصِّ فضائل المؤمنين، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقـون: ٨]، والعلمـاء هم صفوة المؤمنين.

والعزَّة شـيء غير الغرور أو العُجْب أو الكِبْـر، وهي لهذا لا تنافي فضيلة التواضع التي تَحدَّثنا عنها.

هي عزَّة في مواجهة المستكبرين بالسلطان، أو المتعالين بالثروة، أو المزهوين بالقوة، أو المفاخرين بالنَّسـب، أو المكاثرين بالعدد، أو غير ذلك من أعراض الدنيا.

فهي عِزَّة بالعلم والإيمان، وليست عِزَّة بالإثم والعدوان، عزَّة تُلتمس من الله ولا تطلب من الناس، ولا عند أبواب السـلاطين: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

سأل الحجاجُ خالدَ بن صفوان: من سـيد البصرة؟ فقال له: الحسن البصـري. فقال: وكيف وهو مولـى؟ أي: ليس من قبائـل العرب ذوي الحسـب. فقال: احتاج الناس إليه في دينهم، واسـتغنى عن الناس في

(١) الإحياء (٣٤٩/٣).

QaradawiBooks.com

دنياهم، وما رأيت أحدًا من أشـراف أهل البصرة إلَّا وهو يرومُ الوصول في حلقته إليه، يستمع قولَه ويكتب علمه، قال: هذا والله السُّؤدد[١].

والاستغناء شـعور قبل أن يكون مِلْكًا لأشـياء، فإنَّ من الناس من يملك القناطير المقنطرة وهـو فقير النفس، ممدودُ اليد إلى الغير، وآخر صفْر اليدين، وهو يشعر بأنَّه أغنى من قارون. وفي الحديث: «**ليس الغنى عن كثرة العَـرَض، إنَّما الغنـى غنى النفـس**»[٢]. وهو الَّـذي عبَّر عنه أبو فراس الحمداني في قصيدة له حين قال:

إنَّ الغنـيَّ هـو الغنـيُّ بنفسـه ... ولـوَ انَّه عـاري المناكب حافِ!
مـا كلُّ ما فَـوْقَ البسـيطةِ كافيًا ... وإذا قنعت فبعضُ شيءٍ كافِ[٣]!

هذا الغنى النفسـي هو الَّذي صَوَّره الإمام الشافعي في أبيات رائعة من شعره القوي العميق حيث يقول:

أمطري لؤلـؤًا جبـالَ سَـرَنْدِيـ ... ـبَ وفيضي آبَـارَ تِبْرِيـزَ تِبْرًا!
أنا إن عشـت لسـت أعدم قوتًا ... وإذا مـتُّ لسـت أعـدم قبـرًا!
همَّتـي همَّـة الملـوك ونفسـي ... نفس حـرٍّ تـرى المذلـة كفرًا!
وإذا مـا قنعت بالقـوت عُمْري ... فلماذا أهـاب زيدًا وعمـرًا[٤]؟!

ولمَّا دخل أبو حازم على الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك بطلبٍ منه، وسـأله فأجابه بقوَّة المؤمن، وعـزَّة العالـم، دون مجاملة في الحق، ولا مداهَنة في الدين، فأعجب بـه الرجل، وقال له: هـل لك أن تصحبنا

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٣٣٢).
(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٤٦)، ومسلم في الزكاة (١٠٥١)، عن أبي هريرة.
(٣) انظر: ديوانه صـ ٢٢٣، شرح خليل الدويهي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٤م.
(٤) ديوان الشافعي صـ ١١٨.

QaradawiBooks.com

ـ يا أبا حازم ـ فتصيب منا ونصيب منك؟ قال: أعوذ بالله! قال له سـليمان: ولِمَ ذاك؟ قال: أخشـى أن أركن شـيئًا قليلًا، فيذيقَنـي الله ضعْف الحياة، وضعف الممات... وقال له سليمان: ارفع إلينا حوائجك. قال: تنجيني من النار وتدخلني الجنَّة! قال: ليس ذلك إليَّ. قال: فما لي إليك حاجة غيرها[١].

هذه هي عزَّة العلماء! عزَّتهم لأنَّهـم يحفظون في صدورهم كلمات الله، ويحملون في أيديهم مصابيح الهداية، ويملكون في خزائن قلوبهم أغلى الكنوز، وأثمن الثروات، وأشـرف المواريـث، وهو تراث النبوة، التي بغيرها يعيش الخلق في تيه الماديَّـة، وظلام الجاهليَّة، وضلالات الأهواء والأوهام. فمن أقوم منهم قيلًا، وأهدى سبيلًا؟

وإذا كانت النبوة أشـرف المواريث التي تنقطع دونها أماني الخلق، فإنَّ المرتبة التي تليها في الشرف والفضل هي رتبة وارثيها، وهم العلماء.

ويقول عبد الله بـن عمرو بن العاص: من قرأ القـرآن، فقد أُدرجت النبوة بين جنْبيه، إلَّا أنَّه لا يُوحى إليه[٢]!

ومفهوم كلمة «قرأ القرآن» في الحديث، وفي عرف الصحابة والقرون الأولى لا يعني مجرَّد اسـتظهاره، وحفظ كلماته وحروفه دون تدبُّرٍ له، ولا فهمٍ لمعانيه وأسـراره، وأحكامه، إنَّما تعني القـراءة: العلم والفقه، ولهذا كان العلماء يُسمُّونهم (القرَّاء).

وقال أبو الأسـود: ليس شـيءٌ أعزَّ من العلم، الملـوك حكَّام على الناس، والعلماء حكَّام على الملوك[٣].

(١) رواه الدارمي في المقدمة (٦٧٣).
(٢) رواه ابن أبي شيبة في فضائل القرآن (٣٠٥٧٣).
(٣) إحياء علوم الدين (٧/١).

QaradawiBooks.com

أخذ هذا المعنى أحد الشعراء فقال:

إنَّ الأَكَابِرَ يَحْكُمُونَ عَلَى الوَرَى وعلى الأَكَابِـرِ يَحْكُمُ الْعُلَمَاءُ[1]!

وهذا هو الوضع الصحيح للعلماء: إنَّ كلمتهم هي العليا؛ لأنَّها قبَس من كلمة الله، هم المُوجِّهون للحياة وللنـاس، إلَّا إذا انقلبت الأوضاع، ورضيَ العلماء أن يسيروا في ركاب الأمراء، ورحم الله القاضي الجُرْجَاني الَّذي قال:

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُـوسِ لَعُظِّمَا
وَلَكِـنْ أَهَانُـوهُ فَهَانَ، وَدَنَّسُـوا مُحَيَّاهُ بِالْأَطْمَاعِ حَتَّـى تَجَهَّمَا[2]

٥ ـ العمل بمقتضى العلم:

ومن أخلاقيات العلم الأصيلة في الإسـلام: العمل بمقتضى العلم، على معنى أن يكون هناك صلـة بين العلم والإرادة، فـإنَّ آفة كثير من الناس أن يعلم ولا يعمل، أو يعمل بضدِّ ما يعلم.

كالطبيب الَّذي يعرف ضرر مأكول أو مشروب على صحَّته، ولا يفتأ يتناوله استجابةً لداعي الشـهوة أو العادة؛ كالأطباء الذين يُحاضرون في أضرار التدخين، وهم مسرفون في تعاطيه.

وعالم الأخلاق الَّذي يرى سـلوكًا مُعيَّنًا رذيلةً وهـو مُقيمٌ عليه، متمادٍ فيه.

(١) صاحب البيت هو ذُو اللسانين النطنزي، كما في الوافي بالوفيات للصفدي (١٩٧/١٢)، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، نشر دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

(٢) انظر: محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني (٥٢/١)، نشر شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

QaradawiBooks.com

وعالم الديـن الَّذي يرى عملًا ما منكرًا، وقـد ينهى الناسَ عنه، وهو يقترفه!

إنَّ هذا النوع من العلم النظري البحت لا يرضى عنه الإسلام، وربما كان الجهل في تلك الحال خيرًا منه.

إنَّ العلـم الحق هو الَّذي يُنيـر بصيرةَ صاحبه، ويُجسِّـم أمام عينيه الجـزاء، فيبدو البعيدُ قريبًـا، والغائبُ حاضرًا، والآجـل ناجزًا، فتقوى عزيمته على البرِّ والتقوى، وتضعف رغبته في الإثم والفجور.

وقد جاء في حديث أبي كبشة الأنماري عن النبي ﷺ قال:

«**إنَّما الدنيا لأربعة نفر:**

١) عبدٌ رزقه الله مالًا وعلمًا، فهو يتَّقي فيـه ربَّه، ويصل فيه رحِمَه، ويعلم لله فيه حقًّا، فهذا بأفضل المنازل.

٢) وعبدٌ رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالًا، فهو صادق النية، يقول: لو أنَّ لي مالًا لعملت بعمل فلان، فهو بنيَّته، فأجرُهما سواء.

٣) وعبدٌ رزقه الله مالًا ولم يرزقه علمًا، يخبـط في ماله بغير علم، ولا يتَّقي فيه ربَّـه، ولا يصل فيه رحِمَـه، ولا يعلم لله فيـه حقًّا، فهذا بأخبث المنازل.

٤) وعبدٌ لم يرزقه الله مالًا ولا علمًا، فهو يقول: لو أنَّ لي مالًا لعملتُ فيه بعمل فلان. فهو بنيَّتِه، فَوِزْرُهما سواء»[1].

(١) رواه أحمد (١٨٠٣١)، وقال مخرِّجوه: حديث حسـن. والترمذي فـي الزهد (٢٣٢٥)، وقال: حسن صحيح. وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٣٥)، عن أبي كبشة الأنماري.

QaradawiBooks.com

وهنا نرى أثر العلم واضحًا في سلوك صاحبه في ماله، فهو «**يتقي فيه ربَّه، ويَصل فيه رحِمه، ويعلم لله فيه حقًّا**» فهذا هو الغنيُّ الشاكر، وهو بأفضل المنازل كما جاء في الحديث.

فإذا حُرِم المال ورُزق العلم، عاش والخيرُ ملءُ جوانحه، لا يمارسه عملًا، ولكن يعيشه نيَّة وأملًا. فهو بنيَّته، فأجرُه وأجرُ الغنيِّ الشاكر سواء.

فأمَّا من حُرِم العلم، سواء رُزق المال أم لا، فعاقبته ما ذكر الحديث الشريف: «**أخبث المنازل**». سواء عاش في السوء أم بنيَّته.

والعلم هنا ليس تحصيل معلومات سطحيَّة من هنا وهناك، ولكنَّه نورٌ يقذفه الله في قلب عبده، فيمنحه اليقين والرسوخ، ويبعد به عن القلق والاضْطراب، وهذا هو العلم النافع.

العلم النافع حقًّا هو الَّذي يرى الناسُ أثرَه على صاحبه: نورًا في الوجه، وخشيةً في القلب، واستقامةً في السلوك، وصدقًا مع الله، ومع الناس، ومع النفس.

أمَّا مُجرَّد التَّشدُّق بالكلام المزوَّق، والثرثرة بالقول المعسول من طرف اللسان، دون أن يصدِّقَ القولُ العملَ، فهذا هو شأن المنافقين الذين يقولون ما لا يفعلون، ويأمرون الناس بالبرِّ وينسوْن أنفسهم، وهم يتلون الكتاب، ويقرؤون الأحاديث.

وهو ما أنكره القرآن على بني إسرائيل: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

كأنَّما يشير القرآن أنَّ مناقضة العلم للعمل، والقول للفعل، ضرب من الجنون، أو لون من الفصام الَّذي لا يليق بالعقلاء. وقال تعالى:

QaradawiBooks.com

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢، ٣].

ومن قرأ الأحاديثَ النبويَّة في هذا الباب ينخلع قلبه من هوْل الوعيد الَّذي يتهدَّد هذا الصنف من حملة العلم، الذين سمَّاهم الإمام الغزالي: «علماء الدنيا».

عن أسامة بن زيد أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**يُجاء بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النار، فتندلق أقتابه**[(١)]**، فيدور بها كما يدور الحمار برَحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: يا فلان، ما شأنك؟ ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟! فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن الشرِّ وآتيه**»[(٢)].

وعن أنس: وإنِّي سمعته يقول ـ يعني النبي ﷺ ـ : «**مررتُ ليلة أسريَ بي بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: خطباء أُمَّتك الذين يقولون ما لا يفعلون**»[(٣)].

هؤلاء الذين يُحْسنون الكلام ولا يُحْسنون العمل، وينتسبون إلى العلم ولا يقومون بحقه، يكونون فتنةً على الأمة؛ لأنَّهم موضع القدوة.

وهناك صنفان إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسدَ الناس: الأمراء والعلماء، ورحم الله الشاعر الَّذي قال:

يَا أَيُّهَا الْعُلَمَاءُ يَا مِلْحَ الْبَلَدْ مَا يُصْلِحُ الْمِلْحَ إِذَا الْمِلْحُ فَسَدْ[(٤)]**؟!**

(١) أقتابه: أمعاؤه. وتندلق: تخرج من مكانها.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الفتن (٧٠٩٨)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٩).

(٣) رواه أحمد (١٢٢١١)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح. وابن حبان في الإسراء (٥٣)، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب (٢٣٢٧).

(٤) عزاه بلفظ مقارب الذهبي في تاريخ الإسلام (٥٦٣/٣) ـ تحقيق د. بشار عوَّاد معروف، نشر دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠٠٣م ـ إلى مسروق.

QaradawiBooks.com

وهذا مَا كان يخافه النَّبيُّ ﷺ على أمَّته، فقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: حذَّرَنا رسول الله ﷺ كلَّ منافق عليمِ اللسان[١].

وعن عمران بن حصين، عن النبيِّ ﷺ: «**إنَّ أخوف ما أخاف عليكم بعدي: كلُّ منافقٍ عليمِ اللسان**»[٢].

وعن عليِّ بن أبي طالب مرفوعًا: «**إنِّي لا أتَخوَّف على أمتي مؤمنًا ولا مشركًا. فأما المؤمن فيحجزه إيمانه، وأمَّا المشرك فيقمعه كفره، ولكن أتخوَّف عليكم منافقًا عالم اللسان؛ يقول ما تعرفون، ويعمل ما تنكرون**»[٣].

وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**العلم علمان: علمٌ في القلب، فذاك العلم النافع، وعلمٌ على اللسان، فذلك حُجَّة الله على ابن آدم**»[٤].

فعلم المرء إمَّا حُجَّةٌ له ـ وذلك إذا عمل به ـ وإمَّا حُجَّةٌ عليه إذا أصبح مجرَّد حامل له، شأن اليهود الذين حملوا التوراة كلامًا، ولم

(١) رواه أحمد (١٤٣)، وقال مخرِّجوه: إسناده قوي. والبزار (٣٠٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٨٦): رواه البزار وأحمد وأبو يعلى، ورجاله موثقون.

(٢) رواه البزار (٣٥١٤)، وابن حبان في العلم (٨٠)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري. والطبراني (٢٣٧/١٨)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣٥١٤): رواته محتج بهم في الصحيح.

(٣) رواه الطبراني في الصغير (١٠٢٤)، والأوسط (٧٠٦٥)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢٢١): رواه الطبراني في الصغير والأوسط من رواية الحارث وهو الأعور وقد وثقه ابن حبان وغيره. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٨٤): فيه الحارث الأعور ضعيف جدًّا. ولكن يشهد له الحديثان قبله.

(٤) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٥٦٨/٥)، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م. وقال المنذري في الترغيب والترهيب (١٣٩): رواه الخطيب في تاريخه، وحسَّن إسناده.

QaradawiBooks.com

يحملوها عملًا والتزامًا، فكانوا كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ [الجمعة: ٥]، أو كذلك الَّذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، ولم يرتفع بها من حضيض الماديَّة في التفكير والحيوانيَّة في السلوك: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِۖ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۡۚ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

ومن ثَمَّ كان رسول الله ﷺ يستعيذ بالله من العلم الَّذي لا ينفع، وهو العلم الَّذي ينفصل عن الأخلاق، لأنَّه يصبح وبالًا على صاحبه، وقد يكون وبالًا على مَنْ حوله كذلك.

فعن زيد بن أرقم، أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: «**اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من علمٍ لا ينفع، ومن قلبٍ لا يخشع، ومن نفسٍ لا تشبع، ومن دعوةٍ لا يُستجاب لها**»(١).

هذا النوع من العلماء الذين تُكذِّب أفعالُهم أقوالَهم، وسريرتُهم علانيَتَهم، يمثِّلون فتنة لجمهور الناس؛ لأنَّ الناس يتأثرون بالحال أكثر من التأثر بالمقال، حتَّى قيل: حال رجل في ألف رجل أبلغُ من مقال ألف رجل في رجل.

ومهما حاولت أن تقول للناس: خُذوا من العالم علمه، ودعوا عمله. أو كما قال الشاعر:

اعْمَلْ بِعِلْمِي وإنْ قَصَّرتُ في عَمَلِي ... يَنْفَعْكَ عِلْمِي ولَا يَضْرُرْكَ تَقْصِيرِي(٢)!

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٢٢)، والنسائي في الاستعاذة (٥٤٥٨).

(٢) عزاه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٨٦١) للخليل بن أحمد.

QaradawiBooks.com

فإنَّ الناس لن يسمعوا لك.

وفي هذا روي عن الإمام عليٍّ رضي الله عنه قوله: قَصَم ظهري رجلان: جاهل متنسِّك، وعالم متهتِّك. ذاك يغرُّهم بتنسُّكه، وهذا يضلهُّم بتهتُّكه[١]!

ويزداد خطر هذا الصنفِ إذا أصبحوا أبواقًا لأمراء السُّوء، وحُكَّام الجور، يزيِّنون لهم قبيحَ ما يصنعون، ويجرِّئونهم بفتاويهم على التمادي فيما هم فيه سائرون.

وهذا ما أفسد الأديان من قبل، وما شكا منه المخلصون المصلحون من بعد. يقول الإمام عبد الله المبارك:

وهل أفسد الدينَ إلَّا الملوكُ وأحبارُ سوء ورهبانها
لقد رتع القوم في جيفة يبين لذي اللبِّ إنتانها[٢]

وفي حديث رواه أبو الدرداء مرفوعًا: «**أنزل الله في بعض الكتب، أو أوحى إلى بعض الأنبياء: قل للذين يتفقَّهون لغير الدين، ويتعلَّمون لغير العمل، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة، يلبسون للناس مسوك الكِباش** ـ جلود الضأن ـ **وقلوبُهم كقلوب الذئاب، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمرُّ من الصبر. إيَّاي يخادعون، وبي يستهزِئُون؟ بي حلفتُ لأُتيحنَّ لهم فتنةً تذَرُ الحليمَ فيهم حيران**»[٣].

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة للأصبهاني صـ ١٨٤، تحقيق د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، نشر دار السلام، القاهرة، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (٨٨٢/٤).

(٣) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١١٣٩)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (٣٤٢/٢).

QaradawiBooks.com

الحرص على نشر العلم:

ومن أخلاق العلماء: الحرص على نشـر العلم وتبليغِه ونفعِ الناس به، فلا خير في علم يُكتم، كمـا لا خير في مال يُكنز، فإنَّما جُعل العلم لينشر، كما جُعل المال لينفق.

وكان النبي ﷺ يحضُّ أصحابه على تبليغ ما يسمعونه منه، لينتفع به مَنْ بعدَهم زمانًا، ومَنْ وراءهم مكانًا؛ ففي حَجَّة الوداع ألقى بيانه العظيم عن الإسلام، ثم قال في ختامه: «**ليبلِّغ الشاهدُ منكم الغائبَ**»[(١)].

وفي حديث عبد الله بن عمرو، عن النبيِّ ﷺ: «**بلِّغوا عنِّي ولو آية**»[(٢)].

وروى ابن مسعود مرفوعًا: «**نَضَّرَ الله امرأً سـمع منَّا شيئًا فبلَّغَه كما سمعه، فرُبَّ مُبلَّغ أوْعى من سامع**»[(٣)].

وعن زيد بن ثابت مرفوعًا: «**نَضَّرَ الله امرأً سمع منَّا حديثًا فبلَّغه غيره، فرُبَّ حامل فقهٍ إلى من هو أفقه منه، وربَّ حامل فقهٍ ليس بفقيه**»[(٤)].

وهـذه الأحاديـث وما في معناها هـي التي جعلـت الصحابة رضي الله عنهم يحرِصون على تبليغ ما يحملون فـي صدورهم من علم النبوة، حتَّى إنَّ أبا ذر نهاه الخليفة الثالث عثمان عن الفتيا، ولكنَّه ـ رغم إيمانه بوجوب

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٠٥)، ومسـلم في القسـامة والمحاربين (١٦٧٩)، عن أبي بكرة.

(٢) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦١).

(٣) رواه أحمد (٤١٥٧)، وقال مخرِّجـوه: صحيح. والترمذي في العلم (٢٦٥٧)، وقال: حسـن صحيح. وابن ماجه في المقدمة (٢٣٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٦٤).

(٤) رواه أحمد (٢١٥٩٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦)، وقال: حسن. كلاهما في العلم، وابن ماجه في المقدمة (٢٣٠).

QaradawiBooks.com

طاعة الإمـــام ـ رأى أنَّ طاعته في هذا الأمر خاصَّـــة غير ملزمة؛ لأنَّ أمر الرسول بالتبليغ أقوى من نهي الإمام عن الفتيا.

ولمَّا اجتمع عليه الناس في موســـم الحج يستفتونه وقف عليه رجل من قريش، ثم قال له: ألم تُنْهَ عن الفتيا؟

فرفع رأســـه إليه، فقال: أرقيبٌ أنت عليَّ؟ لـــو وضعتم الصمصامة ـ يعني الســـيف الصارم الَّذي لا ينثني ـ على هذه ـ وأشار إلى قفاه ـ ثم ظننتُ أنِّي أُنفذ كلمةً سمعتها من النبي قبل أن تُجْهِزوا عليَّ لأنفذتها[(١)].

ويُقوِّي موقف أبي ذر: الآيات والأحاديث التي حَذَّرت أبلغَ التحذير من كتمان العلم، واحتجـــازه عمَّن ينتفع به من النـــاس وخصوصًا عند الطلب والسؤال.

وكان أبو هريرة يقول: إنَّ الناس يقولون: أكثرَ أبو هريرة؛ ولولا آيتان في كتـــاب الله ما حدَّثت حديثًا. ثم يتلـــو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠][(٢)].

ومثلهما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُو۟تُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

(١) علَّقه البخاري مجزومًا به، في باب: العلم قبل القول والعمل (٢٤/١)، ورواه الدارمي في المقدمـــة (٥٦٢)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١٦٠/١)، وصحَّحـــه ابن حجر في المطالب العالية (٣٠٦٩).

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (١١٨)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٩٣).

QaradawiBooks.com

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «**منْ سُـئِل عن علم فكتمه أُلجِم يوم القيامة بلجامٍ من نار**»[١].

ونحوه من حديث ابن عباس أيضًا[٢].

ومن حديث عبد الله بن عمرو: «**من كتم علمًا ألجمه الله...**» الحديث[٣]

قال الإمام ابن الأثير في «جامع الأصول»: المُمْسكُ عن الكلام مُمَثَّل بمن ألجم نفسه بلجام.

والمعنى: أنَّ الملجم نفسه عن قول الحق والإخبار عن العلم، يُعاقب في الآخرة بلجام من نار.

وذلك في العلم الَّذي يلزمه تعليمه إيَّـاه، ويتعيَّن عليه فرضه، كمن رأى كافرًا يريد الإسلام، فيقول علِّموني: ما الإسلام؟ وما الدين؟ وكمن جاء مستفتيًا في حلال، أو حرام، فيقول: أفتوني، أرشدوني، فإنَّه يلزم في مثل ذلك أن يعرف الجـواب، فمن منعه اسـتحقَّ الوعيد، وليس الأمر كذلك في نوافل العلم التي لا يلزم تعليمها[٤].

---

(١) رواه أحمد (٧٥٧١)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وقال: حسن. كلاهما في العلم، وابن ماجه في المقدمة (٢٦٦)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٨٤).

(٢) رواه أبو يعلى (٢٥٨٥)، والطبراني في الكبير (١٤٥/١١)، والأوسط (٧١٨٧)، وقال المنذري في الترغيب والترهيـب (٢٠٠): رواه أبو يعلى ورواته ثقات محتج بهم فـي الصحيح، ورواه الطبراني في الكبير والأوسط بسند جيد بالشطر الأول فقط.

(٣) رواه ابن حبان في العلم (٩٦)، وقال الأرناؤوط: إسـناده حسـن في الشواهد. والحاكم في العلم (١٠٢/١)، وقال: على شرطهما ولا علة له. ووافقه الذهبي.

(٤) جامع الأصول (١٢/٨)، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط وبشـير عيون، نشـر مكتبة الحلواني ومطبعة الملاح ودار البيان، ط١، ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

QaradawiBooks.com

وإنَّما قال ابن الأثير ما قال، لأنَّ وقت العالم وجهدَه لا يتَّسعان لتبليغ كل علم وإجابة كلِّ سائل، فحاجة المتعلِّم، وأهليَّةُ العالم، وطاقتُه، وأهميَّةُ الموضوع، ووجود من يقوم بالأمر عداه أو عدمه، كل هذا يُحدِّد: متى يجب الجواب ومتى لا يجب.

وإنِّي ألمح في الحديث أنَّ الوعيد إنَّما هو لمن ألجم نفسه عن الكلام، أي: تعمَّد السكوتَ طمعًا أو خوفًا من الناس، وبهذا يكتم الشهادة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠].

وهذا ما أنكره القرآن على أهل الكتاب: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

على أنَّ نوافل العلم أيضًا يلزم نشرها، وتبليغها لأهلها بأيِّ وسيلة من وسائل النشر والتبليغ شفاهًا أو كتابةً، فالقلم أحدُ اللسانين، ولا سيما إذا جاء منْ يطلبها حرصًا عليها ورغبةً فيها، فلا يسعُ من يحملها إلَّا أن يُؤدِّيها كما أُدِّيت إليه، حتَّى يُتوارث العلم ويحيا.

وهذا من فروض الكفاية.

وقد يتعيَّن على بعض العلماء لأهليَّته الخاصَّة للإفادة.

ولهذا كان بعض الصحابة يبلِّغون بعض أحاديث سمعوها من رسول الله ﷺ وخشوا أن يفهمَها الناس على غير وجهها، فيُخبرون بها في اللحظات الأخيرة من حياتهم تأثُّمًا، وتَحرُّجًا، أن يموتوا فتموت الحقيقة العلميَّة معهم.

فعن أبي أيوب الأنصاري أنَّه قال حين حضرته الوفاة: كنت كتمت عنكم حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ، وسوف أُحَدِّثكموه وقد أحيط

QaradawiBooks.com

بنفسـي: سـمعته يقول: «**لولا أنَّكم تُذنبون لذهب الله بكم وخلق خلقًا يذنبون فيغفر الله لهم**»[١].

وعن أنس بن مالك، أنَّ رسول الله ﷺ ومعاذ رديفه على حمار قال: «**يا معاذ بن جبل**». قال: لبيك يا رسول الله وسعديك. ثلاثًا. قال: «**ما من أحدٍ يشـهد أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمدًا رسـول الله صدقًا من قلبه إلَّا حرَّمه الله على النار**». قال: يا رسول الله، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: «**إذن يتَّكلوا**». وأخبر بها معاذٌ عند موته تأثمًا[٢].

وهكذا كان تلاميذ الصحابة ومن تبعهم بإحسانٍ أحرصَ الناس على نشر العلم وتعليمه ومدِّ أشعته في الناس، فإذا لم يجدوا من يأخذ عنهم ضاقت عليهم الأرض بما رحُبت، وضاقت عليهم أنفسهم، أو فكَّروا في الرحيل إلى بلد آخر.

قال عطـاء: دخلتُ على سـعيد بن المُسـيِّب وهو يبكـي، فقلت: ما يبكيك؟ قال: ليس أحدٌ يسألني عن شيء!

وحكوا عن سـفيان الثوري: أنَّه لمَّا قدِم عَسـقلان مكث لا يسـأله إنسـان... فقال: اكروا لي ـ أي راحلة ـ لأخرجَ من هـذا البلد، هذا بلدٌ يموت فيه العلم[٣].

وذكر ذلك الغزالي في «الإحياء»، ثم قال: إنَّما فعل ذلك حرصًا على فضيلة التعليم واستبقاء العلم به.

---

(١) رواه مسلم في التوبة (٢٧٤٨)، وأحمد (٢٣٥١٥)، عن أبي هريرة.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (٥٩٦٧)، ومسلم في الإيمان (٣٠).

(٣) جامع بيان العلم (١٠٤٦).

QaradawiBooks.com

مسائل وملاحظات تتعلق بكتمان العلم ونشره:

وهنا عدَّة مسائل تتعلق بكتمان العلم ونشـــره، ينبغي لنا أن نعرض لها، ونلقي بعض الضوء عليها:

غير مرخصة للطباعة

متى يجوز حجب بعض المعلومات؟

الأولى: إنَّ من حقِّ العالم أن يَحجب بعـــض المعلومات عن بعض الناس، لمصلحةٍ يراها ولو سُئل عنها، لما يتَرتَّب على بثِّها من ضرر أكبر من نفع العلم بها.

وقد يدَعُ الجواب عن مسألة تأديبًا للسائل المتعنِّت، أو إرشادًا له إلى الاشتغال بما هو أهم وأنفع، أو غير ذلك من الاعتبارات.

وفي الصحيح: «**كفى بالمرء إثمًا أن يُحَدِّث بكل ما سمع**»[(١)].

وعن أبي هريرة قال: حفظتُ من رسول الله ﷺ وعاءين، فأما أحدهما فَبَثَثْتُه، وأمَّا الآخر فلو بَثَثْتُه قُطِع هذا البلعوم[(٢)]. يَكْنِي بذلك عن القتل.

قال الحافظ ابن حجـــر: حمل العلمـــاء الوعاء الَّذي لـــم يبثَّه على الأحاديث التي فيها تعيين أسامي أمراء السُّوء وأحوالهم وزمنهم.

وقد كان أبو هريرة يَكْنِي عن بعضه ولا يُصرِّح به خوفًا على نفســـه منهم، كقوله: أعوذ بالله من رأس الســـتين، وإمارة الصبيان. يشـــير إلى خلافة يزيد، وقد استجاب الله له فمات قبلها بسنة[(٣)].

---

(١) رواه مسلم في المقدمة (١٠/١)، وأبو داود في الأدب (٤٩٩٢)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري في العلم (١٢٠)، عن أبي هريرة.

(٣) نقل الحافظ أيضًا عـــن ابن المنيِّر قوله: جعـــل الباطنية هذا الحديـــث ذريعة إلى تصحيح باطلهم، حيث اعتقدوا أنَّ للشـــريعة ظاهرًا وباطنًا، وذلك الباطن إنَّما حاصله الانحلال من =

QaradawiBooks.com

حكم إعارة الكتب:

الثانية: قال بعض العلماء: يشمل الوعيد ـ على كتمان العلم ـ حبسَ الكتب عن الطالب لا سـيما عند عدم التَّعدُّد لنسـخها، الَّذي هو أعظم أسباب المنع. قال: والابتلاء بهذا كثير[1] اهـ.

ومقتضى هذا وجوب إعارة الكتب لطلاب العلم إذا احتاجوا إليها؛ ذلـك لأنَّ منعها ـ فيمـا أرى ـ يدخـل أيضًا في باب منـع الماعون، المُتوعَّد عليه بالويْل في كتاب الله. وهو أيضًا أشـبه بكنز المال، وعدم الإنفاق منه في سبيل الله، وفيه من الوعيد ما فيه. ولكن وجوب هذا في رأيي مُقيَّد بشروط:

١) أن يكون طالب الكتاب في حاجة حقيقيَّة إليه لا يُغنِي عنه غيره.

٢) ألَّا توجد مكتبات عامَّة يُمكنه اسـتعارة الكتاب منها خارجيًّا أو داخليًّا.

٣) ألَّا يستطيع شـراء الكتاب، لعدم وجوده في السوق، أو لعجزه عن شرائه.

٤) ألَّا يكون معروفًا بالإهمال وإضاعة الكتب أو تعريضها للتلف.

= الدين. قال. وإنَّما أراد أبو هريرة بقوله: «قطع» أي قطع أهل الجور رأسـه إذا سمعوا عيبه لفعلهم، وتضليله لسـعيهم، ويؤيِّد ذلـك أنَّ الأحاديث المكتومة لو كانـت من الأحكام الشـرعيَّة، ما وسـعَه كتمانها، لما ذكره في الحديث الأول من الآية الدالة على ذمِّ من كتم العلم. وقال غيره: يحتمل أن يكون أراد ـ مع الصنف المذكور ـ ما يتعلق بأشـراط الساعة وتغير الأحـوال والملاحم في آخر الزمـان، فينكر ذلك من لم يألفـه، ويعترض عليه من لا شعور له به اهـ. فتح الباري (٢١٦/١).

(١) المقاصد الحسنة صـ ٦٦٦، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

QaradawiBooks.com

٥) ألَّا يكون صاحب الكتاب في حاجة إليه، لأنَّ حاجته مقدَّمةٌ على حاجة غيره. وفي الحديث: «**ابدأ بنفسك**»[١]، وفي آخر: «**ابدأ بمن تعول**»[٢].

غير مرخصة للطباعة

حق التأليف والنشر:

الثالثة: ذهب بعض العلماء في عصرنا إلى أنَّ من موجب الكتمان المُحرَّم أن يمنع المؤلف نشر كتابه إلَّا بإذنٍ منه، وتعاقدٍ معه، وأخذ أجرة عليه، وإنَّما يجب أن يمنحه لمن شاء طبعَه، ونشره دون حجْر ولا احتكار، وبغير مقابل.

وأنكروا ما اصطلح الناس في عصرنا على تسميته حقوق التأليف أو النشر أو التوزيع، وهذه قضيَّة هامة وعامة، تحتاج إلى تمحيص وتحقيق، لم أفرغ له.

ويشبه الكلام في هذا الموضوع ـ إلى حدٍّ كبير ـ ما ثار من جدل قديم بين الفقهاء حول القربات الدينيَّة وأخذ الأجرة عليها، مثل: الأذان والإمامة في الصلوات، وخطبة الجمعة، والوعظ والتذكير بالمساجد، ونحوها، ممَّا هو الأصل واجب ديني، يجب على المسلم أن يفعله احتسابًا، ويقومَ به من غير مقابلٍ ماديٍّ، تقرُّبًا إلى الله تعالى بأداء الواجب.

وقد انتهى هذا الجدل والخلاف باتِّفاق المتأخرين من علماء المذاهب على جواز أخذ الأجرة؛ لتغيُّر الزمان، وخوفًا على هذه الأعمال الدينيَّة أن تتعطَّل، ولا تجد من يتطوَّع للقيام بها، فاقتضت مصلحةُ الدين وعمارة بيوتِه واستمرار إقامة شعائره، إباحة أخذ الأجرة.

---

(١) رواه مسلم (٩٩٧)، والنسائي (٢٥٤٦)، كلاهما في الزكاة، عن جابر بن عبد الله.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٤٢٧)، ومسلم (١٠٣٤)، كلاهما في الزكاة، عن حكيم بن حزام.

QaradawiBooks.com

على أنَّ ممَّا يجب التنبيه عليه هنا جملة أمور:

أولًا: أنَّ الكتاب ملك لمؤلفه، ولهذا يُنْسـب إليه، ويُحسـب عليه، ويُحاسب على أخطائه، وملكيته هنا ملكيَّة علميَّة أدبيَّة، وهو أمر اعترف به العالم كله في قوانينه المدنيَّة.

ولا ريب أنَّ من ملك شيئًا أصبح حرَّ التصرف فيه، وأصبح من حقه الانتفاع بثمراته، وهذه من لـوازم الملكية؛ فإذا كان مـن يملك بيتًا له الحق أن يسكنه أو يؤجره أو يبيعه، فكذلك من يملك كتابًا.

ثانيًا: أنَّ الكتابَ العلمي لا يأتـي عفوًا، وإنَّما هو ثمرة كفاحٍ طويل، كوَّن به صاحبه شـخصيته العلمية، ثـم هو نتيجة جهد جهيد، وسـهرٍ بالليل، وعرقٍ بالنهار لا يعرفه إلَّا من عاناه، وربما استغرق الكتاب من صاحبه سـنين حتَّى يبـرز إلى حَيِّز الوجـود، أو قل حتَّى تأتي سـاعة المخاض، فهو إذن كسبٌ من وراء عمل طويل مختزن في كتابه، كما أنَّ المصنـع أو العمارة ثمرة جهـد طويل، اختزنه فيها منشـئ المصنع أو صاحب العمارة.

ثالثًا: أنَّ حياة العالم المؤلف ليست حياةً سهلة، كحياة سائر الناس، إنَّها حياة تتطلب جهدًا خاصًّا زائدًا على جهود العاديين من الناس، كما تتطلب نفقات خاصَّة زائدة أيضًا على نفقات الآخرين.

فالعالم المؤلف يحتاج إلى مكتبة غنيَّـة بالمصادر المهمَّة، ويحتاج إلى من يسـاعده في النقل أو التبييض أو الطباعة، ويحتاج لمَن يساعده في شؤون أسرته حيث لا يمكنه أن يتفرغ لأمورهم ورعايتهم، كما يتفرغ سـائر الناس. وبدون هذا لا يسـتطيع أن ينتج علمًا حقيقيًّا. فأنَّى له أن

QaradawiBooks.com

يغطِّي هذه النفقات، وإن كان موظفًا في جامعة أو وزارة أو مؤسسة، إن لم يكن له من مؤلفاته ما يعطيه بعض العوض؟

رابعًا: أنَّ المؤلف قد يُصدر طبعة من كتاب، ثم يتراءى له بعد صدوره أشياء تقتضيه أن يضيف أو يحذف أو يُعدِّل، بناءً على اطلاع جديد أو تغيُّر اجتهاد أو اقتراح مقبول، أو غير ذلك.

فإذا لم يعلم الطابع أو الناشر ماذا عند المؤلف من تعديلات، وتنقيحات فإنَّه سينشر الكتاب على ما كان عليه، ويُلزم المؤلف ما لم يعد يلتزمه.

وقد كان علماؤنا قديمًا لا يستبيحون رواية كتاب عالم ما إلَّا (بإجازة) منه، وقد كان بعض العلماء يعطي بعض طلابه (إجازةً خاصَّة) برواية كتاب مُعيَّن. وأحيانًا يمنحه (إجازة عامة) برواية كتبه كلها.

وهذه الإجازة تشبه حقَّ الطبع أو النشر في زمننا، أضيف إليها عنصر جديد وهو: أنَّ المؤلف يتقاضى أجرًا على جهده في التأليف، ويشارك الناشر في جزء من الربح الَّذي يُصيبه من وراء نشر الكتاب.

ولكن الأمر الَّذي يجب تأكيده والتَّشديد فيه حقًّا هو ألَّا يستغل الناشرون والمؤلفون حاجَة القرَّاء إلى كتاب ما، فيُغالوا في سعره، كما في كثير من الكتب الجامعيَّة، والكتب التي يُقبل عليها الجمهور، فزيادة الأسعار بما لا يتغابن الناس في مثله غير مشروع.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

التعلُّم وآدابه

ضرورة التعلم:

يولد الإنسان غفْلًا من العلم، ولكنَّ الله ﷻ فطره على حُبِّ المعرفة واستطلاع ما يجهل، ووهب له من أدوات العلم ما يستطيع به أن يعرف نفسه، ويطل على الوجود من حوله، يقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وبهذا استطاع الإنسان أن يتعلَّم، ويكتشف سنن الكون وحقائق الوجود عن طريق السمع والرواية، وعن طريق البصر والملاحظة، وعن طريق الفؤاد والتفكير؛ وهي الوسائل التي استودعها الله الإنسان، وسيُسأل عنها أمام الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وبهذه الوسائل يتمكَّن الإنسان أن يكتسب علم الدنيا، وأن يحصِّل علم الدين، إذا شحذ همَّته لطلب العلم، ولم تشغله شواغل الدنيا عن التعلم.

هكذا قَضَتْ سُنَّة الله: أنَّ السماء لا تُمطر على الإنسان علمًا، وهو قاعد في بيته. وإنَّما يُدرك العلمَ مَن طلبه، وعانى في تحصيله.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وهذا ما نطق به الحديث النبويُّ الشريف: «**يا أيها الناس تعلَّموا، إنَّما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقُّه، ومَنْ يُرِد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»[١].

ولا يجوز للمسلم أن يعيش مقطوع الصِّلة بالعلم، فمن لم يكن عالمًا، فليكن متعلمًا، ومن لم يكن متعلمًا فليكن مستمعًا. وإلَّا فليكن مُحبًّا لهؤلاء، وذلك أضعف الإيمان.

عن أبي بَكرة قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «**اغْدُ عالمًا أو متعلِّمًا أو مستمعًا، أو محبًّا، ولا تكن الخامسة فتهلك**». قال عطاء: قال لي مسعر: زدتنا خامسة لم تكن عندنا، والخامسة: أن تبغض العلم وأهله[٢].

ما يجب على كل مسلم تعلُّمه:

حثَّ الرسول على التعلم أعظم الحثِّ، ورَغَّب فيه كلَّ التَّرغيب، حتَّى جعله فريضةً لازمة، وذلك في الحديث الَّذي اشتهر على الألسنة، حتَّى حفظه الكبير والصغير والخاصُّ والعام: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»[٣].

---

(١) رواه الطبراني (٣٩٥/١٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٣٧): فيه رجل لم يسمَّ، وعتبة بن أبي حكيم وثقه أبو حاتم، وأبو زرعة، وابن حبان، وضعفه جماعة. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٦١/١): إسناده حسن إلَّا أنَّ فيه مبهمًا اعتضد بمجيئه من وجه آخر. عن معاوية بن أبي سفيان.

(٢) رواه البزار (٣٦٢٦)، والطبراني في الصغير (٧٨٦)، والأوسط (٥١٧١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٩٥): رجاله موثقون.

(٣) رواه ابن ماجه في المقدمة (٢٢٤)، وأبو يعلى (٢٨٣٧)، والطبراني في الأوسط (٩)، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٨٣)، وقال المناوي في فيض القدير (٢٦٧/٤): قال ابن عبد البر: طرقه كلها معلولة. وقال النووي: ضعيف وإن كان معناه صحيحًا. وقال السيوطي: جمعت له خمسين طريقًا، وحكمت بصحته لغيره، ولم أصحِّح حديثًا لم أسبق لتصحيحه سواه. وقال السخاوي: له شاهد عند ابن أبي شاهين، بسند رجاله ثقات، ورواه نحو عشرين تابعيًّا. عن أنس.

QaradawiBooks.com

أي: على كلِّ إنسان مسلم ذكرًا كان أم أنثى، ولهذا يرويه جمهور الناس: «على كل مسلم ومسـلمة». والمعنى صحيح، ولكـن اللفظ لم يرد.

ولكن ما العلم الَّذي جعل الحديث طلبه فرضًا على كل مسلم؟

قد تباينت الأقوال وتناقضت الآراء، فـي هذا العلم المفروض على نحو عشـرين قولًا ـ كما يقول العلَّامة المناوي ـ فكل طائفة تقيم الأدلة على فرضيَّة علمها هي، وكلٌّ لكلٍّ معارض، وبعضٌ لبعضٍ مناقض.

فمن متكلِّـم يحمل العلم هنا على علم الـكلام، ويحتجُّ لذلك بأنَّه العلم المُتقدِّم رتبة؛ لأنَّه علم التوحيد، الَّذي هو أساس البناء.

ومن فقيه يحمله على الفقه، إذْ هو علم الحلال والحرام، وبه يعرف المسلم كيف يعبد الله، وكيف يعامل الناس، ويقول: إنَّ ذلك هو المتبادر من إطلاق العلم في عرف الشرع.

ومن مُفسِّـر يرى أنَّ أوْلى ما يطلق عليه العلم هو العلم بالمراد من كلام الله تعالى بقدر الطاقة البشرية، وهذا هو علم التفسير.

ومن محدِّث يحمل العلم على معرفة السـنن والآثار، التي بها بيان القرآن، وفيهـا تفصيل ما أجمل، وتبيين ما أُبهـم، وتخصيص ما عُمِّم، وتقييد ما أُطلق، وهي ـ مع القرآن ـ حبل النجاة.

ومن نَحْـويٍّ يحمله على علـم العربية، إذ الشـريعة إنَّما تتلقَّى من الكتاب والسُّـنَّة، وقد قال تعالـى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ [إبراهيـم: ٤]. فلا بدَّ من إتقـان العربيَّة ليعرف البيان المشار إليه في الآية الكريمة.

QaradawiBooks.com

ومن متصوِّف يحمله على علم العبد بحاله، ومقامه من الله ﷻ، أو العلم بالإخلاص وآفات النفوس، ومداخل الشيطان إليها، إلخ.

وقال أبو طالب المكي: هو العلم بما يتضمنه الحديث الَّذي فيه مباني الإسلام: «**بُني الإسلام على خمس...**»؛ لأنَّ الواجب هذه الخمس، فيجب العلم بكيفيَّة العمل فيها، ويكفيه الوجوب[١].

وهكذا تَعَدَّدت الآراء، واختلفت الأقوال، ولكلٍّ وجهةٌ هو مُولِّيها[٢].

والذي أراه أنَّ العلم الواجب طلبه وتعلمه ـ عينًا ـ على المسلم: هو ما لا بدَّ له منه في دينه أو في دنياه.

أمَّا في دينه، فلا بدَّ له أن يتعلَّم من علوم الشرع:

١ ـ ما يعرف به عقيدتَه معرفة يقينيَّة صحيحة، سالمةً من الشِّركيَّات والخرافات.

٢ ـ وما يُصَحِّحُ به عبادتَه لربِّه ظاهرًا، بأن تكون على الصورة المشروعة، وباطنًا بأن تتوافر فيها النيَّة الخالصة لله تعالى.

٣ ـ وما يُزَكِّي به نفسه، ويُطَهِّر به قلبه، بأن يعرف الفضائل (المنجيات)؛ ليتحرَّاها ويتخلَّق بها، ويعرف الرذائل (المهلكات)؛ ليتجنَّبَها ويتوقَّاها.

٤ ـ وما يضبط به سلوكه في علاقته مع نفسه، أو مع أسرته، أو مع الناس، حكامًا ومحكومين، مسلمين وغير مسلمين، فيعرف في ذلك

(١) انظر: الإحياء (١٤/١) وما بعدها.

(٢) فيض القدير (٢٦٧/٤، ٢٦٨).

QaradawiBooks.com

الحلال من الحرام، والواجب من غير الواجب، واللائق من غير اللائق. ولا يضيرنا أن يدخل هذا القدْر اللازم تحت اسم (التوحيد) أو (الفقه) أو (التصوف) أو (الآداب الشرعيَّة) أو (الزهد) أو غير ذلك.

فهذه التَّسميات مُصطلحات مُحْدَثة، ولم يتعبَّدنا الله بها، وإنَّما يَهمُّنا المضمون، ولا عبرة بالأسماء والعناوين، متى وضَحت المُسمَّيات والمَضامين.

وهذا القدر من العلم يجب أن يكون إلزاميًّا، يتعلَّمه كل مسلم ومسلمة: بالقراءة في المدارس والمعاهد، وبالسماعِ في المساجد، وفي أجهزة الإعلام المختلفة.

وعلى كلِّ دولة تنتسب إلى الإسلام، أن تُوفِّر هذا القدر لأبنائها بكل وسيلة مستطاعة، وأنْ تنتهز كل فرصة لتفقيه أبنائها ما يجب عليهم، مثل فرصة التجنيد في الجيش أو في الشرطة.

ويجب على الآباء والأولياء أن يعلِّموا أولادهم، ومَنْ يلُونَ عليهم، أو يبعثوا بهم إلى المدارس والمساجد والأماكن، يتلقون فيها العلم الواجب، ولا يجوز لوليٍّ أن يدعَ مُوليه في ظلام الجهل بدينه، دون أن يعلِّمه أو يهيِّئ له من يعلمه، فضلًا عن أن يمنعه من التعلُّم إذا أراد.

وذلك أنَّ الحديث الشريف يقول: «**مرُوا أولادكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر**»[1]. فدلَّ هذا على وجوب تعلُّم الصلاة ـ ومثلها الصيام لمن يطيقه ـ منذ تمام السابعة من العمر؛ لأنَّ أداء الصلاة غير

(١) رواه أحمد (٦٧٥٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. وأبو داود في الصلاة (٤٩٥)، وحسنه النووي في رياض الصالحين (٣٠١)، وقال الألباني في صحيح أبي داود (٥٠٩): إسناده حسن صحيح. عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

ممكن إلَّا بتعلُّمها بشروطها وأركانها وكيفيَّتها، وما لا يتمُّ الواجبُ إلَّا به فهو واجبٌ.

فإذا قصَّر الأب أو الوليُّ في تعليم مَنْ ولَّاه الله رعايته، لم يعفه ذلك من وجوب التعليم وطلب العلم المفروض عليه، حين يبلغ الحلم، ويتحمَّل مسؤولية نفسِه، فقد رُفع القلم عن الصبيِّ حتَّى يبلغ.

يقول الإمام أبو مُحَمَّد ابن حزم بعد أن بيَّن ما يلزم كل مسلم ومسلمة تعلُّمه من الطهارة والصلاة والصيام، وما يَحلُّ له ويحرم عليه من المآكل، والمشارب، والملابس، والفروج، والدماء، والأقوال والأعمال: «فهذا كله لا يسع جهلُه أحدًا من الناس، ذكورهم وإناثهم، أحرارهم وعبيدهم وإمائهم. وفرضٌ عليهم أن يأخذوا في تعلم ذلك من حين يبلغون الحُلم، وهم مسلمون أو من حين يسلمون بعد بلوغهم الحُلم».

قال: «ويجبر الإمام (رئيس الدولة) أزواج النساء، وسادات الأرقاء، على تعليمهم ما ذكرنا، إمَّا بأنفسهم، وإما بالإباحة لهم لقاء من يعلِّمهم، وفرضٌ على الإمام أن يأخذ الناس بذلك، وأن يرتِّب أقوامًا بتعليم الجهال»[1].

وهذا القدْر يجب أن يتعلَّمه المسلم بلغته التي يُحسنها، ولكن يجب عليه أن يتعلم من العربية ما يتلو به أمَّ القرآن في صلاته وما يقرأ به من الآيات، وما تقوم به الصلاة من التَّكبيرات والتَّسبيحات والسلام، وما يفهم به الأذان والإقامة ونحوها. ومن لم يجد هذا القدر اللازم تعلُّمه موفورًا في بلده، وجب عليه أن يرحل في طلبه حتَّى يتعلَّمه من أهله ولو بالصين.

(١) انظر: الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (١٢٢/٥)، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، نشر دار الآفاق الجديدة، بيروت.

QaradawiBooks.com

على أنَّ هذا القدْر الواجـب تعلمه إنَّما يُمثِّل الحـدَّ الأدنى لمعرفة المسلم بدينه في كل بيئة وكل حال، ثم هو يتَّسع ويزداد حسب الأحوال والمُوجبات الخاصَّة أو العامَّة، فالفقيـر لا يجب عليه أن يتعلَّم تفاصيل أحكام الزكاة، إلَّا أن يتعلم ما يباح له أخذه من مالها، إنَّما يجب عليه أن يتعلم أحكامها إذا ملك مالًا تجب فيه الزكاة.

ولا يفترض عليه تعلُّم كل الأحكام لـكل أموال الزكاة، بل ما ملك نصابًا منه تعلَّم ما يتعلق به. فالتاجـر يتعلَّم أحكام زكاة التجارة والنقود والديون ونحو ذلك: فيمَ تجب؟ ومتى تجب؟ وكم تجب؟ ولمن تجب؟ وليس عليه أن يتعلَّم زكاة الأنعام من إبل وبقر وغنم، وما يجب فيه بنت مخاض أو بنت لبون، إذ لا حاجة له فيها.

ومن لا مال له، ولا اسـتطاعة عنده، لا يفرض عليه تعلُّم أحكام الحج، بل يتعلَّمه مَنْ مَلك الصحَّة الجسـميَّة، والقدرة الماليَّة، أي: على نفقات السفر ذهابًا وإيابًا، ونفقات الإقامة في الأرض المُقدَّسة، ونفقات مَنْ يعولـه حتَّى يعود، فعندئذٍ يلزمه تعلُّم أساسـيَّات الحج والعمرة، وخاصَّة عندما يعقد النيَّة، ويدخل في أشهر الحج. وإذا كان فـي المذاهـب الفقهيَّة من يـرى أنَّ فـرض الحج علـى التراخي، فالأكثرون يرونه واجبًا على الفور، والحزم في المبادرة والمسـارعة إلى الخيرات.

وهكذا من كان له اختصاص بشـيء، وجب عليه أن يتعلَّم ما يتصل به من الأحـكام، فالتاجر يلزمـه معرفة ما يَحل وما يَحـرم من البيوع، وأنواع المعامـلات والمُدايَنات التـي تدخل في نطـاق التجارة، حتَّى لا يسقط في هُوَّة الحرام وهو لا يدري، وجهله ليس عذرًا له.

QaradawiBooks.com

والطبيب يلزمه معرفة ما يتعلَّق بمهمَّته، كتحريم التداوي بالخمر، وتحريم الإجهاض ونحو ذلك.

والذي تقْتضيه مهنته السفر كربَّان السفينة والطيار ومضيف الطائرة، يلزمه تعلُّم أحكام السفر ورخصه.

المهم أنَّ كل من يحتاج إلى شيء، لاختصاصه به أو ملابسته له، يلزمه تعلُّمه وما لا فلا. على أنَّ كل إنسان لا يخلو من وقائع في عبادته أو معاملاته، تتَجدَّد له، ولا يعرف حكم الشرع فيها، فهنا يلزمه السؤال عنها، بل ينبغي له المبادرة إلى تعلُّم ما يتوقع وقوعه على القرب غالبًا[1]، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

ففَرَض على كلِّ أحدٍ طلب ما يلزمه.

هذا ما لا بدَّ منه للمسلم في دينه، وتعلُّمه فرضُ عينٍ عليه، وأمَّا ما لا بدَّ له منه في دنياه، فيختلف باختلاف البيئات والأزمات. وأرى أنَّ تعلُّم القراءة والكتابة والحساب وسائر ما يدرس في المرحلة الابتدائية الآن ـ على الأقل ـ لازمٌ لكلِّ إنسان مسلم في دنيا عصرنا حتَّى يكون عضوًا نافعًا في المجتمع، ولا توصم أمتنا بالتخلف والأميَّة في مواجهة الأمم الراقية المتعلِّمة.

ما يفترض تعلُّمه على سبيل الكفاية:

وهناك من العلوم ما يُعدُّ طلبه فرض كفاية على الجماعة، بحيث إذا قام به واحد أو عدد كافٍ سقط الحرج عن باقي الجماعة، وإلَّا أثِمت الجماعة عامَّة، وأولو الأمر فيها خاصَّة.

(١) انظر: الإحكام لابن حزم السابق ذكرها.

QaradawiBooks.com

يقول الإمام ابن حزم: «ثم فرض على كلِّ جماعة مجتمعة في قرية أو مدينة أو دسكرة أو حلة أعراب أو حصن، أن ينتدب منهم ـ لطلب جميع أحكام الديانة أولها عن آخرهـا ولتعلم القرآن كله، ولكتاب كلِّ ما صحَّ عن النبي ﷺ، من أحاديث الأحكام أولها عن آخرها، وضبطها بنصوص ألفاظها، وضبط كل ما أجمع المسلمون عليه، وما اختلفوا فيه ـ من يقوم بتعليمهم، وتفقيههم من القرآن، والحديـث، والإجماع، ويكتفى بذلك على قدر قلَّتهم أو كثرتهم».

يعني أنَّ الواجـب طلب جميع ما ذكره ابن حزم، إن لم يسـتوعبه جهد الطالب.

واستدلَّ ابن حزم لما ذكره بقوله: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. فالنفار المذكـور فرضٌ على الجماعة كلهـا، حتَّى يقوم بها بعضهم فيسقط عن الباقين.

ثم قال: وفرض على جميع المسلمين أن يكون في كلِّ قرية أو مدينة أو حِصْن من يحفظ القـرآن كلَّه، ويعلِّمـه الناس ويُقرئـه إيَّاهم، لأمر رسول الله ﷺ بقراءته[1].

والظاهـر أنَّ فرض الكفايـة هنا: هـو كل ما تحتاج إليـه الجماعة المسلمة في دينها أو دنياها، من التبحُّر في علوم الشرع أو التَّخصُّص في علوم الكون: من طب، وهندسـة، ورياضة، وفلـك، وكيمياء، وطبيعة، وإحياء، وجيولوجيا أو غيرها، من كل ما تتطلَّبه حياة الناس الاجتماعيَّة في هذا العصر مدنيًّا أو عسكريًّا.

(١) الإحكام لابن حزم (١٢٣/٥).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

بل كل ما يحتاج إليه المسلمون من العلوم، ليُحقِّق لهم التفوق على غيرهم، وتكون لهم القوة على عدوِّهم، فهو فرضٌ عليهم على الكفاية، والتفريط فيه يصيب الأمة كلَّها بالحرج والإثم.

وقد يتعيَّن فرض الكفاية في حقِّ بعض النـــاس إذا دعاه إليه من له الأمر ولا عذر عنده أو كان عنده من الأهليَّـــة ما ليس عند غيره، وعَلم ذلك من نفسه، ولم يحل دونه حائل.

والأصل في ذلك: أنَّ كلَّ ما يُؤدِّي إلى ضعف الأمة، يجب دفعه قبل وقوعه، ورفعه إن وقـــع. وأنَّ كلَّ ما يؤدِّي إلى قوة الأمة واســـتقرارها، وحمايتها مـــن الأخطـــار الداخليَّـــة والخارجيَّة، يجـــب تحصيله عليها بالتضامن، وأنَّ ما لا يتمُّ الواجب إلَّا به فهو واجب.

ويقول الإمام الغزالي في بيان العلم الَّذي هو فرض كفاية: «اعلم أنَّ الفرض لا يتميَّز عن غيره إلَّا بذكر أقسام العلوم، والعلوم بالإضافة إلى الغرض الَّذي نحن بصدده تنقســـم إلى شـــرعيَّة وغير شـــرعيَّة، وأعني بالشرعيَّة: ما اســـتفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب، ولا التجربة مثل الطب، ولا السماع مثل اللغة.

فالعلوم التي ليست بشرعيَّة تنقســـم إلى ما هو محمود، وإلى ما هو مذموم، وإلى ما هو مباح.

فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا، كالطب والحساب، وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية، وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة.

أمَّا فرض الكفاية فهو كل علم لا يُســـتغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطـــب؛ إذ هو ضروري فـــي حاجة بقـــاء الأبدان، وكالحســـاب، فإنَّه

QaradawiBooks.com

ضروري في المعاملات، وقسمة الوصايا، والمواريث وغيرهما. وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمَّن يقوم بها حرج أهل البلد، ـ أي: أثموا ـ وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين.

فلا يتعجب من قولنا: إنَّ الطب والحساب من فروض الكفايات، فإنَّ أصول الصناعات أيضًا من فروض الكفاية؛ كالفلاحة، والحياكة، والسياسة، بل الحجامة والخياطة. فإنَّه لو خلا البلد من الحُجَّام، تسارع الهلاك إليهم، وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك. فإنَّ الَّذي أنزل الداء أنزل الدواء، وأرشد إلى استعماله، وأعدَّ الأسباب لتعاطيه، فلا يجوز التَّعرُّض للهلاك بإهماله.

وأمَّا ما يُعدُّ فضيلة لا فريضة؛ فالتعمُّق في دقائق الحساب، وحقائق الطب، وغير ذلك ممَّا يُستغنى عنه، ولكنَّه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج إليه.

وأمَّا المذموم: فعلم السحر، والطلسمات، وعلم الشعوذة والتلبيسات.

وأمَّا المباح منه: فالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها، والتواريخ والأخبار وما يجري مجْراه»[1] اهـ.

وفي بعض ما ذكره الإمام أبو حامد هنا نظر، بالنسبة لعصرنا. فإنَّ اتِّساع نطاق العلوم اليوم، وانقسام كل منها إلى فروع، وكل فرع إلى تخصُّصات دقيقة، يخالف ما اعتبره الغزالي من باب التَّعمُّق المُستغنى عنه في دقائق الحساب، وحقائق الطب، وعدَّه بذلك فضيلة لا فريضة.

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (١٦/١).

QaradawiBooks.com

فالواقع أنَّ هذا التعمُّق اليوم أصبح لازمًا لكل طب ناجح، أو محاسبة ناجحة، وقد تطوَّر علم الطب والعلوم التي تخدمه تطورًا كبيرًا، وكذلك علم الرياضيات، وكذلك علوم الطبيعة التي ذكر الغزالي نفسه في مقام آخر أنَّه لا حاجة إليها! بخلاف الطب فإنَّه محتاج إليه[١].

وربما كان الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ معذورًا فيما ذكره من العلوم والرياضيات في عصره، فقد كانت ممزوجة بالفلسفة، غير منفصلة عنها، وكان للغزالي رأيٌ في تلك الفلسفة وقضاياها، سجَّله في كتابه المعروف «تهافت الفلاسفة»، وقلَّ من يقرأ الجانب العلمي والرياضي من الفلسفة دون أن يتأثَّر بالجانب الإلٰهي منها كما أشار إلى ذلك في «المنقذ من الضلال».

والجانب الإلٰهي من تلك الفلسفة خليط من الوثنيَّة اليونانيَّة ومن شطحات العقل البشري فيما لا تُعرف حقيقته إلَّا بالوحي المعصوم.

وكذلك ما ذكره عن العلم بالأشعار التي لا سُخف فيها، وتواريخ الأخبار، وما يجري مجْراه، حيث عدَّها من قسم المباح فحسب، والذي يبدو لي أنَّ معرفة الشعر والأدب العربي عامَّة، ومعرفةَ التاريخ الإسلامي على الخصوص، والإنساني على العموم، من الواجبات الكفائيَّة فلا يجوز أن تخلو الجماعة المسلمة عمَّن يُحسنها ويوجِّهها وجهة الحق، ويرد على من يستخدمها في سبيل الباطل، كما نرى ذلك بين أتباع اليمين واليسار.

وهي كذلك سلاح من الأسلحة الثقافية للداعية المسلم[٢].

(١) الإحياء (٢٢/١).

(٢) انظر كتابنا: ثقافة الداعية صـ ٩٩ ـ ١٢٦، فصول: الثقافة اللغوية والأدبية والتاريخية والإنسانية، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١٥، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

QaradawiBooks.com

بـل أرى أنَّ واجبًـا على الجماعة الإسـلامية أن يكـون فيها من يتخَصَّص في جميع ألوان الدراسات الإنسانيَّة المختلفة (علم النفس، والاجتماع، والتربية، والاقتصاد، والسياسـة وغيرها)، حتَّى يدرسـها ويعرضهـا من منطلق إسـلامي أصيل، وفـي إطار إسـلامي مأمون، ولا سيما أنَّ هذه العلوم الإنسـانيَّة والاجتماعيَّة، هي التي تصنع فكر الأمـة وذوقها، وتلوِّن اتجاهها وسـلوك أفرادها بلونهـا، فلا يجوز أن يعدَّها المسلمون مُجرَّد مباح يجوز فعله وتركه، إنَّما يجب عدُّ ذلك من فروض الكفاية.

ولو رأى صاحـبَ «الإحيـاء» رَحِمَهُ اللَّهُ ما رأينا من خطر هـذه العلوم، وتسلط حَمَلتها على عقول الشباب، واسـتغلال اليهود لها في كثير من جامعات الغرب، ومراكز بحثه، لغيَّـر رأيَه واجتهاده، وقضى بما قضينا، ولكلِّ عصر ظروفه وأحكامه.

تصحيح النيَّة:

وأول ما يُرجى من طالب العلم، وبخاصَّة العلم الشـرعي: تصحيحُ النيَّة، وذلك أن يجاهد نفسـه على الإخلاص والتَّجرُّد، ويَتَحرَّى بعلمه وَجْهَ الله تعالى والدار الآخرة، ولا يجعل همَّه ونيَّتَـه مباهاةَ العلماء، أو مُماراةَ السُّفهاء، أو مُجاراة الأغنياء، أو مُداهنة الأمراء، أو جمع المال، أو الجاه، أو غير ذلك ممَّا يتطلَّع إليه الناس من متاع الحياة الأدنى، فيبيعون باقيًا بفانٍ، وعظيمًا بحقير، ومُلكًا كبيرًا بثمن قليل.

ولو جاز هذا في طلب علوم الدنيا، لم يجز في طلب علوم الآخرة، التي تحتاج أول ما تحتاج إلى تصفية السريرة، وتجريد الهمَّة، والإقبال بكليَّة القلب على الله تعالى.

QaradawiBooks.com

ولقد جاء الحديث الصحيح يحمل الوعيد الشديد للثلاثة الذين أفسد الريـاءُ أعمالهم، ونقلهم من ديـوان المخلصين الصادقيـن، إلى ديوان المُرائين الكاذبين فكانوا أوَّل من تُسَعَّر بهم النار يوم القيامة.

ومن هؤلاء: «**رجل تعلَّم العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن فأتيَ به، فعرَّفه نعمه، فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: تعَلَّمت العلم وعلَّمته، وقرأتُ فيك القرآن! قال: كذبت، ولكنَّك تعلَّمت، ليقال عالم. وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ. فقد قيل. ثم أُمر به فسُحِب على وجهه حتَّى أُلقيَ في النار**»[(١)].

وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تعلَّموا العلمَ لتُباهوا به العلماء، ولا لتُماروا به السفهاء، ولا تَخيَّروا به المجالس، فمن فعل ذلك، فالنار النار**»[(٢)].

وعن ابن مسعود أنَّه قال: كيف بكم إذا لبستكم فتنة يربُو فيها الصغير، ويهرم فيها الكبير، وتُتَّخذ سنَّة، فإن غيِّرت يومًا قيل: هذا منكر. قيل: ومتى ذلك؟ قال: إذا قلَّت أمناؤكم، وكثُرت أمراؤكم، وقلَّت فقهاؤكم، وكثُرت قراؤكم.. وتُفقِّه لغير الدين، والتُمِست الدنيا بعمل الآخرة[(٣)].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تعلَّم علمًا، ممَّا يُبْتغى به وجْه الله تعالى، لا يتعلَّمه إلَّا ليصيب به عرَضًا من الدنيا، لم يجد عَرف الجنَّة يوم القيامة**» أي: ريحها[(٤)].

---

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٩٠٥)، وأحمد (٨٢٧٧)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه ابن ماجه في المقدمة (٢٥٤)، وابن حبان في العلم (٧٧)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (٤٧٩)، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٠٦).

(٣) رواه عبد الرازق في جامع معمر (٢٠٧٤٢)، والدارمي في المقدمة (١٩١)، والحاكم في الفتن (٥١٤/٤، ٥١٥)، وسكت عنه، وصحَّحه الذهبي على شرط الشيخين.

(٤) رواه أحمد (٨٤٥٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. وأبو داود في العلم (٣٦٦٤)، وابن ماجه =

QaradawiBooks.com

وأيُّ خسارة أكبر من أن يخسر الإنسان الجنَّة حتَّى إنَّه لا يجد عَرفها وريحها، وريحُها يوجد من مسيرة كذا وكذا؟!

ومن رحمة الله تعالى ـ كما أفهم الحديث ـ أنَّ الوعيد فيه إنَّما هو فيمن ليس له أي قصد أخروي، لأنَّه جاء بهذا الحصر الحاسم: «**لا يتعلَّمه إلَّا ليصيب به عَرَضًا من الدنيا**». ومعنى هذا: أنَّ من قصد الآخرة بعلمه، وأراد معها شيئًا من الدنيا، فلا يتناوله الوعيدُ المذكور، شأنُه شأن الحاج الَّذي يقصد إلى الحج، ويقصد بجواره شيئًا من التجارة، وقد تحرَّج من ذلك بعض الصحابة فنزل قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٨].

فمدار الحكم على المقصد الأساسي: ما هو؟ الآخرة أم الدنيا؟ على أنَّهم قالوا: فرق بين من يأخذ الدنيا ليتفرَّغ لعمل الآخرة، وبين من يعمل عمل الآخرة ليأخذ الدنيا. فتأمَّل فإنَّه موضع الزلل[١].

والحديث إنَّما يذمُّ من قصدَ بعلمه الدنيا، لا من جاءته الدنيا بغير هذا القصد، وإنَّما ذمَّ القرآن من ﴿طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النازعات: ٣٧، ٣٨].

وذمَّ أيضًا منْ وصفه الله بقوله: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [النجم: ٢٩]، وكذلك: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ مقابل: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩].

= في المقدمة (٢٥٢)، وابن حبان في العلم (٧٨)، وصحَّح النووي إسناد أبي داود في رياض الصالحين (١٣٩١).

(١) مرقاة المفاتيح شرح المشكاة (٣٠٥/١)، نشر دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

QaradawiBooks.com

فالدنيا ليســت مذمومة لذاتها، كيف وقد كان كثير من العلماء الكبار أغنياء، مثل الليثِ بن ســعد، وأبــي حنيفة وغيرهما؟ بــل كان في كبار الصحابة أغنياء ذوو ثروات طائلة، مثل عبد الرحمٰن بن عوف، وعثمان بن عفان، وطلحة والزبير، من العشرة المبشَّــرين بالجنة، بل كان في الأنبياء أغنياء مثل يوسف وداود وسليمان الذين آتاهم الله النبوة والملك معًا.

والدنيا إنَّما ذُمَّــت هنا، لأنَّها أُريدت بعمل الآخــرة، وعلم الآخرة، ولهذا قيَّده في الحديث بقوله: «**علم ممَّا يُبتغى به وجه الله تعالى**»، وهو علم الدين. وكيف تذمُّ الدنيا في حدِّ ذاتها وقد صحَّ في الحديث: «**نِعْمَ المال الصَّالح للرجل الصَّالح**»[(١)]؟

وكيف تذمُّ الدنيا لذاتها وهي مزرعة الآخرة؟

ولهذا قال العلَّامة القاري في «المرقاة»: «أفهمَ الحديث أنَّ من أخلص قصده فتعلَّم لله، لا يضرُّه حصولُ الدنيا له من غير قصدها بتعلُّمه. بل من شأن الإخلاص بالعلم، أن تأتيَ الدنيا لصاحبه راغمة، كما ورد: «**من كان همُّه الآخرة، جمعَ الله شــمله، وجعل غناه في قلبــه، وتأتيه الدنيا وهي راغمة**»[(٢)]»[(٣)].

ومن المعــروف أنَّ معظم طلاب العلم في عصرنــا، لا يتَّجهون إلى العلم بنيَّة ســابقة، ورغبة مُبيَّتة، بل يُوجِّههم إليه ـ في صغرهم ـ آباؤهم

(١) رواه أحمد (١٧٧٦٣)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والحاكم في البيوع (٢/٢)، وصحَّحه على شرط مســلم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في تخريج مشكلة الفقر (١٩)، عن عمرو بن العاص.

(٢) رواه أحمد (٢١٥٩٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. وابن ماجه في الزهد (٤١٠٥)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٥٩٠)، عن زيد بن ثابت.

(٣) المرقاة شرح المشكاة (٣٠٥/١).

QaradawiBooks.com

وأولياء أمورهـم، أو يوجِّهُهم إليه ـ رغمًا عنهـم ـ مجموع درجاتهم في بعض المواد أو كلها، أو تُوجِّههم ظـروفٌ خاصة بهم مثل ألَّا يكون في البلـد إلَّا لون مُعيَّن من الدراسـة يفرض عليهم، رضوا أم سـخطوا. ثم لا يلبثون إذا أدركوا ونضجوا أن يجدوا أنفسهم في معهد دينيٍّ، أو مدرسة شـرعيَّة، ولو خُيِّر اليوم ما اختار هذا الطريق فهذه دراسـة بلا نيَّة، لأنَّ صاحبها أُجبر عليها، ولم يكن له حقُّ الاختيار، وإنَّما النيَّة مع الاختيار.

وينبغي لمن وضعته الأقدار في هذا الموضع من تعلُّم الدين ودراسة علوم الشـريعة، أن يحاول من جديد إنشـاء نيَّة صالحة، ورغبة صادقة، وسيجدُ من العلم الَّذي يعيش في ظلاله ـ علم القرآن والسُّنَّة ـ وصحبة أهل الخير في سَـيْرهم، ما يُعينه على تصحيح النيَّة، وتجريد الإرادة لله جلَّ شأنه.

وقد رووا عن مجاهد قال: طلبنا هذا العلـم وما لنا فيه كبير نيَّة، ثم رزق الله النيَّة[١].

وعن الحسن قال: لقد طلب أقوام العلم ما أرادوا به الله ولا ما عنده. قال: فما زال بهم العلم حتَّى أرادوا به الله وما عنده[٢].

وعن الثوري قال: طلبنا العلم للدنيا، فجرَّنا إلى الآخرة[٣].

وعن مَعْمَر قال: إنَّ الرجل ليطلـب العلم لغير الله، فيأبى عليه العلم حتَّى يكون لله[٤].

(١) رواه الدارمي في المقدمة (٣٧١).
(٢) المصدر السابق (٣٧٢).
(٣) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٣٨١).
(٤) رواه عبد الرزاق في جامع معمر (٢٠٤٧٥).

QaradawiBooks.com

وعَلَّق الغزاليُّ على هـذا الأثر وأمثاله بأنَّ هـذا لا ينطبق على علم الخلافيَّات في الفقه، أو الجدل في الكلام، بل على التفسير والحديث؛ لما لهما من صلة بالله واليوم الآخر، ولما لكلام الله وكلام رسوله من أثر. يمكن أن ينتهيَ بصاحبه إلى الإخلاص ورجاء الآخرة، وما عند الله ﷻ[١].

استمرار التعلم:

والعلم بحرٌ لا قرار له، ولا شطآن له، وكلَّما تعمَّق طالبه فيه، تفتَّحت له فيه أبواب جديدة، وتبيَّنت له معالم كانت خافية، وتحتاج إلى مزيد بحث ومزيدِ تحقيق.

من أجل هذا كان الواجب على حامل العلم أن ينشد الزيادة منه على الدوام، وأن يستمرَّ في طلبه ما عاش، فالعلم يحتاج دومًا إلى تجديد ونماء.

وليس بعد أمرِ الله لرسوله بيان: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وقد قصَّ علينا القرآن، وقصَّ علينا الرسول ﷺ، قصَّة موسى عليه السلام في طلبه علمَ ما لم يعلم، عند عبد الله الخضِر عليه السلام، ولذا قال قتادة: لو كان أحد يكتفي من العلم بشيءٍ لاكتفى موسى عليه السلام، ولكنَّه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦][٢].

ولا غرو أن شاع بين المسلمين هذه الحكمة: اطلب العلم من المهد إلى اللحد. وحكمة أخرى تقول: لا يزال المرء عالمًا ما طلب العلم، فإذا ظن أنَّه علم فقد جهل[٣].

---

(١) الإحياء (٥٦/١).

(٢) جامع بيان العلم (٦١٤).

(٣) رواه الدينوري في المجالسة (٣٠٨)، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، نشر دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٩هـ. وهو من كلام ابن المبارك. وليس حديثًا كما ظنَّ بعض الناس.

QaradawiBooks.com

وقال ابن عباس: منهومان لا تنقضـي نهمتهما: طالب علم، وطالب دنيا[١]. وقيل لابن المبارك: إلى متى تطلب العلم؟ قال: حتَّى الممات إن شاء الله[٢].

وسئل أبو عمرو بن العلاء: حتَّى متى يحسن بالمرء أن يتعلَّم؟ فقال: ما دامت تحسن به الحياة[٣]!

وسـئل سـفيان بن عيينة: مَنْ أحوج الناس إلى طلـب العلم؟ قال: أعلمهم؛ لأنَّ الخطأ منه أقبح[٤]!

وقيل للمأمون: أيحسن بالشيخ أن يتعلَّم؟ فقال: إن كان الجهل يعيبه فالتعلُّم يحسن به[٥].

وقال مالك بـن أنس: لا ينبغي لأحـدٍ يكون عنده العلـم أن يترك التعلُّم[٦].

هذا هو مسْـلك المسـلم: حرصٌ على زيادة المعرفة، واستمرارٌ في طلب العلم، لا يشبع منه، ولا يرغب عنه، ولا يحول دون طلبه كِبَر سنٍّ، ولا عِظَم قدر، حتَّى الممات.

وكان سلف الأمة حريصين على ألَّا يمرَّ يوم دون أن يكتبوا فيه شيئًا من العلم، كثُر أو قلَّ، وإلَّا عدُّوا هذا اليوم ضياعًا وغبنًا.

---

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٥٨١).
(٢) المصدر السابق (٥٨٦).
(٣) المصدر السابق (٥٨٨).
(٤) المصدر السابق (٥٨٩).
(٥) المصدر السابق (٥٩٠).
(٦) المصدر السابق (٥٧٩).

QaradawiBooks.com

وفي هذا روي الأثر: «إذا أتى عليَّ يوم لم أزدد فيه علمًا يقرِّبني من الله ﷻ فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم».

قال ابن القيم: وقد رُفع هذا إلى رسول الله ﷺ، ورفعُه إليه باطل، وحسبه أن يصل إلى واحد من الصحابة أو التابعين[١].

وفي مثله قال القائل:

إذا مرَّ بي يومٌ ولم أَسْتَفِدْ هُدًى ولم أَكْتَسِبْ علمًا فما هو من عُمْرِي[٢]!

وخطب عليٌّ رضي الله عنه خطبةً قال فيها: واعلموا أنَّ النَّاس أبناء ما يحسنون، وقدر كلِّ امرئٍ ما يُحْسِن، فتكلَّموا في العلم تتبيَّن أقداركم.

قال الإمام ابن عبد البرِّ: ويقال: إنَّ قول علي: «قيمة كل امرئ ما يُحسنه» لم يسبقه إليه أحد.

وقالوا: ليس كلمةٌ أحضَّ على طلب العلم منها.

قالوا: ولا كلمة أضر بالعلم وبالعلماء والمتعلِّمين من قول القائل: ما ترك الأول للآخر شيئًا[٣].

الصبر على متاعب الطلب:

ومن أدب المتعلِّم في الإسلام: أن يُوطِّن نفسه على احتمال المتاعب، ومواصلة عناء النهار بسهر الليل، والصبر على مَشاقِّ الارتحال في طلب العلم، ولا يخفى على طالب علم ما ذكره القرآن العظيم،

(١) مفتاح دار السعادة (٣٤١/١، ٣٤٢).

(٢) البيت لأبي الفتح البستي، بلفظ: ولم أصطنع يدًا، بدل: ولم أستفد هدى. انظر ديوانه صـ ٨٤، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

(٣) جامع بيان العلم (٦٠٨).

QaradawiBooks.com

وما نَوَّه به الرسول الكريم من أمر موسى كليم الله، ومُصْطفاه عليه السلام، وارتحاله في طلب العلم عند عبد الله المعروف بـ(الخضِر) عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠]، وقطع هو وفتاه ما قطَعَا من مفاوز، ومسافات لا يعلم طولها إلَّا الله تعالى، كان من أثرها ما عبَّر عنه موسى بقوله لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢][1]. وكان ما كان من عودتهما مرَّة أخرى قافلين إلى الموضع المنشود للقاء.

وقال ابن عباس: طلبت العلم، فلم أجده أكثر منه في الأنصار، فكنت آتي الرجل فأسأل عنه: فيقال لي: نائم، فأتوسَّد ردائي، ثم أضْطجع حتَّى يخرج إلى الظهر، فيقول: متى كنت هاهنا يا ابنَ عمِّ رسول الله، فأقول: منذ زمن طويل، فيقول: بئسما صنعت، هلَّا أعلمتني؟ فأقول: أردتُ أن تخرج إليَّ وقد قضيت حاجتك[2].

وكان ابن عباس يقول: ذللت طالبًا، فعززت مطلوبًا[3].

وذكر ابن عبد البَرِّ وغيره: أنَّ أبا أيوب الأنصاري رحل من المدينة إلى مصر ليسمع من عقبةَ بن عامر حديثًا سمعه من النبيِّ ﷺ في ستر المسلم على المسلم، فلمَّا سمعه منه أتى أبو أيوب راحلته فركبها وانصرف إلى المدينة، وما حلَّ رَحْله[4].

---

(١) القصة في سورة الكهف. وجاءت في الحديث المتَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (٧٤)، ومسلم في الفضائل (٢٣٨٠)، عن ابن عباس.

(٢) رواه الدارمي في المقدمة (٥٨٥).

(٣) جامع بيان العلم (٧٥٦).

(٤) رواه أحمد (١٧٤٥٤)، وقال مخرِّجوه: المرفوع منه صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه. وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٥٦٧).

QaradawiBooks.com

ونحو هذا حدث لجابر بن عبد الله الأنصاري، فقد رحل مسيرةَ شهر إلى عبد الله بن أُنيس في حديث واحد[١].

وقال سعيد بن المسيب: إن كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد[٢].

وحدَّث الشعبي رجلًا بحديث، ثم قال له: خذها بغير شيء، وقد كان الرجل يرحل فيما دونها إلى المدينة[٣]. وكان الشعبيُّ بالكوفة بالعراق.

وقال الشعبي: لو أنَّ رجلًا سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن ليسمع كلمة حكمة، ما رأيت أنَّ سفره قد ضاع[٤].

ورحلات المسلمين وبخاصَّة علماء الحديث في طلب العلم لا يعرف التاريخ لها نظيرًا، ومَن طالَع رحلات الأئمة مثل الشافعي، وابن حنبل، والبخاري، ومسلم وغيرهم، عرف مبلغ ما عاناه هؤلاء الفحول في طلب العلم.

لقد بذلوا في طلبه النومَ بالليل والراحةَ بالنهار، وتحمَّلوا الشظف والفقر في سبيله غير ضَجِرين ولا متبرِّمين. فقد تلقَّوا عن شيوخهم هذه الحكمة: لا يُنال العلم براحة الجسم.

وكان الإمام مالك يقول: إنَّ هذا الأمر لن يُنال حتَّى يذاق فيه طعم الفقر، وذكر ما نزل بربيعة من الفقر في طلب العلم، حتَّى باع خشبَ

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٩٧٠)، وعلَّقه في صحيحه قبل الحديث (٧٨)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٦٠).

(٢) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٥٦٩).

(٣) رواه البخاري في النكاح (٥٠٨٣)، ومسلم في الإيمان (١٥٤).

(٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣١٣/٤).

غير مرخصة للطباعة
نسخة عليه
QaradawiBooks.com

سـقفِ بيته، وحتى كان يأكل ما يلقى على مزابـل المدينة من الزبيب وعصارة التمر!

وقال شعبة لأصحابه: ليبلغ الشاهدُ منكم الغائب: من ألحَّ في طلب العلم ـ أو قال في طلب الحديث ـ أورثه الفقر.

وقال سُحنون: لا يصلح العلم لمن يأكل حتَّى يشبع[١].

وليس المهم في طلب العلـم محض تعب البدن، بل أهم منه تفريغ القلب له بالتقليل من شواغل الدنيا الماديَّة، وصوارف الحياة الاجتماعيَّة، فإنَّ العلائق شاغلة وصارفة. وقد قال تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب: ٤].

ومهما توزَّعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق، ولذلك قالوا: العلم لا يعطيك بعضه حتَّى تعطيَه كُلَّك، فإذا أعطيتَـه كلك فأنت من إعطائه إيَّاك بعضه على خطر[٢].

قال الغزالي: والفكرة المتوزِّعة على أمور متفرِّقة كجدول تفرَّق ماؤه، فنشَّـفت الأرض بعضه، واختطف الهواء بعضه، فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزدرع[٣].

فهذه نظرتهم للعلـم، وهذه كانت حياتهم في طلبـه. وكانوا قريري العين بها، فإنَّ لذة معرفة الحقيقة تُنسي مشقَّة الحصول عليها. وقد قيل

(١) انظر: هذه الآثار في جامع بيان العلم (٥٩٦ ـ ٦٠٠)، باب الحض على استدامة الطلب والصبر على الأذى والنصب.

(٢) إحياء علوم الدين (٥٠/١). والمزدرع: موضع الزرع.

(٣) المصدر السابق (٥٠/١).

QaradawiBooks.com

لأحد العلماء: فيم لذَّتك؟ فأجاب: في حُجَّة تتبختر اتِّضاحًا، وفي شبهة تتضاءل افتضاحًا!

ومن الصبر المحمود، والمطلوب لطالب العلم: أن يصبر على أستاذه، ويحتمل شدَّته إن كان شديدًا، وغضبَه إن كان غضوبًا، ويحترم صمته فيما لا يُحبُّ الكلام فيه.

وخير مثل لذلك هو صبر موسى على الخضر عليهما السلام، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ۝ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٦٦ ـ ٧٠].

فهذا صبرٌ أشدُّ من الصبر على نَصَب الأسفار، ومتاعب الفقر والارتحال، ولهذا صبر موسى على النَّصب في سفره الطويل، ولم يطل صبره على هذا الأخير، وقال له الخضر: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨].

توقير المعلم وإكرامه:

ومن أدب المتعلِّم الَّذي جاءت به السُّنَّة النبويَّة: توقير المعلِّم، وإعطاؤه ما يستحق من التكريم والإكبار، فإنَّ المعلِّم لتلميذه بمنزلة الأب لولده. بل قال يحيى بن معاذ رحمه الله: العلماء أرحم بأمة مُحَمَّد ﷺ من آبائهم وأمهاتهم. قيل له: وكيف ذلك؟ قال: لأنَّ آباءهم وأمَّهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا، والعلماء يحفظونهم من نار الآخرة.

وبهذا صار حق المعلِّم ـ كما يقول الغزالي ـ أعظم من حقِّ الوالديْن، فإنَّ الوالد سببُ الوجود الحاضر، والحياة الفانية، والمعلِّم سبب الحياة

QaradawiBooks.com

الباقية. ولولا المعلِّم لانساق ما حصل من جهة الأب إلى الهلاك الدائم. وإنَّما المعلِّم هو المفيد للحياة الأخرويَّـة، أعني معلِّم علوم الآخرة، أو علوم الدنيا على قصد الآخرة[١].

وفي المفاضلة بين المعلِّم والأب يقول الشاعر:

فهذا مُربِّي الرُّوحِ والرُّوحُ جوهرٌ وذاك مربِّي الجَسْـمِ والجِسْمُ كالصَّدَفْ[٢]!

وقال الحسن: لولا العلماء ـ أي المعلِّمون ـ لصار الناس مثل البهائم! أي: أنَّهم بالتعليم يخرجونهم من حضيض البهيميَّة إلى أفق الإنسانيَّة.

ومن أجل هـذا جاءت الأحاديث بتوقير العلمـاء، وإكرامهم حتَّى بعد موتهم.

وعن جابر بن عبد الله، أنَّ النبيَّ ﷺ، كان يجمـع بين الرجلين من قتلى أحد ـ يعني في القبر ـ ثم يقول: «**أيُّهمـا أكثر أخذًا للقرآن؟**». فإذا أشـير إلى أحدهما قدَّمه في اللحد[٣]. وفي هذا التقديـم رمز لتكريمه لفضل ما معه من قرآن أكثر.

وعن أبي موسى، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ من إجلال الله: إكرام ذي الشيبة المسـلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه، ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط**»[٤].

---

(١) إحياء علوم الدين (٥٥/١).

(٢) ذكره بلا نسبة الميهي الشيبيني على شرح الستين المسألة من الفروض الواجبة على مذهب الشافعي للرملي صـ ٥، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) رواه البخاري في الجنائز (١٣٤٣).

(٤) رواه أبو داود في الأدب (٤٨٤٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٥٧)، وحسَّن إسناده النووي في رياض الصالحين (٣٥٤)، والعراقي في تخريج الإحياء صـ ٦٥٥، وابن حجر في التلخيص الحبير (٢٤٠/٢)، وحسَّنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٧٤).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وعن عبادة بن الصامت، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**ليس من أمَّتي من لم يُجلَّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا**»[(١)]. أي: يعرف له حقَّه.

وحسبنا أن نذكُر ونذكِّر هنا بقصة نبيِّ الله وكليمه موسى بن عمران الَّذي اصْطفاه الله برسالاته وبكلامه، وآتاه التوراة فيها موعظةٌ وتفصيلٌ لكلِّ شيء في زمنه. فلمَّا أعلمه الله بما عند الخضر من علم ليس عنده، رحل موسى إليه كما أشرنا إلى ذلك من قبل، واستعْذب العذاب في سبيل ملاقاته والاستفادة منه، فلمَّا وجده، قال له موسى في أدب التلميذ وتواضع المتعلِّم: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]. بهذه الصيغة الحاسمة: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ فهو اتِّباع وليس رفقة أو مصاحبة، وهو يستأذنه في هذا، لأنَّ المعلِّم المتطوِّع هو صاحب الحقِّ في انتقاء طلبته: يقبل منْ يشاء، ويرفض من يريد، ولا معقِّب عليه. هذا على الرُّغم من فضل موسى عليه بيقين. فهو قد اختُلف في نبوَّته. على حين موسى من أولي العزم من الرسل، ويكفي قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وقال ابن عباس: والله إن كنت لآتي الرجل منهم، ـ أي: الأنصار ـ فيقال: هو نائم. فلو شئت أن يُوْقَظ لي، فأدَعُه حتَّى يخرج، لأستطيب بذلك حديثه[(٢)].

---

(١) رواه أحمد (٢٢٧٥٥)، وقال مخرِّجوه: صحيح لغيره دون قوله: «ويعرف لعالمنا». والطحاوي في مشكل الآثار (٣٦٥/٣)، والحاكم في العلم (١٢٣/١)، وقال: ومالك بن خير الزيادي مصري ثقة، وأبو قبيل تابعي كبير. وقال الذهبي: مالك ثقة مصري. وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٦٤/١)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٥٤٤٣).

(٢) رواه الدارمي في المقدمة (٥٨٦).

QaradawiBooks.com

وعن الشَّعبي قال: صلَّى زيد بن ثابت على جنازة، ثم قُرِّبت له بغلة ليركبها، فجـاء ابن عباس، فأخذ بركابه توقيـرًا وتعظيمًا لعلمه وفضله، فقال له زيد: خَلِّ عنك يا ابن عمِّ رسول الله. فقال ابن عباس: هكذا نفعل بالعلماء والكبراء[١].

وعن الزُّهري قال: كنت آتي باب عروة فأجلس بالباب، ولو شئت أن أدخل لدخلت، ولكن إجلالًا له[٢].

وعن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه قـال: إنَّ من حقِّ العالم ألَّا تُكثر عليه بالسؤال ولا تُعنِّته في الجواب، وألَّا تُلحَّ عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ـ أي: تريد أن تستوقفه ـ ولا تُفشـينَّ له سرًّا، ولا تغتابنَّ عنده أحدًا، ولا تطلبنَّ عثرته، وإن زلَّ قبلت معذرته، وعليك أن تُوقِّره وتُعظِّمه لله، ما دام يحفظ أمر الله، ولا تجلس أمامـه ـ أي: تدير له ظهرك ـ وإن كانت له حاجة سبقتَ القوم إلى خدمته[٣].

ومن توقير المتعلِّم لمعلِّمه: أن يُحْسـن الصمتَ فـي موضعِه، كما يُحسن الكلام أو السؤال في موضعه.

قال الحسن بن علي لابنه: يا بني، إذا جالستَ العلماء فكن على أن تسـمع أحرص منك على أن تقول، وتعلَّم حُسْـنَ الاستماع، كما تتعلَّم حُسْنَ الصمت، ولا تقطع على أحدٍ حديثًا وإن طال حتَّى يمسك[٤].

---

(١) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (٤٢٣/٣)، وصحَّحه على شرط مسلم. والبيهقي في المدخل إلى السنن (٩٣).

(٢) رواه الدارمي في المقدمة (٥٨٨).

(٣) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٨٤١)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١٩٧/٢).

(٤) جامع بيان العلم (٨٤٦).

QaradawiBooks.com

وقال شعبة: كل من سمعت منه حديثًا، فأنا له عبد[١]!

وهذه الكلمة قد شاع معناها عند المسلمين حتَّى جَرَت مجرى المثل، وهي قولُهم: «من علَّمني حرفًا صرت له عبدًا». وهذه غاية في التكريم للعلماء والمعلِّمين، لم ترقَ إليها أمَّةٌ من الأمم.

ولم يشع بيت من الشعر في عصرنا كما شاع بيت شوقي في مطلع قصيدته الشهيرة في تكريم المعلِّم:

قُمْ لِلْمُعَلِّمِ وفِّهِ التَّبْجِيلَا كَادَ المُعَلِّمُ أَنْ يَكُونَ رَسُولَا!
أرأيتَ أَعْظَمَ أَوْ أَجَلَّ مِنَ الَّذِي يَبْنِي وَيُنْشِئُ أَنْفُسًا وعُقُولَا[٢]؟!

حسن السؤال:

وليس من توقير العالم أو المعلِّم ترك سؤاله فيما يُشكل عليه حياءً منه، فإنَّ هذا ليس من الحياء الشرعي المحمود، الَّذي هو من الإيمان، ولا يأتي إلَّا بخير، وإنَّما هو ضعف ومهانة، ولهذا قال مجاهد: لا يتعلَّم العلم مستحيٍ ولا مستكبر[٣].

وقالت عائشة رضي الله عنها: نِعْمَ النساء نساء الأنصار، لم يمنعهنَّ الحياء أن يتَفقَّهن في الدين[٤].

---

(١) جامع بيان العلم (٨٢٨).

(٢) أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (١٨٠/١)، نشر دار العودة، بيروت، ١٩٨٨م.

(٣) علَّقه البخاري في العلم، باب الحياء في العلم (٣٨/١) بصيغة الجزم، ووصله أبو نعيم في حلية الأولياء (٢٨٧/٣)، وقال ابن حجر في فتح الباري (٢٢٩/١): إسناد صحيح على شرط المصنف (أي البخاري).

(٤) ذكره البخاري تعليقًا بصيغة الجزم قبل حديث رقم (١٣٠)، ووصله مسلم في الحيض (٣٣٢)، وأبو داود في الطهارة (٣١٤).

QaradawiBooks.com

وروى البخـاري، عن أمِّ سـلمة رضي الله عنها قالـت: جاءت أمُّ سُـليم إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسـول الله، إنَّ الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة من غسـل إذا احتلمت؟ (تعني إذا رأت في منامها أنَّ رجلها يجامعها). فقال النبي ﷺ: «**إذا رأت الماء**».

وهنا نجد أمَّ سـلمة تغطِّي وجهها حياءً، وعائشة تقول لها ـ كما في صحيح مسلم ـ فَضَحت النساء[1]!

ومَنْ غلبه الحياء في أمرٍ ما، فليدع غيره ليسأل له عمَّا يريد، كما فعل عليُّ بن أبي طالب، حين استحيا أن يسأل النبي ﷺ عن المذي، لمكان رسول الله ﷺ، من ابنته التي هي زوجته، فأمر المقداد وعمارًا، فسألَا له رسول الله ﷺ عن ذلك[2].

ويقول الإمام ابن شهاب الزهري: العلم خزائن ومفاتيحها السؤال.

يعني: أنَّ الَّذي يستخرج ما في صدور العلماء من العلم هو مساءلتهم. وفي هذا فائدةٌ للعالم نفسه، ليظهر المخبوء من علمه ويحيا وينتشر، وفائدةٌ للمتعلِّم، ليعرف ما يجهل، ويؤكِّد ما يعلم، ويستوثق ممَّا يستريب فيه.

وهذا شأنُ الطالب النابه، لا يقرأ أو يسمع إلَّا ليعي ويفهم، وإلَّا سأل وراجع.

وروى البخاري، عن ابن أبي مُلَيْكة: أنَّ عائشة كانت لا تسمع شيئًا لا تعرفه إلَّا راجعت فيه حتَّى تعرفه[3].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٣٠)، ومسلم في الحيض (٣١٣).
(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٣٢)، ومسلم في الحيض (٣٠٣).
(٣) رواه البخاري في العلم (١٠٣).

QaradawiBooks.com

وقد سأل كثير من الصحابة عن أمور لهم لم يستبِن لهم المراد منها، حتَّى أجيبوا عنها، كسؤالهم عن آية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]. قائلين: وأيُّنا لم يَظلم نفسه؟ فأجيبوا: أنَّ المراد بالظلم في الآية الشرك؛ لقوله تعالى على لسان لقمان: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣][(١)].

وأمثال ذلك كثير، ومنْ لم يسأل أضاع على نفسه علمًا كثيرًا. يقول الشاعر:

إِذَا كُنْتَ لَا تَدْرِي وَلَمْ تَكُ بِالَّذِي يُسائلُ مَنْ يَدْرِي، فكَيْفَ إِذَنْ تَدْرِي[(٢)]؟!

وقال عمر: من علم فلْيُعلِّم، ومن لم يَعْلَم فلْيَسأل العلماء[(٣)].

* * *

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (٣٢)، ومسلم (١٢٤)، كلاهما في الإيمان، عن ابن مسعود.

(٢) البيت أنشده الإمام الشافعي، كما في مناقب الشافعي للبيهقي (١٠٠/٢)، تحقيق السيد أحمد صقر، نشر مكتبة دار التراث، القاهرة، ط١، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.

(٣) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٥٣٢).

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

التعليم ومبادئُه وقيَمُه

بعد أن بيَّنت السُّنَّة النبويَّة فضل التعلُّم وآدابه وحدودَه، بيَّنت فضل التعليم ومنزلته وما يجب له من شروط، وما ينبغي له من آداب، وغَالتْ بالمعلم ورفعته مكانًا عليًّا.

يقول ﷺ: «**خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه**»(١).

كما غالتْ بالقيم التعليميَّة أو التربويَّة الأصيلة التي يحسبها الناس من ثمار هذا العصر، أو من السلع المستوردة من أوربا وأمريكا، شأن بقية السلع المادية الأخرى.

وسنتحدَّثُ في هذا الفصل عن أهم هذه القيم أو المبادئ التي فصَّلتها السُّنَّة، وعُنِيَ بها الصحابة وسلف الأمة، عسى أن تعود للأجيال الجديدة الثقة بدينها وتراثها، ويعرفوا من حياتهم وفكرهم ما هو أصيلٌ وما هو دخيل، وعسى أن يسيروا على ما سار عليه أوائلهم من النهوض بالعلم، وإعلاء صرح التربية على تقوى من الله ورضوان.

نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي، وَنَفْعَلُ مِثْلَمَا فَعَلُوا(٢)

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٢٧)، عن عثمان بن عفان.

(٢) البيت لمعن بن أبي أوس المزني، كما في معجم الشعراء للمرزباني صـ ٤٠٠، تحقيق الأستاذ الدكتور ف. كرنكو، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م، وعزاه الخطيب =

QaradawiBooks.com

١ ـ العناية بالمعلِّم والتنويهُ بقدره:

وأولى هذه القيم الأصيلة: العناية بشأن المعلِّم، والإشادة بمنزلته والتنويه بمكانته، فهو يقوم مقام رسول الله ﷺ في هداية الخلق إلى الحق وتعليمهم ما ينفعهم في أولاهم وأخراهم.

وقد تحدَّثنا عن وجوب توقير المعلِّم وإكرامه في فصل «أدب التعلم».

إنَّ المعلِّم هو العنصر الفعَّال في عملية التعليم، فعلى قدر ما يحمل في رأسه من علم وفكر، وما يحمل في قلبه من إيمان برسالته، ومحبَّة لتلاميذه، وما أُوتي من موهبة وخبرة في حسن طريقة التعليم، يكون نجاحه وأثره في أبنائه وطلابه.

وكثيرًا ما كان المعلِّم الصَّالح عِوضًا عن ضعف المنهج وضعف الكتاب، وكثيرًا ما كان هو المنهج والكتاب معًا.

ومن هنا كانت عنايةُ النبيِّ ﷺ بالمعلِّم، وتنويهه برسالته، وما لها من شأن عند الله، وعند المخلوقات كلها؛ فهو مشغول بمهمَّته، وهي مشغولة بالاستغفار له.

يقول رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله وملائكته، وأهل السماوات والأرض حتَّى النملة في جحرها، وحتى الحوت، ليصلُّون على معلمي الناس الخير**»[(١)].

وأيُّ فضل أعظم من أن تشتغل هذه المخلوقات المُبرَّأة من الذنوب ـ في السماء والأرض ـ بالصلاة والدعاء لمن يعلِّم الناس الخير.

= في تاريخ بغداد لامرئ القيس (٤٧٣/٢)، وعزاه للمتوكل الليثي أبو تمام في الحماسة (٣٨٥/٢)، تحقيق عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٩٨١م.

(١) سبق تخريجه صـ١٦، وفيه: «فضل العالم على العابد...».

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

ويقول ﷺ: «**لا حسـدَ إلَّا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسلَّطه على هلَكَته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلِّمها**»(١).

والحسـد هنا معناه: الغبطة. وكيف لا يُغبطُ الغني الشـاكر، والعالم المعلِّم؟! بل جاء في الحديث أنَّ الصدقة بتعليم العلم أفضل من الصدقة بإيتاء المال. فعن أبي هريرة، أنَّ النبي ﷺ قال: «**أفضل الصدقة أن يتعلَّم المرء علمًا ثم يعلِّمه أخاه المسلم**»(٢).

ويكفي المعلِّم فضلًا أنَّ له أجرًا بمقدار من ينتفع بعلمه، ويهتدي به من الناس، قَرُبوا أو بعدوا، قلُّوا أو كثُروا.

يقول ﷺ: «**من دلَّ على خير فله مثل أجر فاعله**»(٣).

ويقول: «**من دعا إلى هـدى كان له من الأجر مثـل أجور من تبعه، لا ينقُصُ ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**»(٤).

وإذا كان ﷺ يقول: «**لأنْ يهديَ الله بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من حمر النَّعَم**»(٥). فكيف بمن هدى الله به أفرادًا وجماعات يؤْجر كلَّما أجروا؟

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخـاري في العلم (٧٣)، ومسـلم فـي صلاة المسـافرين (٨١٦)، عن ابن مسعود.

(٢) رواه ابن ماجه في المقدمة (٢٤٣)، وحسن إسـناده المنذري في الترغيب والترهيب (١٢٠)، وخالفه البوصيري في مصباح الزجاجة (٣٥/١) فقال: هذا إسناد ضعيف لضعف إسحاق بن إبراهيم والحسن لم يسمع من أبي هريرة. وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٤٧).

(٣) رواه مسلم في الإمارة (١٨٩٣)، وأحمد (١٧٠٨٤)، عن أبي مسعود الأنصاري.

(٤) رواه مسلم في العلم (٢٦٧٤)، وأحمد (٩١٦٠)، عن أبي هريرة.

(٥) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسـير (٢٩٤٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٠٦)، عن سهل بن سعد.

QaradawiBooks.com

وروى أبو موسى عنه ﷺ قال: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمَثَل غيث أصاب أرضًا، فكان منها طائفة طيِّبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا منها وسقوا وزرعوا. وأصاب طائفة أخرى إنَّما هي قيعان، لا تُمسك ماءً ولا تُنبت كلأ. فذلك مثل من فَقُه في دين الله تعالى، ونفعه ما بعثني الله به، فعلِم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الَّذي أرسلت به**»[(١)].

والحديث يُشبِّه علمَ النبوة بالغيث، بجامع الإحياء في كل منهما، فالغيث يُحيي الأرض بعد موتها، والعلم يحيي العقول والقلوب بعد جهلها.

وشأن الناس مع العلم والهدى كشأن الأرض مع الغيث والمطر.

فهناك أرض طيِّبة تشرب الماء فتحيا به، وتُنبت الكلأ والعشبَ الكثير، ويشبهها من حَمَلة العلم من جمَعوا بين الرواية والدراية من العلماء الدعاة المعلِّمين، فهم ينتفعون وينفعون.

وهناك أرض تحفظ الماء، كأنَّما هي أحواض مبنية لمنع الماء أن يتسرَّب ويذهب سُدى، فهي تمسكه ليشرب منه من يشرب، أو يسقي ويزرع. ويشبهها من أهل العلم الرواة الحَفظَة النقلة، الذين يحملون العلم لغيرهم، وإن لم يكن لهم فيه كبير فهم أو استنباط.

وأرض ثالثة سبخة رديئة، لا تنتفع بالماء لنفسها، ولا تمسكه لغيرها. ويشبهها أولئك الذين أعرضوا عن العلم والهدى، فلا ينتفعون

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (٧٩)، ومسلم في الفضائل (٢٢٨٢).

QaradawiBooks.com

ولا ينفعون، ولا يحفظون ولا يفهمون، فـلا هم في أهل الرواية ولا في أهل الدراية[١].

فالعالم العامل المعلِّم هو وارث النبوة حقًّا.

وقد روي عن المسيح عليه السلام قوله: «من علم وعمل وعلَّم فذلك يدعى عظيمًا في ملكوت السماوات»[٢].

وكان السلف إنَّما يسمُّون الرجل (ربانيًّا) إذا علم وعمل بعلمه وعلَّم غيره، إشـارةً إلى قول الله تعالـى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

وناهي المعلِّم شـرفًا وفضلًا أنَّ رسـول الله وخيرته من خلقه سمَّى نفسه «معلِّمًا».

فعن عبد الله بن عمرو، أنَّ رسـول الله ﷺ مرَّ بمجلسين في مسجده: أحد المجلسـين يدعـون الله ويرغبـون إليـه، والآخر يتعلَّمـون الفقه ويعلِّمونه، قال: «**كِلا المجلسين على خير، وأحدهما أفضل من صاحبه، أمَّا هؤلاء فيدعون الله، ويرغبون إليه، فإن شاء أعطاهم، وإن شاء منعهم، وأمَّا هؤلاء فيتعلَّمـون الفقه والعلم، ويعلِّمـون الجاهل، فهؤلاء أفضل، وإنَّما بُعثتُ معلِّمًا، ثم جلس فيهم**»[٣].

وقد ضُعِّف سند هذا الحديث، ولكن يشهد له الحديث الصحيح الَّذي رواه مسلم: «**إنَّ الله لم يبعثني معنِّتًا ولا مُتعَنِّتًا، ولكن بعثني مُعلِّمًا مُيسِّرًا**»[٤].

---

(١) لابن القيم كلام جيد في هذا الحديث في كتابه: مفتاح دار السعادة (١٦٢/١ ـ ١٦٥) فليراجع.

(٢) إحياء علوم الدين (١٠/١).

(٣) رواه ابن ماجه في المقدمة (٢٢٩)، والدارمي في المقدمة (٣٦١)، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٤٤)، عن عبد الله بن عمرو.

(٤) رواه مسلم في الطلاق (١٤٧٨)، وأحمد (١٤٥١٦)، عن جابر بن عبد الله.

QaradawiBooks.com

بل يشهد له القرآن ذاتُه، فقد وصف الله تعالى نبيَّه ﷺ في أربع آيات بأنَّ من وظيفته الأساسية أن يعلِّم أمته الكتاب والحكمة[١].

غير مرخصة للطباعة

٢ ـ تكافل المجتمع في تعليم أبنائه:

وينبغي لمن علم علمًا أن يبدأ بتعليمه لأقرب الناس إليه، ثم منْ يليهم، ثم منْ بعدهم وهكذا، كما يبدأ في النفقة: «**ابدأ بمن تعول**»[٢].

وعن عليٍّ رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦]. قال: علِّموا أهليكم الخير[٣].

وقال تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

وفي الحديث: «**ما نَحَل والدٌ ولدَه نحْلًا أفضلَ من أدبٍ حسن**»[٤].

ويأتي بعد حقِّ الأهل والولد والأقارب حقُّ الجيران، وللجار في الإسلام حقٌّ أكيد على جاره أوصى به جبريل النبيَّ ﷺ، وأوصى به النبيُّ أصحابه، وما زال يوصيهم حتَّى ظنُّوا أنَّه سيورِّثه[٥].

---

(١) اثنتان منها في سورة البقرة، وواحدة في آل عمران، وأخرى في الجمعة.

(٢) سبق تخريجه صـ١٠٨.

(٣) رواه الحاكم في التفسير (٤٩٤/٢)، وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، موقوفًا.

(٤) رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١٦٧١٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. والترمذي في البر والصلة (١٩٥٢)، وقال: حديث غريب... وهذا عندي حديث مرسل. والحاكم في الأدب (٢٦٣/٤)، وصحح إسناده، وتعقبه الذهبي: بل مرسل ضعيف. عن جد أيوب بن موسى.

(٥) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١٥)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٢٥)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

وبعد الأهل والولد يأتي حق الخدم وإن كانوا رقيقًا، فينبغي لسيد البيت ألَّا يبخل بتعليمهم ما لهم وما عليهم؛ فقد أصبحوا جزءًا من الأسرة، إن أحسنوا فلأنفسهم ولها، وإن أساؤوا فعلى أنفسهم وعليها.

روى البخاري في باب تعليم الرجل أَمَته وأهلَه، حديث أبي موسى، أنَّ النبي ﷺ قال: «**ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدَّى حقَّ الله وحقَّ مواليه، ورجلٌ كانت عنده أمَة، فأدَّبها فأحسنَ تأديبها، وعلَّمها فأحسنَ تعليمها، ثم أعتقها فتزوَّجها، فله أجران**»[(١)].

والأجر الأول لصاحب الأمَة إنَّما هو على حُسن تأديبها وتعليمها، والأجر الثاني إعتاقها وتزوجها.

وقد انتهت هذه الوصايا النبويَّة المؤكدة ـ إلى جوار ما في القرآن ـ بأن جعلت كل مجموعة سكنيَّة ـ قرية من القرى أو حي من الأحياء ـ وحدة مترابطة متكافلة في السرَّاء والضرَّاء، في المجال المادي، وفي المجال المعنوي على السَّواء.

ففي المجال المادي أو الاقتصادي يأبى النبيُّ ﷺ أن يقبل في محيط أهل الإيمان من ينعم بالخير والرخاء لنفسه مغفلًا أمر جيرانه، فيقول: «**ليس بمؤمن** ـ وفي رواية: ليس منا ـ **من بات شبعان وجاره إلى جنْبه جائع وهو يعلم**»[(٢)].

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (٩٧)، ومسلم في الإيمان (١٥٤).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (١١٢)، وأبو يعلى (٢٦٩٩)، والطبراني (١٥٤/١٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٥٥٥): رجاله ثقات. وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٤٩)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

وفي المجال العقلي أو المعنوي، يفرض على الجيران الذين رُزقوا حظًّا من العلم، ألَّا يدعوا جيرانهم الذين لم يتح لهم أن يستنيروا بنور العلم، دون أن يُفقِّهوهم، ويؤدُّوا إليهم زكاة علمهم، كما يؤدُّون إليهم زكاة أموالهم.

وقد رُوِيتْ في ذلك قصة جديرة أن تسجَّل وتروى:

عن علقمة بن سعد بن عبد الرحمٰن بن أَبْزَى، عن أبيه، عن جده قال: خطب رسول الله ﷺ ذات يوم، فأثنى على طوائف من المسلمين خيرًا، ثم قال: «**ما بال أقوام لا يفقِّهون جيرانهم، ولا يعلِّمونهم، ولا يعظونهم، ولا يأمرونهم، ولا ينهونهم؟**

وما بال أقوام لا يتعلَّمون من جيرانهم، ولا يتفقَّهون ولا يتَّعظون.

والله ليعلِّمنَّ قومٌ جيرانَهم، ويفقهونَهم، ويعظونهم، ويأمرونهم وينهونهم، وليتعلَّمنَّ قومٌ من جيرانهم، ويتفقهون، ويتَّعظون، أو لأعاجلنَّهم العقوبة».

ثم نزل، فقال قوم: مَنْ ترونه عنى بهؤلاء؟ قال: الأشعريين، هم قوم فقهاء، ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب، فبلغ ذلك الأشعريين، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، ذكرت قومًا بخير، وذكرتنا بشر فما بالنا؟

فقال: «**ليعلمنَّ قوم جيرانهم، وليعظنَّهم، وليأمرُنَّهم، ولينهَوُنَّهم، وليتعلمنَّ قوم من جيرانهم، ويتَّعظون، ويتفقهون أو لأعاجلنَّهم العقوبة في الدنيا**». فقالوا: يا رسول الله أَنُفَطِّنُ غيرنا؟ فأعاد قولَه عليهم، فأعادوا قولهم: أَنُفَطِّنُ غيرنا؟ فقال ذلك أيضًا، فقالوا: أمهلنا سنة. فأمهلهم سنة

QaradawiBooks.com

ليفقِّهوهم، ويعلِّموهم، ويعظوهم ـ في نسخة: يفقهونهم، ويعلِّمونهم ويعظونهم ـ ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾ الآيات [المائدة: ٧٨][1].

ويعلِّق المرحوم الدكتور مصطفى السباعي على هذا الحديث، فيقول: «إنَّك لترى في هذا الحديث من الحقائق ما يجدر التنبيه إليها:

١ ـ فالرسول عليه السلام لم يُقر قومًا على الجهالة بجانب قوم متعلِّمين.

٢ ـ واعتبر بقاء الجاهلين على جهلهم وامتناع المتعلِّمين عن تعليمهم عصيانًا لأوامر الله وشريعته.

٣ ـ واعتبر ذلك أيضًا (عدوانًا) و(منكرًا) يوجبان اللعنةَ والعذاب.

٤ ـ وأعلن الحرب والعقوبة على الفريقين حتَّى يبادروا إلى التعليم والتعلُّم.

٥ ـ وأعطاهم لذلك مهْلة عام واحد للقضاء على آثار الجهالة فيما بينهم.

٦ ـ ولئن كانت الحادثة قد وردت بشأن الأشعريين العلماء وجيرانهم الجهلاء، فإنَّ الرسول أعلن ذلك المبدأ بصفة عامة، لا بخصوص الأشعريِّين وحدهم بدليل أنَّ الأشعريين لمَّا جاؤوا يسألونه عن سرِّ تخصيصهم بهذا الإنكار كما فهم الناس، لم يقل لهم: أنتم المرادون

(١) رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة (١١١٨) من طريق الطبراني، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٤٨): رواه الطبراني في الكبير، وفيه بكير بن معروف، قال البخاري: ارم به. ووثقه أحمد في رواية، وضعفه في أخرى. وقال ابن عدي: أرجو أنَّه لا بأس به. وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٩٧).

QaradawiBooks.com

بذلك، بل أعاد القول العام الَّذي سلف ثلاث مرات دون أن يخصِّصه بالأشعريين؛ إشعارًا بأنَّ القضية قضية مبدأ عام غير مخصوص بفئة ولا عصر معين»[١].

٣ ـ الترحيب بالمتعلم والبشاشة له:

ومن القيم التربوية الجليلة: ما سنَّه الرسول ﷺ للمعلِّم من آداب ينبغي أن تراعى مع المتعلِّم حتَّى يؤتي التعليم أحسن الثمرات.

وأول آداب المعلم مع المتعلم: أن يهشَّ له ويبشَّ في وجهه، ويظهرَ له البِشْر والابتهاج، ويُعلن عن الترحيب به، حتَّى تزول عنه الوحشة، وتنحلَّ من نفسه العقدة، عقدة الخوف من المعلم، والرهبة من العلم.

وهذا ما كان يفعله النبي ﷺ وأصحابه من بعده.

عن قيس بن كثير قال: قدم رجل من المدينة إلى أبي الدرداء رضي الله عنه وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك أي أخي؟ قال: بلغني أنَّك تحدِّث به عن رسول الله ﷺ. قال: أما قدمت لتجارة؟ قال: لا. قال: ما قدمت إلَّا في طلب هذا الحديث؟ قال: نعم.

قال: فإنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا، سلك الله به طريقًا إلى الجنَّة، وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم...**» الحديث[٢].

وعن صفوان بن عسال المرادي رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد مُتَّكئ على بُرد له أحمر، فقلتُ له: يا رسول الله؛ إنِّي جئتُ

(١) اشتراكية الإسلام صـ ٥٩، نشر الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ط ٢، ١٣٧٩هـ ـ ١٩٦٠م.

(٢) سبق تخريجه صـ١٦. وانظر: الفتح الرباني (١٤٩/١) حديث رقم (١٣) من كتاب العلم.

QaradawiBooks.com

أطلب العلم، فقال: «**مرحبًا بطالب العلم! إنَّ طالب العلم تَحفُّه الملائكة بأجنحتها، ثمَّ يركب بعضهم بعضًا حتَّى يبلغوا السماء الدنيا من محبَّتهم لما يطلب**»[١].

وهكـذا كان موقف صفوان مِمَّـن يجيئه يطلب منه العلم ويسـمع الحديث؛ فهو يرحِّب به، ويبشِّره بما بشَّره به من قبل النبي ﷺ.

وعن أبي سعيد، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**سـيأتيكم أقوامٌ يطلبون العلم، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم: مرحبًا بوصيَّة رسول الله ﷺ وأفتوهم**»[٢]. وفي رواية «**وأقنوهم**» أي: أرضوهم وأعينوهم.

وكان أبـو سـعيد إذا جاءه طـلاب العلـم قـال: مرحبًـا بوصيَّة رسول الله ﷺ.

ودَرَج الصحابة ومن بعدهـم على قَبول وصيته عليه الصلاة والسلام في الترحيب بالمتعلِّميـن وتكريمهم وإعانتهـم أدبيًّا وماديًّا على الاسـتمرار في طلبهم للعلم.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول إذا رأى الشـباب يطلبون العلم: مرحبًا بينابيع الحكمة، ومصابيح الظُّلم، خلقان الثياب، جدد القلوب[٣]، حبس البيوت، ريحان كل قبيلة[٤]!

---

(١) رواه أحمد (١٨٠٩٨)، وقال مخرِّجوه: حسـن. والطبرانـي (٥٤/٨)، وابن حبان في الطهارة (١٣٢١)، والحاكم في العلم (١٠٠/١، ١٠١)، وصحح إسناده ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٥٠): رجال الطبراني رجال الصحيح.

(٢) رواه ابن ماجه في المقدمة (٢٤٧)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٠١).

(٣) وهي: التي لم يشبها شيء من تلك الأهواء، والتلون في الدين.

(٤) جامع بيان العلم وفضله (٢٥٧).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وكان أبو حنيفة يكثر مجالسة طلبته ويخصُّهم بمزيد الإكرام، وصنوف العناية في التكريم.

وكان البويطي يدنيهم ويقرِّبهم ويحضُّهم على الاشتغال ويعاملهم بأشرف الأحوال[١].

٤ ـ الرفق بالمتعلم والحنو عليه:

ومن أدب المعلم في الإسلام: أن يرفق بالمتعلِّم ويأخذَ بيده، ويعاملَه معاملة الأب لولده، مقتديًا بالمعلِّم الأول، رسول الله ﷺ الَّذي وصفه الله بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، والذي وصف نفسه فقال: «**إنَّما أنا لكم مثلُ الوالد لولده**»[٢].

وأهم ما يميَّز علاقة الأبوة بالبنوة هو الرحمة والرفق والحُنو، وهذا ما ينبغي أن يحسَّ به التلميذ من أستاذه، ويشعر بحبه له، وحرصه على نجاته وسعادته في الأولى والآخرة، ويغرس الحب والأخوة بين طلابه، كما يغرس الأب المحبة بين أبنائه، حتَّى يحبَّ بعضهم بعضًا، ويعاون بعضهم بعضًا، ويعطف بعضهم على بعض، ولا يتباغضوا ويتحاسدوا، وكذلك كان علماء السلف في علاقاتهم بتلاميذهم.

يقول أمير المؤمنين في الحديث، سفيان الثوري: والله لو لم يأتوني لأتيتهم في بيوتهم! يعني أصحابَ الحديث[٣].

---

(١) فيض القدير (١١٧/٤).

(٢) رواه أحمد (٧٣٦٨)، وقال مخرِّجوه: إسناده قوي. وأبو داود (٨)، والنسائي (٤٠)، وابن ماجه (٣١٣)، وابن حبان (١٤٣١)، أربعتهم في الطهارة، عن أبي هريرة.

(٣) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٧٥٢).

QaradawiBooks.com

وقال الربيع بن سليمان: قال لي الشافعي: يا ربيع لو قدرت أن أطعمك العلم لأطعمتك إيَّاه[١].

وقال الربيع: كان الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ يملي علينا في صحن المسجد فلحقته الشمس، فمرَّ بعض إخوانه، فقال: يا أبا عبد الله، في الشمس؟ فأنشأ الشافعي يقول:

أهينُ لهم نفسي لأكرمَهم ولن تُكرمَ النفسُ التي لا تهينها[٢]

ومن دلائل هذا الرفق: أن يتبنى روح التيسير لا التعسير، والتبشير لا التنفير، وهذا ما أوصى به النبي مَنْ بعثه من أصحابه معلِّمين وهداة وقضاة، مثل: معاذ بن جبل، وأبي موسى الأشعري، حيث قال لهما، وقد بعثهما إلى اليمن: «**يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا**»[٣].

قال الحافظ في «الفتح» في شرحه لهذا الحديث: «وفي الحديث: الأمر بالتيسير، والرفق بالرعيَّة، وتحبيب الإيمان إليهم، وترك الشدَّة لئلا تنفر قلوبهم، ولا سيَّما فيمن كان قريبَ العهد بالإسلام، أو قارب حدَّ التكليف من الأطفال؛ ليتمكَّن الإيمان من قلبه، ويتمرَّن عليه.

وكذلك الإنسان في تدريب نفسه على العمل إذا صدَقت إرادته لا يشدِّد عليها، بل يأخذها بالتدريج والتيسير، حتَّى إذا أنِست بحاله ودامت عليها، نقلها لحالٍ آخر، وزاد عليها أكثر من الأولى، حتَّى يصل إلى قدر احتمالها، ولا يُكلِّفها بما لعلَّها تعجز عنه»[٤].

---

(١) جامع بيان العلم (٧٥٣).

(٢) المصدر السابق (٧٥٥).

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣)، كلاهما في الجهاد والسير، عن أبي موسى.

(٤) فتح الباري (١٦٣/١٣).

QaradawiBooks.com

وفي حديث آخر: «**علِّموا ويسِّروا ولا تُعسِّروا، وبَشِّروا ولا تنفِّروا، وإذا غضب أحدكم فليسكت**»(١).

وفي آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه: «**علِّموا ولا تعنِّفوا، فإنَّ المعلِّم خير من المُعنِّف**»(٢).

وذلك أنَّ الله يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر، وهو يحب الرفق في الأمر كلِّه، ويَجزي على الرفق ما لا يَجزي على العنف، وما دخل الرفق في شيء إلَّا زانه، ولا دخل العنف في شيء إلَّا شانه. وأحق الأشياء بالرفق: التعليم؛ فعلى العلماء ـ كما قال الماوردي ـ ألَّا يعنِّفوا متعلمًا، ولا يحتقروا ناشئًا، ولا يستصغروا مبتدئًا، فإنَّ ذلك أدعى إليهم، وأعطف عليهم، وأحث على الرغبة فيما لديهم(٣).

وكان النَّبيُّ ﷺ أرفقَ الناس بالمتعلِّمين، وأبعدهم عن التَّشديد والتعسير، والفظاظة والغلظة، وهذا ما نوَّه به القرآن من أخلاقه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

---

(١) رواه أحمد (٢١٣٦)، وقال مخرِّجوه: حسن لغيره. والبخاري في الأدب المفرد (٢٤٥)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٤٨): فيه ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف. وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٣٧٥)، عن ابن عباس.

(٢) رواه الطيالسي (٢٦٥٩)، والبيهقي في المدخل إلى السنن (٦٢٧)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (٢٨٦/٢)، قال ابن مفلح في الآداب الشرعية (٢٢٤/١): حميد [وهو ابن أبي سويد] له مناكير تكلم فيه ابن عدي وغيره. وقال السخاوي في المقاصد الحسنة (٧٠٩): ولكن من شواهده حديث ابن عباس: «علموا وبشروا ولا تعسروا». رواه أحمد وغيره، بل في صحيح مسلم عن أبي موسى أنَّ النبي ﷺ لما بعثه ومعاذًا إلى اليمن قال لهما: «يسِّرا ولا تُعسِّرا، وعلِّما ولا تنفِّرا».

(٣) فيض القدير (٣٢٨/٤).

QaradawiBooks.com

وكان الرجل يأتي من البادية، ويخاطبه باسـمه مُجـرَّدًا، ويُناديه من بُعْد، ويكلِّمه بجفوة، وأحيانًا يستوقفه في الطريق، فيسع هذا كله لحلمه وحسن خلقه، ويجيبه عما سأل، وأكثر ممَّا سأل، وقد يهمُّ أصحابه به، أو يثورون في وجهه فيهدِّئ من ثورتهم، ويسكِّن من غضبهم.

عن أبي أيوب ﷺ: أنَّ أعرابيًا عرض لرسول الله ﷺ وهو في سفره، فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها، ثم قال: يا رسول الله أو يا محمد، أخبرني بما يقرِّبني من الجنَّة، ويباعدني عن النـار. قال: فكفَّ النبي ﷺ، ثم نظر في أصحابه، ثم قـال: «**لقد هدي**». قـال: كيف قلـت؟ فأعادها. فقال النبي ﷺ: «**تعبد الله ولا تشـرك به شـيئًا، وتقيـم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم. دع الناقة**»[(١)].

وسيأتي مزيد من صور الرفق في الإشفاق على المخطئ.

وقد تثار هنا قضية الضرب واستخدام العصا في التعليم، وخصوصًا بالنسبة للصغار.

والتربويون في عصرنا ينكرون الضرب على الإطلاق.

والواقع أنَّ الضرب في الأصل ينبغي أن يمنع؛ لأنَّه ينافي الرفق الَّذي تحدَّثنا عنه.

وقدوتنا في هذا معلِّمنا الأول رسـول الله ﷺ، فقد روت عنه عائشة: أنَّه ما ضرب بيده شيئًا قط، لا امرأةً ولا خادمًا، ولا دابة[(٢)].

ولم يشـرع الإسـلامُ ضرب الصغار إلَّا في موضع واحـد جاء به الحديث في تعويد الأبناء الصـلاة قبل البلوغ حتَّى يشـبُّوا على أدائها

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٣٩٦)، ومسلم في الإيمان (١٣).

(٢) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٢٨)، وأحمد (٢٤٠٣٤)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

ورعايتها: «**مروهم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين**»[(١)].

وهنا نلحظ أنَّه لم يُجز الضرب في سن الطفولة المبكرة، بل في سنِّ العاشرة. ولم يجزه إلَّا بعد الأمر والدعوة والترغيب لمدَّة ثلاث سنين.

وإنَّما شُرع الضرب في هذه الحال لإشعار الولد بجديَّة الأمر وحرص الأب وأهمية المطلوب منه وعدم التهاون فيه.

فإنَّ بعض الآباء قد يكتفي بكلمة عابرة يقولُها للولد: صَلِّ يا بني. ثم لا يحاسبه بعد ذلك. صلَّى أم لم يصل؟ استجاب لأمر أبيه أم جعله دبر أذنيه؟

وكما أنَّ الأب الحازم لا يرضى أن يُهمل ابنه أمره في شؤون الدنيا، فأحرى به أن يكون هذا موقفه مع ولده في شأن الدين، بل هو أهم وأولى.

ومنزلة المعلِّم منزلة الأب، فيجوز له ما يجوز للأب في بعض الأحيان، على أن يكون هذا استثناءً من القاعدة الأصلية، وأن يكون ذلك ضرورة تقدَّر بقدرها.

وكما قال ﷺ في شأن الأزواج: «**لن يضرب خياركم**»[(٢)]، فهذا يقال للآباء والمعلِّمين أيضًا: «لن يضرب خياركم».

---

(١) رواه أحمد (٦٦٨٩)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. وأبو داود في الصلاة (٤٩٥)، وحسن إسناده النووي في خلاصة الأحكام (٢٥٢/١)، وصحَّحه ابن الملقن في البدر المنير (٢٣٨/٣). عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه الحاكم (١٩١/٢)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، والبيهقي (٣٠٤/٧)، كلاهما في النكاح، عن أم كلثوم بنت أبي بكر.

QaradawiBooks.com

٥ ـ الإشفاق على المُخطئ:

ويتجلَّى الرفق كل الرفق في الإشفاق على المخطئ؛ فالخطأ لا يوجب مقابلة المخطئ بالعنف والقهر، أو التشنيع عليه أو السخرية به، فإنَّ هذا قد يؤدِّي به إلى إذلال نفسيَّته وتحطيم شخصيَّته، وهذا ضرب من القتل المذموم دينًا وخلقًا، أو يؤدِّي به إلى الإصرار على الخطأ، والتَّمادي في الباطل والتَّحدِّي للحق، دفاعًا عن نفسه وتسويغًا للغلط، وكلا الأمرين شديدُ الخطر، عظيم الضرر.

وأعظم نموذجٍ للرفق بالمتعلِّمين إذا أخطؤوا: هو رسول الله ﷺ، فهو خير من يقدِّر الظروف، ويراعي الأحوال، ويسع الناس جميعًا، حتَّى ذلك الأعرابي الجلف الَّذي لم يخجل أن يبول في ركن من المسجد أمام الناس، لم يُغلظ عليه، وقابله بما ينبغي لمثله من الرفق واللين.

روى مسلم في «صحيحه»، عن أنس قال: بينما نحنُ في المسجد مع رسول الله ﷺ، إذ جاء أعرابي، فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَهْ مَهْ (كلمة زجر). قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزرموه، دعوه**». فتركوه حتَّى بال، ثمَّ إنَّ رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «**إنَّ هذه المساجد لا تَصلُحُ لشيء من هذا البول ولا القذر، إنَّما هي لِذِكْر الله ﷻ، والصَّلاة وقراءة القرآن**».

قال: فأمر رجلًا من القوم، فجاء بدلو من ماء فشنَّه عليه[1].

وروى الترمذي، عن أبي هريرة قال: دخل أعرابي المسجد والنبي ﷺ جالس، فصلَّى، فلمَّا فرغ قال: اللهمَّ ارحمني ومحمَّدًا، ولا ترحم معنا

(١) رواه مسلم في الطهارة (٢٨٥)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

أحدًا. فالتفت إليه النبيُّ ﷺ، فقال: «**لقد تَحجَّرتَ واسعًا**». فلم يلبث أن بال في المسجد فأسرع الناس، فقال النبي ﷺ: «**أهريقوا عليه سجلًا من ماء**» ـ أو «**دلوًا من ماء**» ـ ثم قال: «**إنَّما بُعثتم مُيسِّرين، ولم تُبعثوا مُعسِّرين**»[(١)].

راعى الرسول الكريم بداوة الرجل ونشأتَه وظروفَ حياته، فلم يستجب لثورة أصحابه وهياجهم عليه، وعرَّفهم أنَّ علاج الأمر سهل في مسجد لم يكن مفروشًا إلَّا بالحصباء، وهو صَبُّ دلو من ماء، ثم نَبَّههم على طبيعة رسالتهم التي كلِّفوا حمْلها للناس، وهي التيسير لا التعسير.

وروى أبو أمامة، أنَّ فتًى من قريش جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله: ائْذن لي في الزنى؟ فأقبل القوم عليه وزجروه، فقال ﷺ: «**ادْنه**». فدنا، فقال: «**أتحبُّه لأمك؟**». قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «**ولا الناس يحبُّونه لأمَّهاتهم**». ثم قال له مثل ذلك في ابنته وأخته وعمته وخالته، وفي كل ذلك يقول: أتحبه هكذا؟ فيقول: لا والله، جعلني الله فداك، فيقول ﷺ: «**ولا الناس يحبُّونه**». ثمَّ وضع يده عليه وقال: «**اللهمَّ اغفر ذنبَه، وطهِّر قلبَه، وحصِّن فرجه**». فلم يكن بعد ذلك يلتفت إلى شيء[(٢)].

فهذا شاب عارمُ الشهوة، ثائرُ الغريزة، صريح في التعبير عن نوازعه إلى حدِّ الإغراب والإثارة، ورغم غرابة طلبه الَّذي أثار الجالسين عليه، لم يكن منه ﷺ إلَّا أن لقيَه بهذا الرفق العجيب والحوار الهادئ، الَّذي

(١) رواه أحمد (٧٢٥٥)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأبو داود (٣٨٠)، والترمذي (١٤٧)، وقال: حسن صحيح. كلاهما في الطهارة.

(٢) رواه أحمد (٢٢٢١١)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. والطبراني (١٦٢/٨)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٤٣): رجاله رجال الصحيح.

QaradawiBooks.com

يحمل المنطق المقنع والروح المُحبَّب، ثم أنهى هذا الحوار بلمسة حنان على صدر الفتى المُتوقِّد، ومع اللمسـة دعـوات خالصات لله تعالى أن يغفر للفتى ويطهِّره ويُحصِّنه، فإذا هو يخرج من مجلس الرسول الكريم، كأنَّما كان هذا اللقاء لنار شهوته بردًا وسلامًا.

ولا تظنَّ ـ أيهـا القارئ الكريـم ـ أنَّ هذا الأثر الَّـذي تركه موقف النبي ﷺ في نفس الشاب من هدوء نفس وإعراض عن الزنى الَّذي كان يتوق إليه ويرغب فيه، كان معجزةً خارقةً للنبي عليه الصلاة والسلام ولا تتكرر لغيره إلَّا من باب الكرامات، وخوارق العادات، كلا فإنَّ أيَّ معلِّم ربَّاني الوجهة، نبويّ الطريقة، يقتدي برسـول الله ﷺ في سـلوكه، قولًا وعملًا وروحًا، سيجد ـ بتوفيق الله تعالى ـ نفسَ الأثر، أو قريبًا منه، وَفْقًا لسُنَّة الله تعالى.

وأوْلى المخطئين بالإشـفاق من كان خطؤه عن جهل، أو غفلة، أو ضعف. وبخاصَّة من أخطأ لأول مرَّة، مثل الأعرابي، والشـاب القرشي السابق ذكرهما.

ولكنَّ قارئ السُّنَّة يجده عليه الصلاة والسلام يسعُ بحلمه، ورفقه من أصرَّ على الخطأ والمعصية نتيجة ضعف إرادته، وغلبة عادته، استبقاءً له في دائرة الإيمان، وفي حظيرة المؤمنين، وتنبيهًا له بحُسـن المعاملة على سـوء صنيعِه، عسى أن يستيقظ ضميره فيتوب من زلته، وينهض من سقطته.

وهل نجـد مثلًا في هذا المجـال أوضح من قصة ذلـك الصحابيِّ المعروف الَّذي اشتهر باسـمه والذي ولع بالخمر إلى حدِّ الإدمان، ولم يردَعْه أن ضُرب فيها غير مرَّة، حتَّى قال بعض الصحابة يومًا، وقد ضاق صـدره بكثرة ما قبض عليه في هـذه الجريمة: ما له لعنـه الله؟ ما أكثر ما يُؤْتى به! وهنا تتجلَّى الرحمة المحمديَّة، والرِّفق النبوي الرفيع فيقول:

QaradawiBooks.com

«**لا تكن عونًا للشيطان على أخيك**»[١]، أو: «**لا تكونوا عونًا للشيطان على أخيكم**»[٢]، وفي رواية: «**لا تلعنه؛ فإنَّه يحبُّ الله ورسوله**»[٣].

تَنْبيهُ المُخطئ على خطئه:

وإيَّاك أن تحسب ـ أخي القارئ ـ أنَّ الرفق بالمخطئ يعني السكوت على خطئه والإغضاء عنه، وفي هذا إقرار للخطأ، بل تشجيع وإشاعة له.

كلَّا، فالرِّفق بالمُخطئ والإشفاق عليه لا ينافي تنبيهه على خطئه، بل زجْره عنه بالرفق المناسب لظروف المخطئ ومدى خطئه ونوعه ودوافعه، وإرشاده إلى الصواب والوضع الصحيح بالتي هي أحسن، ولهذا رأيناه ﷺ بعد أن ترك الأعرابيَّ يبول في المسجد دون أن تُقطع عليه بولته، وبعد أن أمر بصبِّ دلو من ماء عليه، وبعد أن قال لأصحابه ما قال: «**إنَّما بُعثتم مُيَسِّرين**». دعاه، فقال له: «**إنَّ هذه المساجد لا تصلح لشيءٍ من هذا البول ولا القذر، إنَّما هي لذكر الله ﷻ والصلاة وقراءة القرآن**». وفي هذا ـ كما يقول الإمام النووي ـ الرفق بالجاهل وتعليمه ما يلزمه من غير إيذاء[٤].

وكذلك حين دعا الأعرابيُّ فقال: اللهمَّ ارحمني ومحمدًا ولا ترحم معنا أحدًا، نبَّهه النبي ﷺ برفق إلى أنَّه ضيَّق واسعًا، حين قصر طلب

---

(١) رواه البخاري في الحدود (٦٧٨١)، عن أبي هريرة. بلفظ: «لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم».

(٢) رواه أحمد (٤١٦٨)، وقال مخرِّجوه: حسن بشواهده. عن ابن مسعود.

(٣) رواه البخاري في الحدود (٦٧٨٠)، عن عمر، بلفظ: «لا تلعنوه، فوالله ما علمت إنَّه يحب الله ورسوله».

(٤) شرح النووي لمسلم (١٩١/٣)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.

QaradawiBooks.com

الرحمة له وللرسول دون غيرهما، مع أنَّ رحمته تعالى وسعت كل شيء. ولهذا قال له: «**لقد تَحَجَّرت واسعًا!**».

وقد يكون هـذا التنبيـه أو الإرشـاد أو الزجر من بـاب التعريض لا التصريح، وبالتعميـم لا بالتخصيص، ويدرك المخطئ حين يسـمع اللفظ العام أنَّـه المقصود مثل: «**ما بال أقوام يفعلـون كذا وكذا**»... مثل ما ذكروه في قصَّة مَنْ هاجر من مكة إلى المدينـة من أجل امرأةٍ يهواها وأطلق عليه بعض الصحابة: (مُهاجر أمِّ قيس)[١]، وقالوا: إنَّه كان سببًا في ورود الحديث المشهور: «**إنَّما الأعمال بالنيَّات، وإنَّما لكلِّ امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسـوله فهجرتُه إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يُصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرتُه إلى ما هاجر إليه**»[٢].

وطَوْرًا يكون التنبيه على الخطأ غايةً في الرفق ورعاية الشعور، كما في قصة أبي بكرة حين دخل المسجد، والنَّبيُّ ﷺ في الركوع، فكبَّر من أول المسجد وركع، وظلَّ يمشي راكعًا حتَّى وصل الصف. وكان ينبغي ألَّا يكبِّر ويدخل فـي الصلاة حتَّى يصل إلى الصـف ولا يُصلِّي منفردًا خلف الصف، فلمَّا بلغ رسـول الله ﷺ فعله، قال له هذه الكلمة الطيِّبة: «**زادك الله حرصًا، ولا تعد**»[٣].

فهذه الجملـة الموجَزة تتضمَّن دعاءً ونهيًا؛ ففـي الدعاء تقدير لنُبْل الدافع الَّذي دفع الصحابي الكريم إلـى ما فعل، وهو الحرص على ألَّا

(١) رواه الطبراني (١٠٣/٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائـد (٢٥٨٠): رجاله رجال الصحيح. وقال ابن حجر في فتح الباري (١٠/١): إسناده صحيح على شرط الشيخين. عن ابن مسعود.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، عن عمر.

(٣) رواه البخاري في الأذان (٧٨٣).

QaradawiBooks.com

تفوته الركعة في الجماعة مع النبي ﷺ، وفي النهي إشعار له بخطئه؛ لئلا يتكرر منه مرَّة أخرى دون أن يقول له: قد أخطأت.

وعن معاوية بن الحكم السُّلَمي قال: بينما أنا أصلِّي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله؛ فرماني القوم بأبصارهم! فقلتُ: وا ثكل أمَّاه ما شأنكم تنظرون إليَّ؟! فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم.. فلمَّا رأيتهم يصمِّتونني ـ أي: يُسكتونني ـ سكتُّ.

فلمَّا صلَّى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي! ما رأيتُ معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كَهَرَني ـ أي: ما نهرني ـ ولا ضربني ولا شتمني. قال: «**إنَّ هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنَّما هي التسبيح، والتكبير، وقراءة القرآن**». فقلتُ: يا رسول الله؛ إنِّي حديث عهد به وقد جاء الله بالإسلام، وإنَّ منَّا رجالًا يأتون الكُهَّان؟ قال: «**فلا تأتهم**». قلتُ: ومنا رجال يتطيَّرون (يتشاءمون). قال: «**ذاك شيء يجدونه في صدورهم، فلا يَصُدَّنَّهُم**»[1]. أي: عن وجهتهم.

فهذا العربي الغُفْل، الحديث العهد بالإسلام يدخل الصلاة ويتصرف فيها كأنَّما هو في مجلس من مجالس القوم: يشمِّت العاطس، ويكلِّم من حوله، ويردُّ على من أنكر عليه، والصحابة يرون هذا منه وينبِّهونه بنظرات أعينهم وحركات أيديهم، وهو لا ينتبه إلى خطئه حتَّى فرغ من صلاته، وحكوا للنبيِّ ﷺ ما صنعه في صلاته.

وهنا تتجلَّى روح المعلِّم الحق، وأسلوبه الرفيق الرقيق في معالجة الخطأ وتنبيه المخطئين، وتعليم المبتدئين، وهو ما لحظه هذا الرجل

(١) رواه مسلم في المساجد (٥٣٧)، وأحمد (٢٣٧٦٥)، عن معاوية السلمي.

غير مرخص للطباعة
نسخة خاصة

الأميُّ البسـيط بنور فطرته، وعبَّر عنه بعباراته القويـة البليغة: «بأبي هو وأمي، ما رأيت معلِّمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كَهَرَني، ولا ضربني ولا شتمني».

كل ما فعله ﷺ: أنَّـه نبَّهه على خطئـه دون أن يقـول له: أخطأت وأسـأت، ولم تعرف للصلاة قدرَها، ونحو ذلك من العبارات القاسية. إنَّما بيَّن له حقيقة الصلاة وما لا يليق من القول أنْ يَدخل فيها: «**إنَّ هذه الصلاة لا يصلح فيها شـيء من كلام الناس، إنَّما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**».

وكذلك يجب أن يكون المعلِّمون الصادقون.

وفي قصة تخيير نسـائه ﷺ التي نزل بها القـرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ۝ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩]. أقبل النبيُّ ﷺ على نسائه يَعرض عليهن ما أمره الله به من التخيير، وبدأ بعائشة رضي الله عنها، فعرَض عليها أن تختار أحد أمرين: إمَّا الله ورسـوله والدار الآخرة، على ما في ذلك من الكفاف، وحياة التقشُّـف والزهد، وخشـونة العيـش، وإمَّا الدنيا وزينتها فلها حقُّ المتعة والسـراح الجميل، وطلب إليها أن تتَريَّث في الأمر وألَّا تقطع فيه برأي حتَّى تشـاور أبويها. وهنا قالت عائشـة في حسـم ويقين: أفيك أسْتأمر أبويَّ يا رسـول الله؟ بل أختار اللهَ ورسوله والدارَ الآخرة، ثم بدت الطبيعة البشـريَّة النسـويَّة فغلبت على عائشة. فطلبت منه ﷺ ألَّا يخبر أحدًا من نسائه بما اختارته حتَّى لا يؤثِّر موقفها في موقفهنَّ، كأنَّما تريد لهن جميعًا أن يخترن الدنيا وزينتها وتنفرد هي

QaradawiBooks.com

بهذه المزيَّة، ويخلو لها وجهه ﷺ، وهنا يتجلَّى المعنى التربوي الكبير في موقفه عليه الصلاة والسلام حين قال لها: «**يا عائشة، إنَّ الله لم يبعثني معنِّتًا ولا مُتعنِّتًا، ولكن بعثني معلِّمًا مُيسِّرًا**»(١).

فلم يُقر الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق على نزعتها تلك، وبيَّن لها وظيفتَه التي لا يتركها ولا تتركه، وهي: أنَّه معلِّم، ومعلِّم مُيسِّر، غير مُعنِّت ولا متعنِّت.

قال المناوي: «فيه إشعار بأنَّ من دقائق صناعة التعليم: أن يزجر المعلم المتعلمَ عن سوء الأخلاق باللطف، والتعريض ما أمكن من غير تصريح، وبطريق الرحمة من غير توبيخ، فإنَّ التَّصريح يهتك حجاب الهيبة، ويُورث الجرأة على الهجوم بالخلاف، ويهيج الحِرص على الإصرار. ذكره الغزالي»(٢).

غير أنَّنا نجد النبيَّ ﷺ، يزجر عائشة نفسها على خطأ ارتكبته في موقف آخر، وكان الزجر بطريقة فيها لون من الشدَّة يغاير ما ذكرناه سابقًا. وذلك أنَّها اعتدت على حقِّ ضرَّة من ضرائرها من أمَّهات المؤمنين، فقد قالت للرسول الله ﷺ: حسبك من صفيَّة كذا وكذا. قال بعض الرواة تعني: قصيرة، فقال: «**يا عائشة؛ لقد قلتِ كلمةً لو مُزجت بماء البحر لمزجته**»(٣).

---

(١) رواه مسلم في الطلاق (١٤٧٨)، وأحمد (١٤٥١٦)، عن جابر بن عبد الله.

(٢) فيض القدير (٥٧٣/٢)، وانظر: الإحياء (٥٧/١).

(٣) رواه أحمد (٢٥٥٦٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده على شرط مسلم، وأبو داود في الأدب (٤٨٧٥)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٢)، وقال: حسن صحيح. وصحَّحه الألباني في تخريج الحلال والحرام (٤٢٧)، عن عائشة.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

يعني: أنَّ هذه الكلمة أو هذه الإشـارة التي لـم تصل إلى التَّصريح الكامل جديرةٌ بان تعكِّر بحرًا، على عمقه وسَـعَته، هـذا مع أنَّها أحبُّ نسائه إليه.

وأحيانًا يشـتدُّ النكير ويعلو الصوت بالتنديـد والغضب في غير إسفاف ولا إسراف، وذلك حين لا يكون الخطأ مجرَّد خطأ في سلوكٍ جزئيٍّ فرديٍّ، بل يمثل بداية انحراف في الاتِّجاه، وفي المنهج، كقوله لعمر حين رأى معه بعض كتـب أهل الكتاب المُحرَّفـة: «**أمتهوِّكون** ـ أي: أمتَحيِّـرون ـ **فيهـا يا ابن الخطـاب، والله لو كان موسـى حيًّا ما وسِعه إلَّا أن يتبعني**»[(١)].

ونحو ذلك لمَّا شـكا إليه بعض أصحابه أنَّه يتأخر عن الجماعة لما يجد من تطويل الإمام بهم، إلى حدٍّ جعله يهرب من الصلاة في الجماعة، قال أبو مسـعود الأنصاري راوي هذا الحديث: فما رأيتُ النبيَّ ﷺ في موعظةٍ أشـدَّ غضبًا من يومئذٍ، فقال: «**يا أيُّها الناس، إنكم مُنفِّرون! فمن صلَّى بالناس، فليُخفِّف، فإنَّ فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة**»[(٢)].

وتشـتدُّ اللهجة بالإنكار أكثر وأكثر حينما يتمثل هذا الانحراف في جماعة أو كتلة كقوله ـ حينما تَنَادى الأوس: يا للأوس، وتَنادى الخزرج: يا للخزرج ـ: «**أبدعوى الجاهليَّة وأنا بين أظهركم؟!**»[(٣)].

---

(١) سبق تخريجه صـ٧٠.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (٩٠)، ومسلم في الصلاة (٤٦٦).

(٣) رواه ابن جرير الطبري في التفسير (٥٦/٦)، وانظر: تفسير ابن كثير، وروح المعاني للألوسي في تفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

QaradawiBooks.com

وقوله للثلاثة الذين قرَّر أحدهم قيام الليل كله، والثاني صيام الدهر كله، والثالث اعتزال النساء أبدًا: «**أما إنِّي أخشاكم لله وأتقاكم له، ولكنِّي أقوم وأنام، وأصوم وأُفطر، وأتزوَّج النساء، فمن رغِب عن سنَّتي فليس مني**»[(١)].

ومثل ذلك ما رواه عمْرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدِّه: أنَّه ﷺ سمع قومًا يتمارون في القرآن، فقال: «**إنَّما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتابَ الله بعضه ببعض، وإنَّما نزل كتاب الله يُصدِّق بعضُه بعضًا، فلا تكذِّبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم فَكِلوه إلى عالمه**»[(٢)].

وفي بعض الروايات: أنَّ تنازعهم كان في القدر[(٣)].

وفي بعضها: أنَّه خرج عليهم كأنَّما يُفقأ في وجهه حبُّ الرمان[(٤)]، أي: من شدَّة الغضب، وإنَّما أغضبه التدافع والمِراء في القرآن، وضربُ آياته بعضِها ببعض، فإنَّ هذا بداية فتنة في الفكر والعقيدة لا يعلمها إلَّا الله، لأنَّ القرآن أنزله الله ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويجمعهم على كلمة سواء، فإذا أصبح هو مجالًا للتنازع والمراء والاختلاف فقد أصبح محتاجًا إلى حاكم آخر يحسم النزاع، ويصفِّي الخلاف. وهذا مبتدأُ تمزُّق الأمم، وشيوع الانحرافات والأهواء والبدع، وهذا ما أهلك الأمم من

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)، كلاهما في النكاح، عن أنس.

(٢) رواه أحمد (٦٧٠٢)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح. وعبد الرازق في جامع معمر (٢٠٣٦٧)، والطبراني في الأوسط (٢٩٩٥).

(٣) رواه أحمد (٦٦٦٨)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح. وابن ماجه في المقدمة (٨٥)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١٤/١): إسناده صحيح، رجاله ثقات.

(٤) رواه أحمد (٦٨٤٥)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح. وابن ماجه في المقدمة (٨٥).

QaradawiBooks.com

قبل، وهـو خليقٌ أن يهلـك هذه الأمة مـن بعد، ومن ثـم كان غضبه وزجْره ﷺ.

٦ ـ تشجيع المُحسن والثناء عليه:

وإذا كان من الأسـس النافعة في التعليم والتربية تسـديد المخطئ والأخذُ بيده فـي رفق، فإنَّ ممَّا يكملها تشـجيع من أصاب وأحسـن، والإشادة بإحسـانه، والثناء عليه، ليزداد نشـاطًا في الخير، وإقبالا على العلم والعمل، ويضيف إحسانًا إلى إحسان، وهكذا كان ﷺ.

كان أبو موسى الأشعري حَسـن التلاوة للقرآن، فقال له النبي ﷺ: «**لقد أُوتيت مزمارًا من مزامير آل داود**»[(١)]، يعني بآل داود: داود نفسه.

وقال له يومًا: «**لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة!**». أي: لسرَّك ذلك. فقال أبو موسـى: يا رسول الله، لو أعلم أنَّك تسـمعه لحَبَّرتُهُ لك تحبيرًا[(٢)].

وعن أُبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أبا المنذر؛ أتدري أيُّ آية من كتاب الله معك أعظم؟**». قلتُ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾. (يعني الآية المعروفة بآية الكرسـي)، فضرب في صدري وقال: «**ليهنَك العلم أبا المنذر**»[(٣)].

ومن قرأ كتاب المناقب، أو الفضائل في صحيح البخاري، أو صحيح مسـلم، أو غيرهما من كتب الحديث يجد نصوصًا تحمـل الثناء على

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٤٨)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٩٣).

(٢) حبَّر بمعنى حسَّن، والمراد بالحديث تحسين الصوت. والحديث رواه أبو نعيم الأصبهاني في مستخرجه (١٨٠٣)، والبيهقي في الصلاة (١٢/٣).

(٣) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٨١٠)، وأحمد (٢١٢٧٨).

QaradawiBooks.com

واحد، أو جماعة من أصحاب النبيِّ ﷺ، ولم يكن يُلقي النبيُّ ﷺ ما يقوله من كلمات الثناء اعتباطًا، أو مجاملةً، بل كانت تقديرًا لمن يستحق التقدير، وتكريمًا لمن هو أهلٌ للتكريم، كما أثنى على أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم من كبار الصحابة في مواقف شتى.

وقال لسعد بن أبي وقاص يوم أحد: «**ارْمِ فداكَ أبي وأمي**»(١).

وقدِم أهل اليمن على رسول الله ﷺ، فقالوا: ابعث معنا رجلًا يُعلِّمنا السُّنَّة والإسلام. قال: فأخذ بيد أبي عبيدة فقال: «**هذا أمين هذه الأمَّة**»(٢).

وقال ﷺ: «**خُذوا القرآن من أربعة: من ابن أمِّ عبد** ـ يعني ابن مسعود ـ **ومعاذ بن جبل، وأُبي بن كعب، وسالم مولى أبي حذيفة**»(٣).

وأثنى على أبي هريرة لمَّا سأله: مَنْ أسعدُ الناسِ بشفاعتك يوم القيامة(٤)؟ وفي حديث اشتهر عنه، ذكر عددًا من أصحابه، كلًّا بأبرز ما يميِّزه من فضائل، قال: «**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في الله عمر**». وفيه: «**وأقضاهم عليٌّ، وأفرضهم** ـ أي: أعلمهم بالفرائض وهي المواريث ـ **زيد، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل...**»(٥).

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٠٥)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤١١)، عن علي بن أبي طالب.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في أصحاب الرسول (٣٧٤٤)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤١٩)، عن أنس.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٨٠٨)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٦٤)، عن عبد الله بن عمرو.

(٤) رواه البخاري في العلم (٩٩)، عن أبي هريرة.

(٥) رواه أحمد (١٣٩٩٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. والترمذي في =

QaradawiBooks.com

وهكذا كان ﷺ يُنوِّه بأقدار الفضـلاء من أصحابه، وبذوي المواهب المتميِّزة منهم؛ ليعرف الناس ذلك لهم، ويأخـذوا عنهم وينتفعوا بهم. كما ذمَّ النبـي ﷺ في حديث له صنفًا من الأئمة: «**الذي إنْ أحسـنت لم يشكر، وإنْ أسـأت لم يغفر**»[1]. وإذا كان هذا مذمومًا في الرؤساء، فهو مذموم كذلك في المعلِّمين.

وكذلك ينبغي لكلِّ معلِّمٍ راشـد أن يشـيدَ بالمواقفِ الحسنة لتلاميذه، ويُنوِّهَ بـكلِّ من له موهبةٌ أو قـدرة، وليُنمِّي فيه الطمـوح بالحق، والتفوُّق بالعدل، ولينبِّه الآخرين على فضلهم، فينافسوهم في الخير إن استطاعوا، أو يعترفوا لهم بالفضل إن عجزوا، وإن كلمة تقدير وتكريم من أستاذ له قدر في شأن أحد تلاميذه، قد تصنع منه ـ بتوفيق الله تعالى ـ نابغةً من نوابغ العلم.

ومن طلاب العلم مَن أُوتـي الموهبة والذكاء والقـدرة على الفهم والتحليل والتحصيل، ولكن تنقصه الثقـة بالنفس والأملُ في الغد، فما أحوجه إلى كلمة من أستاذ مرشد تنفعه وترفعه.

ذكر يوسف بْن يعقوب ابنُ المَاجِشُون: أنَّه كان هو وأخ له وابن عم، يطلبـون العلم عند ابن شـهاب الزهري فقال لهم: لا تحقروا أنفسـكم

= المناقب (٣٧٩١)، وقال: حسـن صحيح. وابن ماجه في المقدمة (١٥٤)، والحاكم في معرفة الصحابة (٤٢٢/٣)، وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، قال ابن حجر (٩٣/٧): إسناده صحيح إلَّا أنَّ الحفاظ قالوا: إنَّ الصواب في أوله الإرسال، والموصول منه ما اقتصر عليه البخاري. يعني: «وإن لكل أمة أمينًا وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح». وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٢٢٤)، عن أنس.

(١) رواه الطبراني (٣١٨/١٨)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (٢٥٣/١)، وقال المنذري في الترغيب والترهيـب (٣٨٧٣): رواه الطبراني بإسـناد لا بأس به، وقال الهيثمي فـي مجمع الزوائد (١٣٥٦٠): رواه الطبراني وفيه محمد بن عصام بن يزيد ذكره ابن أبي حاتم ولم يجرحه ولم يوثقه، وبقية رجاله وثقوا. عن فضالة بن عبيد.

QaradawiBooks.com

لحداثة أسـنانكم؛ فإنَّ عمر بن الخطاب كان إذا نزل به الأمر المعضل، دعا الفتيان فاستشارهم؛ يبتغي حدَّة عقولهم[١].

٧ ـ التدرج في التعليم:

ومن المبـادئ التي حرص عليها الإسـلام في جميـع المجالات ـ ومجالات التربية خاصَّة ـ وجاءت بها السُّنَّة القوليَّة والعمليَّة: التَّدرُّج في التعليم.

وهذا واضح في جانب التكليف والتشـريع؛ فقد كان التكليف في العهد المكي مقصورًا على أحكام العقيدة ومكارم الأخلاق، ثم فُرضت الصلاة قبيل الهجرة، وفرضت في أول الأمر ركعتين ثم أُقرَّت في السفر وزِيدَت في الحضر.

وفـي المدينة فُرضت بقيـة الفرائض، كمـا حرِّمت الخمـر والربا وغيرهما، كل ذلك بمنهج تدريجيٍّ حكيم يسـهِّل على المكلَّفين امتثال الأمر واجتناب النهي في غير حرَج ولا إعنات.

وهكذا كان الرسول الكريم يعلِّم أصحابه: أن يأخُذوا بسنَّة (التدرُّج) التي هي سنَّة الله في الحياة والوجود كله.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنَّ رسـول الله ﷺ لمَّا بعث معاذًا إلى اليمن قال: «**إنَّك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فادْعهم إلى شـهادة أن لا إلٰه إلَّا الله، وأنِّي رسـول الله، فإنْ هم أطاعوك لذلـك، فأعلمهم أنَّ الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإنْ أطاعوك لذلك،**

(١) رواه البيهقي في آداب القاضي (١١٣/١٠).

QaradawiBooks.com

فأعلمهم أنَّ الله فرض عليهم صدقةً تؤخذ مـن أغنيائهم، فتردُّ على فقرائهم»[١].

فقوله: «**تأتي قومًا من أهل الكتاب**»، كالتوطئة للوصية، لتستجمع همَّته عليها، لكون أهل الكتاب أهل علم في الجملة، فلا تكون مخاطبتهم كمخاطبته الجُهَّال من عَبَدَة الأوثان[٢].

ثم أمره أن يبدأ دعوته بأمر العقيدة، فيدعوهم إلى الشهادتين، لأنَّهما باب الدخول في الإسلام، وأصل الدين كله، ولا تقبل عبادة ولا عمل بغير الإقرار بهما والإذعان لهما.

فإنْ هم أطاعوا لذلك ورضوا بالله ربًّا، وبمحمَّد رسولًا، أعلمهم بالفريضة اليوميَّة والعبادة العمليَّة الأولى، التي هي الرباط الدائم بين الإنسان وربه، والفيصل الفارق بين المسلم والكافر، وهي الصلاة عمود الإسلام.

فإن هم عرفوا ذلك واستجابوا له، أعلمهم بالفريضة العملية الثانية ـ وهي شقيقة الصلاة في القرآن والسُّنَّة، والرباط الاجتماعي والاقتصادي بين المسلمين بعضهم وبعض ـ وهي الزكاة، قنطرة الإسلام.

وهكذا ينبغي أن تكون الدعوة ويكون التعليم.

والتدرُّج ذو شقَّين: شقٌّ يتعلق بالكمِّ، وشقٌّ يتعلق بالكيف.

فالأول يعني: أنْ يُعطى المتعلِّم من العلم المقدارَ الملائمَ له، ولا يكثر عليه الأستاذ، ويُحمِّله ما لا يطيق، فينوء به، ويضيِّعه كلُّه، فهو

(١) رواه الجماعة: رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٨)، ومسلم في الإيمان (١٩)، وأبو داود (١٥٨٤)، والترمذي (٦٢٥)، والنسائي (٢٤٣٥)، وابن ماجه (١٧٨٣)، أربعتهم في الزكاة.

(٢) فتح الباري لابن حجر (٣٥٨/٣).

QaradawiBooks.com

يريد أن يعطيَه الكثير دفعة واحدة، فيضيع بذلك الكثير والقليل. والعلم متين كالدين، فيجب أن يوغَل فيه برفق، فإنَّ المنبتَّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى.

وفي هذا أوصى الزهري تلميذه يونس بن زيد، فقال: «يَا يُونُسُ، لا تُكَابِرْ العِلْمَ؛ فإِنَّ العلم أوْدِيَةٌ، فأَيُّهَا أَخَذْتَ فِيهِ قطَعَ بك قَبلَ أنْ تَبْلُغَهُ، ولَكِنْ خُذْهُ مَعَ الأيام والليالي، ولا تأخذ العلم جملة، فإنَّ من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة! ولكن الشيء بعد الشيء مع الأيام والليالي»[(١)].

والشيء الثاني في التدرُّج: هو ما يتعلق بالكيف والنوع. على أن يبدأ الأستاذ مع طلابه بالجَليِّ من العلم قبل الخَفيِّ، والبسيط قبل المركَّب، وبالخفيف قبل الثقيل، والجُزئيِّ قبل الكلي، وبالعملي قبل النظريِّ.

ومن الحكم المأثورة: الرَّبَّاني: الَّذي يُربِّي الناس بصغار العلم قبل كباره[(٢)]. والمراد بصغار العلم: ما وضح من مسائله، وبكباره: ما دقَّ منها. وقيل: يعلِّمهم جزئيَّاته قبل كليَّاته، أو فروعه قبل أصوله، أو مقدِّماته قبل مقاصده[(٣)].

والمهم ألَّا يبدأ المعلم تلاميذَه بدقائق العلم، وعويص مسائله، فيغرقهم في بحر عميق لا يستطيعون النجاة منه، بل يبدؤهم بالأسهل والأيسر؛ لأنَّ الشيء إذا كان في ابتدائه سهلًا حُبِّبَ إلى من يدخلُ فيه، وتلقَّاه بانبساط، وكانت عاقبته غالبًا الازدياد منه، بخلاف ضدِّه[(٤)].

---

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٦٥٢).
(٢) صحيح البخاري (٢٤/١).
(٣) فتح الباري لابن حجر (١٦٢/١).
(٤) المصدر السابق (١٦٣/١).

QaradawiBooks.com

وقد كان كثيـر من كبار العلماء يؤلفون كتبهـم مُتدرِّجة وَفْق مراتب الترقِّي في الطلب. فالغزالي ـ مثلًا ـ يؤلف في فقه الشافعية: الوجيز، ثم الوسيط، ثم المبسوط. وابنُ قدامة يؤلف في فقه الحنابلة على الترتيب التَّصاعدي: العمدة، ثم المقنع، ثم الكافي، ثم المغني.

وهكذا كانوا يكتبون لكلِّ مرحلة فـي الطلب ما يليق بها، فالمبتدئ غير المتوسط غير المنتهي.

وكذلك ينبغي أن تُراعى مراحل العمر. فيُعطى للصبي غير ما يُعطى للمراهق، غير ما يُعطى للناضج.

وهذا ما يحرص عليه رجال التربية اليوم فـي وضع المناهج، وفي تأليف الكتب.

٨ ـ رعاية الفروق الفرديَّة:

ومن آداب التعليم ومبادئه وقيمه الأصيلة التي جاءت بها السُّنَّة: مراعاة الفروق بين الناس بعضهـم وبعض؛ الفروق الفرديَّة أو البيئيَّة أو النَّوعيَّة.

فليس كل ما يصلح لشخص يصلح لآخر، وليس كل ما يصلح لبيئة يصلح لأخرى، وليس كل ما يصلح لفئة أو جنس يصلح لغيرها، وليس كل ما يصلح لزمن يصلح لسائر الأزمنة والعصور.

والمعلِّم المُوفَّق هو الَّذي يُعطي كل إنسـان ـ فردًا أو جماعة ـ من العلم ما يلائمُه ويصلح له، وبالقدر الَّذي يصلح به، وفي الوقت الَّذي ينتفع به.

QaradawiBooks.com

وكان معلم البشريَّة الأول خير المراعين لهذا الجانب، نظرًا وتطبيقًا.

ومن الأدلة على اعتبار هذه الفروق ومراعاتها بالفعل عدَّة أمور:

١ ـ اختلاف وصاياه ﷺ باختلاف الأشخاص الذين طلبوا منه الوصيَّة.

٢ ـ اختلاف أجوبته وفتاواه عن السؤال الواحد باختلاف أحوال السائلين.

٣ ـ اختلاف مواقفه وسلوكه باختلاف الأشخاص الذين يتعامل معهم.

٤ ـ اختلاف أوامره وتكليفاته باختلاف مَن يكلِّفهم من الأشخاص واختلاف قدراتهم.

٥ ـ قَبولُه من بعض الأفراد موقفًا أو سلوكًا لا يقبله من غيره لاختلاف الظروف.

وفي البند الأوَّل: نجد أناسًا عديدين سألوه ﷺ أن يوصيهم إمَّا مطلقًا، وإمَّا مقيَّدًا بما يُقرِّبهم إلى الجنَّة ويُبعدهم عن النار، أو نحو ذلك من العبارات الجامعة، فأوصاهم بوصايا مختلفة.

فبعضهم قال له: «**تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم**»[(١)].

وبعضهم قال له: «**اتَّق الله حيثما كنت، وأتْبع السيئةَ الحسنةَ تمحها، وخالق الناس بخُلق حسن**»[(٢)].

---

(١) سبق تخريجه صـ١٥٥.

(٢) رواه أحمد (٢١٣٥٤)، وقال مخرِّجوه: حسن لغيره. والترمذي في البر والصلة (١٩٨٧)، وقال: حديث حسن صحيح. وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٩٧)، عن أبي ذر.

QaradawiBooks.com

وبعضهم قال له: «**قل: آمنت بالله، ثم استقم**»[١].

وبعضهم قال له: «**لا تغضب**»[٢]. ولم يزد على ذلك.

وهكذا كان يراعي ﷺ حال المستوصي، ويعطي كلَّ واحدٍ ما يراه أحوج إليه؛ فشأنه مع السائلين كالطبيب مع المرضى، يعطي كل واحد من الدواء ما يناسبه.

وفي البند الثاني: نجده ﷺ يُسأل: أي العمل أفضل؟، أو: أي الإسلام أفضل؟ فنراه يجيب هذا بغير ما يجيب به ذاك.

فعن عبد الله بن مسعود: سألتُ رسول الله ﷺ: أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله؟ فقال: «**الصلاة على وقتها**». قلتُ: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**». قلتُ: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»[٣].

وعن رجل من خثعم قال: أتيت النبيَّ ﷺ وهو في نفر من أصحابه، فقلتُ: أنت الَّذي تزعم أنَّك رسول الله؟ قال: «**نعم**». قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله؟ قال: «**الإيمان بالله**». قلتُ: يا رسول الله، ثم مَهْ؟ (أي: ثم ماذا؟) قال: «**ثم صلة الرحم**». قال: قلت: يا رسول الله ثم مَهْ؟ قال: «**ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...**» الحديث[٤].

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (٣٨)، وأحمد (١٥٤١٦)، عن سفيان بن عبد الله الثقفي.

(٢) رواه البخاري في الأدب (٦١١٦)، عن أبي هريرة.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٧)، ومسلم في الإيمان (٨٥)، عن ابن مسعود.

(٤) رواه أبو يعلى (٦٨٣٩)، وجوَّد إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٣٧٩٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٤٥٤): رجاله رجال الصحيح غير نافع بن خالد الطاحي وهو ثقة. وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (١٦٦).

غير مرخصة للطباعة
نسخة محمية
QaradawiBooks.com

ولا تفسير لهذا الاختلاف في الجواب مع اتِّحاد السؤال، إلَّا مراعاة أحوال السائلين، وما بينهم من فروق يجب اعتبارها.

ولمَّا سأله النساء عن الجهاد قال: «**لكُنَّ أفضل الجهاد حجٌّ مبرور**»[١].

وفي صحيح البخاري، عن أبي موسى قال: قالوا: يا رسول الله أي الإسلام أفضل؟ قال: «**من سلِم المسلمون من لسانِه ويده**»[٢].

وفيه عن عبد الله بن عمرو: أنَّ رجلًا سأل النبيَّ ﷺ: أيُّ الإسلام خير؟ قال: «**تُطعم الطعام، وتقرأ السلام على مَنْ عرفت ومَن لم تعرف**»[٣].

والسؤال الثاني: كالأول وإن اختلفت الألفاظ، لكن الجواب ليس واحدًا. كما قلنا من اختلاف أحوال السائلين، أو السامعين، فالجواب في السؤال الأول وجَّه العناية إلى تحذير من خشي منه الإيذاء بيدٍ أو لسان، فأرشد إلى كفِّهما عن الأذى. وفي الثاني كان الاهتمام بترغيب من رجَا فيه النفعَ العام بالفعل والقول، فأرشده إليهما وخصَّ الخصلتين المذكورتين بالتنويه لمسيس الحاجة إليهما في ذلك الوقت، لما كانوا فيه من الجَهد والفاقة ولمصلحة تأليف القلوب[٤].

وأوضح من ذلك اختلاف الجواب عن السؤال الواحد في قضية واحدة في مجلس واحد.

روى الإمام أحمد في مسنده من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: كنَّا عند النبي ﷺ فجاء شاب فقال: يا رسول الله؛ أُقبِّلُ وأنا صائم؟

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٨٤)، عن عائشة.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري (١١)، ومسلم (٤٢)، كلاهما في الإيمان.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٢)، ومسلم (٣٩)، كلاهما في الإيمان.

(٤) فتح الباري (٥٦/١).

QaradawiBooks.com

فقال: «**لا**». فجاء شيخ، فقال: يا رسول الله، أُقبِّلُ وأنا صائم؟ فقال: «**نعم**». فنظر بعضنا إلى بعض! فقال رسول الله ﷺ: «**قد علمت نظر بعضكم إلى بعض؛ إنَّ الشيخ يملك نفسه**»[١].

وهذا من الأدلة الشرعيَّة لما قرَّره العلماء من تغيُّر الفتوى بتغيُّر الأحوال.

وفي البند الثالث: نجده ﷺ يعامل الأعراب القادمين من البادية بما لا يعامل به أصحابه الذين رُبُّوا في حِجْر النبوة، ويغتفر لأولئك ما لا يغتفر لهؤلاء، ويتألف قلوب (مُسلمة الفتح)، وزعماء القبائل بما لا يصنع مثله مع المهاجرين والأنصار، ويعامل أصحابه أيضًا على منازلهم وطبائعهم فهو يغطي فخِذيه أو ساقيه، ويُسوِّي ثيابه عند دخول عثمان عليه، ولم يفعل ذلك مع أبي بكر وعمر، مُراعيًا طبع الحياء في عثمان قائلًا: «**ألَا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة؟**». وقد لاحظت عائشة ذلك: فقالت: يا رسول الله ما لي لم أرَك فزعت لأبي بكر وعمر كما فزعت لعثمان؟ فقال: «**إنَّ عثمان رجلٌ حيِيٌّ، وإنِّي خشيت إن أذِنت له على تلك الحال ألَّا يبلغ إليَّ في حاجته**»[٢].

وإذا دخل عليه كريم قوم أكرمه، وإذا دخل عليه سفيهٌ أو شرِّير داراه بطلاقة الوجه أو بكلمة طيبة ـ دون مداهنة أو مدح بالباطل ـ تألُّفًا له، واتقاءً لشرِّه.

ويُحدِّثُ معاذًا ببعض المُبشِّرات فيمن مات على التوحيد، ولا يأذن له بأن يبشِّر بها جمهور الناس مخافةَ أن يتَّكلوا[٣].

---

(١) رواه أحمد (٦٧٣٩)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. والخطيب في الفقيه والمتفقه (٤٠٨/٢)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٦٠٦).

(٢) رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٠٢)، وأحمد (٢٥٣٣٩)، عن عائشة.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢٨)، ومسلم في الإيمان (٣٢)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

وفي البنـــد الرابع: نجـــده ﷺ يُكلِّف كل إنســـان، بما يقـــدر عليه، وما يليق به، وما يلائم حاله.

ففي حدَث كحـــدث الهجرة إلى المدينة والاختفـــاء إلى غار حراء، نراه عليه الصلاة والسلام يكلِّف عددًا من الأشـــخاص بعددٍ من المُهمَّات المتنوعة، كلٌّ فيما يناســـبه، فأبو بكر كُلِّف رفقته بعد تكليفه إعـــداد الرواحل، وعليٌّ كُلِّف المبيـــتَ في مكانه ﷺ احتمالًا لأيِّ خطر، وأســـماء بنت أبي بكر كلِّفت ما يليـــق بها من حمـــل الطعـــام والأخبـــار إلى رفيقَـــي الغار، وعبد الله بن أبي بكر، وعامر بن فهيرة كلٌّ منهما له دوره.

وهكذا نجده ﷺ يولِّي خالد بـــن الوليد، وعمرو بـــن العاص على بعض السرايا الحربيَّة، على حين كلَّف حســـان بن ثابت بأن يدافع عنه ـ أمام هجاء الشعراء من قريش ـ بسلاح الشعر الَّذي هو أشدُّ عليهم من وقع الحسام في غبش الظلام[١]، ولم يجب أبا ذر إلى طلبه حين سأله أن يوليه، لما يعرف من صرامته وحدَّة طبعه[٢].

وفي البند الخامس: نجده ﷺ يقبل من بعض الأعراب الاقتصار على أداء الفرائض، حتَّى قال له بعضهم: والله لا أزيـــد على هذا ولا أنقص. فقال: «**أفلح إن صدق**»[٣].

---

(١) كما في الحديث المتَّفق عليه: عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن بن عوف، أنَّه سمع حسان بن ثابت الأنصاري، يستشهد أبا هريرة: أنشدك الله، هل سمعت النبي ﷺ يقول: «**يا حسان، أجب عن رسول الله ﷺ، اللهم أيده بروح القدس**» قال أبو هريرة: نعم. رواه البخاري في الصلاة (٤٥٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٨٥).

(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٨٢٥)، وأحمد (٢١٥١٣)، عن أبي ذر.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخـــاري (٤٦)، ومســـلم (١١)، كلاهمـــا في الإيمـــان، عن طلحة بن عبيد الله.

QaradawiBooks.com

وفي حديث: «**من سـرَّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنَّة فلينظر إلى هذا**»[١]. على حين لم يقل ذلك لغيره من أصحابه المهاجرين والأنصار.

وهذا هو موقف المُربِّي الحق، والمعلِّم المرشد من طلابه وأصحابه أن يُراعي ظروفهم، وقدراتهم العامَّة والخاصَّة، وأحوالَ كل فئة منهم، بل كل واحد منهم ليعالجه بما يناسبه، فلا يكلم الصغير بما يكلم به الكبير، ولا يُخاطـب الفتاة بما يخاطب بـه الفتى، ولا يُعطي العـوام ما يعطيه للخواص، ولا يُكلِّف الذكي ما يكلِّفه الغبي، ولا يأمر البدويَّ بما يأمر به الحضري، بل يعطي لكلِّ متعلم على قدره وقدرته.

ومن العجز بـل الإثم أن يبثَّ المعلِّم كل ما عنـده لكلِّ من يجده دون تمييز بين مَن يفهم ومَن لا يفهم، وبين من ينتفع بما يسمع ومن يتضرَّر به.

وفي الحديث: «**كفى بالمرء إثمًا أن يُحدِّث بكل ما سمع**»[٢].

وهذا ما حذَّر منه علماء الصحابة رضوان الله عليهم.

يقول علـي: «حَدِّثوا النـاس بما يعرفـون، أتحبُّـون أن يُكذَّب اللهُ ورسولُه»[٣]؟!

ويقول ابن مسعود: «ما أنت بمُحدِّث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلَّا كان لبعضهم فتنة»[٤].

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٣٩٧)، ومسلم في الإيمان (١٤)، عن أبي هريرة.

(٢) سبق تخريجه صـ١٠٦.

(٣) رواه البخاري في العلم (١٢٧).

(٤) رواه مسلم في المقدمة (١١/١).

QaradawiBooks.com

وليس هذا من كتمان العلم، بل من حُسن إنفاقه في محله، وإعطائه لمَن هو أهله، ولكلِّ مقام مقال، ولكلِّ علم رجال.

ومن الحكم المأثورة: لا تعطوا الحكمة لغير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم[١].

وقد ذكر الغزالي في «إحيائه»: أنَّ من وظائف المعلِّم: أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه، فلا يُلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفِّره، أو يخبط عليه عقله، اقتداءً بسيد البشر ﷺ، ولا يبثُّ إليه الحقيقة إلَّا إذا علم أنَّه يستقلُّ بفهمها. وقد قال عليٌّ رضي الله عنه وأشار إلى صدره: «إنَّ هنا لعلومًا جمَّة لو وجدت لها حَمَلة»[٢]!

فلا ينبغي أن يُفشيَ العالمُ كلَّ ما يعلم إلى كلِّ أحد. وهذا إذا كان يفهمه المتعلم، ولم يكن أهلًا للانتفاع به، فكيف فيما لا يفهمه؟ ولذلك قيل: كِلْ لكلِّ عبدٍ بمعيار عقله، وزِنْ له بميزان فهمه، حتَّى تسلم منه، وينتفع بك، وإلَّا وقع الإنكار لتفاوت المعيار.

وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ [النساء: ٥]. تنبيهًا على أنَّ حفظ العلم ممَّن يُفسده ويضرُّه أولى، وليس الظلم في إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم في منح المستحق[٣].

ويقول الغزالي أيضًا: «إنَّ المتعلم القاصر ينبغي أن يُلقى إليه الجَليُّ اللائق به، ولا يذكر له: أنَّ وراء هذا تدقيقًا، وهو يدَّخره عنه، فإنَّ ذلك يفتِّر رغبته في الجَليِّ ويشوِّش عليه قلبه، ويوهم إليه البخل به عنه، إذ

(١) إحياء علوم الدين (٣٧/١).
(٢) المصدر السابق (٥٧/١).
(٣) المصدر السابق (٥٧/١، ٥٨).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

يظنُّ كل أحدٍ أنَّه أهلٌ لكل علم دقيق! بل لا ينبغي أن يُخاض مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة، بل يقتصر معهم على تعليم العبادات، وتعليم الأمانة في الطاعات التي هم بصددها، ويملأ قلوبَهم من الرغبة والرهبة في الجنَّة والنَّار، لما نطق به القرآن، ولا يحرِّك عليهم شـبهة، فإنَّه ربما تعلق الشبهة بقلبه، ويعسر عليه حلُّها، فيشقى ويهلك...»[١].

والمقصود: أنَّ المعلم طبيب يداوي القلوب والعقول بما يناسـبها، وليس كل دواء يصلح لكل داء.

٩ ـ الاعتدال وعدم الإملال:

ومن المبادئ المرعيَّة في التعليم والمقتبسة من هدي النبوة: الاقتصاد في التعليم، والاعتدال في قدر ما يلقى مـن الموعظة، والمعلومات في زمانه، وفي نوعه حتَّى لا يؤدِّي الإكثار إلى الإملال.

روى البخـاري بسـنده عـن أبي وائل قـال: كان عبـد الله (يعني ابن مسـعود)، يُذكِّـر النـاس فـي كل خميـس، فقـال لـه رجـل: يا أبا عبد الرحمٰن، لودِدْت أنَّك ذكَّرتنا كل يوم؟ قال: أما إنَّه يمنعني من ذلك أنِّي أكره أن أمِلَّكـم، وإنِّي أتخوَّلكم (أي: أتعهَّدكم) بالموعظة كما كان النبي ﷺ يَتَخَوَّلُنا بها مخافةَ السآمة علينا[٢].

وروى البخاري أيضًا عن عكرمـة: أنَّ ابن عباس قال: حدِّث الناس مرَّة في الجمعة، فإن أبيت فمرتين، فإن أكثـرت فثلاثًا. ولا تُملَّ الناس هذا القرآن، ولا ألفينَّك تأتي القوم وهم في حديث من أحاديثهم فتملَّهم، ولكن أنْصت، فإذا أمروك فحدِّثهم وهم يشتهون[٣].

---

(١) إحياء علوم الدين (٥٨/١).

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (٧٠)، ومسلم في صفات المنافقين (٢٨٢١).

(٣) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٣٧).

وكان ابن مسعود يقول: «إنَّ للقلوب لنشـاطًا وإقبالًا، وإنَّ لها تولية وإدبارًا، فحدِّثوا الناس ما أقبلوا عليكم»[١].

وقال الحسـن البصري: «كان يقـال: حدِّث القـوم ما أقبلوا عليك بوجوههم، فإذا التفتوا فاعلم أنَّ لهم حاجات»[٢].

ومعنى هذا: أنَّ على المعلِّم ـ كما على الداعية والمُحدِّث ـ أن يراعي الطاقة النفسيَّة للناس، فإنَّ من يستمع أو يتعلَّم وهو كارهٌ لا يستفيد ممَّا يتلقَّاه، فهو يسـمع بأذنه ولا يعـي بقلبه، وكما أنَّ للإنسـان طاقةً بدنيَّة محدودة يجب أن تُراعـى، فلا يحمل من الأثقـال الماديَّة ما لا يطيق؛ فكذلك طاقته النفسيَّة.

وعلى هذا الأسـاس يجب أن توضع مناهج التعليـم وتؤلف كتبه، وتُحدَّد مقرراته بحيث يُقبل المتعلمون على العلم وهم نشيطون راغبون.

ومن حُسـن الطريقة في التعليم: أن يدخل المعلم على درسه بعض المروِّحات عن النفس من الملح، أو الطرائف أو الأشـعار حتَّى لا تسأم النفوس وتمل القلوب، وكان النبي ﷺ يمزح ولا يقول إلَّا حقًّا[٣].

وقد رُويت عنه ألوان من الدعابة الحلوة التـي تُدخل على القلوب الأنس بلا إسفافٍ ولا إسراف[٤].

---

(١) رواه الدارمي في المقدمة (٤٦٢).

(٢) المصدر السابق (٤٦٣).

(٣) رواه أحمد (٨٤٨١)، وقال مخرِّجوه: إسناده قوي. والترمذي في البر والصلة (١٩٩٠)، وقال: حسن. وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٧٢٦)، عن أبي هريرة بلفظ: «إنِّي لا أقول إلَّا حقًّا». قال بعض أصحابه: فإنَّك تداعبنا يا رسول الله. فقال: «إنِّي لا أقول إلَّا حقًّا».

(٤) راجع كتابنا: فقه اللهو والترويح صـ ٢٢، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

QaradawiBooks.com

وقال علي: «أجمُّوا هذه القلـوب، وابتغوا لها طرائف الحكمة، فإنَّها تملُّ كما تملُّ الأبدان»[١].

وعنه أيضًا: رَوِّحوا القلوب ساعة بعد ساعة؛ فإنَّ القلب إذا أُكره عَمي[٢].

وقـال أبو خالد الوالبي الكوفـي: «كنَّا نجالـس أصحاب النبي ﷺ فيتناشدون الأشعار ويتذاكرون أيامهم في الجاهليَّة»[٣].

وكان القاسـم بن مُحَمَّـد ـ أحد فقهـاء المدينة السـبعة في عصر التابعين ـ إذا أكثروا عليه من المسائل قال: إنَّ لحديث العرب، وحديث الناس نصيبًا من الحديث فلا تكثروا علينا من هذا[٤].

وكان ابن شهاب الزهري يُحدِّث ثم يقول: هاتوا من أشعاركم، هاتوا من أحاديثكم، فإنَّ الأذن مجَّاجة والنفس حمِضة[٥].

وفي هذا اللون من ترويح الأنفس فائدتان:

الأولى: مطاردة السآمة، وإزالة آثار ما يصيب البدن من كلل، والنفسَ من ملل، نتيجة مواصلة الدأب والتكرار اليومي الرتيب، وهو ما أشـار إليه الإمام علي فيما ذكرناه من قوله رضي الله عنه، وفيه يقول الشاعر:

وَالنَّفْسُ تَسْـأَمُ إِنْ تَطَـاوَلَ جِدُّهَا فاكْشِـفْ سَـآمَةَ جِدِّها بمِزَاحِ[٦]

(١) رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق (٧١٩)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٦٥٩).
(٢) إحياء علوم الدين (٣٠/٢).
(٣) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٦٦٤).
(٤) المصدر السابق (٦٦٢).
(٥) المصدر السابق (٦٥٥).
(٦) البيت لعلي الجارم، كما في ديوانه صـ ١٩٦، ط١، نشر دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٦م.

QaradawiBooks.com

والثانية: تنشيط النفس لمواصلة السعي إلى الجد، ومعاناة البحث عن الحقيقة مهما تكن مشقَّة الطريق إليها، وفي هذا قال أبو الدرداء: إنِّي لأستجمُّ نفسي بالشيء من اللهو ليكون أقوى لها على الحق[١].

ولكن ينبغي هنا مراعاة أمرين:

الأوَّل: ألَّا يكون في هذه المُلَح والطُّرف تجاوز أو إسفاف، ممَّا لا يليق بمجلس العلم وأهله، فمجلس العلم ليس مسرحًا أو ملهى.

الثاني: أن تكون بالقدر المناسب بحيث يكون الجد هو الأصل والقاعدة، وهذه هي الاستثناء، فإنَّ كلَّ شيء إذا زاد عن حدِّه انقلب إلى ضدِّه، حتَّى العبادة قد كُره الغلو فيها فكيف بالمباح؟! وكيف باللهو منه؟

وفي هذا جاء عن عليٍّ رضي الله عنه قوله: أعْطِ الكلام من المزاح بمقدار ما تعطي الطعام من الملح[٢].

١٠ ـ استغلال المواقف العمليَّة للتربية والتوجيه:

ومن المبادئ التربويَّة التي ورَّثتها لنا سُنَّة نبيِّنا ﷺ: استغلال المواقف الواقعيَّة، والتصرُّفات العمليَّة التي تقتضي موقفًا تعليميًّا معيَّنًا، وإلقاء توجيهٍ تربويٍّ خاصٍّ؛ ليأخذ المتعلمون منه درسًا إيجابيًّا لا ينسى.

وذلك لارتباطه بالواقع المشاهَد، وصلته بمناسبةٍ لابَسها الناس

(١) مجموع الفتاوى (٣٦٨/٢٨).

(٢) اللطائف والظرائف للثعالبي صـ ١٥١، نشر دار المناهل، بيروت.

QaradawiBooks.com

وعايشـوها، فهنا ترسـخ في الذهن وتثبت في القلب، ولا تحتاج إلى تطويل أو تكرار.

وهكذا كان الرسـول العظيم، لا يدع فرصة من هذه الفرص ـ التي يتيحها القدر للناس في حياتهم ـ تمُرُّ دون أن يجعل منها درسًـا بليغًا، وموعظةً مؤثِّرة، كثيرًا ما تدمع منها العيون وتوجل لها القلوب.

ومن منَّا يجهل موقفه يوم أهمَّ قريشًـا أمرُ المـرأة المخزوميَّة التي سرقت، وعزَّ عليهم أن تنفَّذ فيها عقوبة القطع التي أمر الله بها في كتابه للسارقة وللسارق (جزاءً بما كسبا؛ نكالًا من الله)؟

ولجؤوا إلى أسامة بن زيد حِبِّ رسـول الله، وابن حِبِّه يشفِّعونه في هذا الأمر الخطير: أن يعفي المرأة من حدِّ القطع، ويقبل منها أيَّ غرامة أو عقوبة أخرى. ناسين أنَّ العاطفة شيء، وإقامة حدِّ الله شيء آخر. فكان لا بدَّ من درسٍ مبدئيٍّ يُثبت معنى المساواة في العقوبات، كما هي ثابتة فـي كل التكاليف، ويُزيل أوهـام الفوارق الطبقيَّة بين الناس: أشـرافٍ وعامَّة، ويعلن في قوة أنَّ شرع الله يسود الجميع ويحكم الجميع، وكلمته هي العليا. وكل كلمة عداه هي السفلى.

هنا جاء الدرس التربـويُّ في حينه وفي موضعه، فسـمعته الآذان، وفقهته العقول، ووعته القلوب: «**أتشفعُ في حدٍّ من حدود الله يا أسامة؟ إنَّما أهلك من كان قبلكم أنَّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدَّ، وايْم الله لو أنَّ فاطمة بنت مُحَمَّد سرقت لقطعت يدها**»[1]!

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٥)، ومسلم في الحدود (١٦٨٨)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

ومن نسي فلن ينسى موقفه ﷺ يوم مات ابنه إبراهيم، واتفق أنْ كسفت الشمس في اليوم نفسه، وكانت مناسبةً ليقول قائلون: إنَّها كسفت لموت ابن رسول الله، وكان مثل هذا الاعتقادِ رائجًا في الجاهلية: انكساف الشمس أو القمر لموتِ عظيمٍ من العظماء.

ولو كان ﷺ من أولئك الذين يبنون لأنفسهم ولأسرهم عظمةً زائفةً عن طريق الدجل والمبالغات لسكت على هذا القول، الَّذي يوافق ما كان معروفًا عند الناس، ولكنَّه انتهز الفرصة ليُصحِّح المفاهيم، ويطارد الخرافة، ويقرِّر الحقيقة العلمية النافعة، وقال في وضوح مؤمن، وفي إيمانٍ واضح: «**أيُّها الناس، إنَّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا يخسفان لموت أحدٍ ولا لحياته**»(١).

وقدم يومًا إلى رسول الله ﷺ جماعة من عرب مضر، فقراء بدت عليهم الفاقة والحاجة، وتألم الرسول لمَّا رآهم على هذه الحالة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالًا فأذن وأقام فصلَّى، ثم خطب يحثُّ الناس على الصدقة على هؤلاء ولو بشقِّ تمرة.

وهنا سبق بالفضل رجل من الأنصار ـ بعد أن أمسك الناس ـ وجاء بصرَّة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، وكانت بدايةً طيِّبة، وأسوةً حسنة.

قال جرير، راوي الحديث: ثم تتابع الناس حتَّى رأيت كومين من طعام وثياب، حتَّى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلَّل كأنَّه مُذْهَبة (صحيفة مُنَقَّشة بالذهب).

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (١٠٤٤)، ومسلم في الكسوف (٩٠١)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

وعندئذٍ كان المقام مناسـبًا للتنويه بمن يبدأ فـي عمل خيرٍ يقتدي الناس به فيه: فقال رسول الله ﷺ: «**منْ سنَّ في الإسـلام سُنَّةً حَسنةً فله أجرُها وأجـرُ من عمل بها من بعـده، من غير أن ينقـص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سُنَّةً سيئةً كان عليه وزْرها ووزْر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شـيء**»[(١)]. وبهذا يرتبط العلم بالحياة، ويتصل الدرس بالواقع، ولا يعيـش المعلِّم مع الكتب وحدها بعيدًا عمَّا تمرُّ به الحياة من أحداث.

١١ ـ استخدام الوسائل المُعينة:

ومن المبـادئ التربويَّة الأصيلة في سـنَّة الرسـول المعلم: أن يستعينَ بكل وسيلة بصرية أو سمعيَّة متاحة، ممَّا يساعد على إيضاح الحقيقة المقصودة.

ومن المعروف أنَّ البيئة لم تكن تسـاعد على توفير هذه الوسـائل، والرسـول ﷺ نفسُـه أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، ولكن الَّذي يهمُّنا هنا هو تقرير المبدأ والفكرة أولًا، وتطبيقها في الحدود المتاحة ثانيًا.

وهنا نجد بعض الأمثلة البيِّنة للدلالة على ما نقول:

يروي ابن مسعود رضي الله عنه فيقول: خطَّ رسول الله ﷺ خطًّا بيده، ثم قال: «**هذا سبيل الله مستقيمًا**»، وخطَّ عن يمينه وشـماله ثم قال: «**هذه السبل ليس منها سبيل إلَّا عليه شـيطان يدعو إليه**»، ثم قرأ: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ**﴾ [الأنعام: ١٥٣][(٢)].

---

(١) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٧)، وأحمد (١٩١٧٤)، عن جرير بن عبد الله.

(٢) رواه أحمد (٤١٤٢)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. والنسائي في الكبرى في التفسير (١١١١٠)، =

QaradawiBooks.com

فترى في هذا الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ يُفسِّر لأصحابه الوصيَّة الأخيرة من الوصايا العشر في سورة الأنعام، ولكنَّه لم يقتصر على تفسيرها بالكلام المجرَّد بل استعمل لذلك ما هو ميسور له وهو الرَّمْل، يخطُّ عليه بيده بدل اللوح، وهو هنا يرسم صِراط الله المذكور في الآية الكريمة في صورة خطٍّ مستقيم، ولهذا قال: «**هذا سبيل الله مستقيمًا**»، ويرسم السُّبل الأخرى التي حذَّرت الآية من اتباعها في صورة خطوط متعرِّجة عن يمين الخط الأوسط المستقيم وشماله، ثم يشير إليها قائلًا: «**هذه السبل ليس منها سبيل إلَّا عليه شيطان يدعو إليه**»، ثم يختم هذا التوضيحَ العملي بقراءة الآية الكريمة، فتقع أعظم موقع في نفس السامع المشاهِد وعقله؛ فهنا اشتراك البصر مع السمع في استيعاب معنى الآية، وفهم مراد الله تعالى منها.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله مرَّ بالسوق، والناس كنفتيه ـ أي: عن جانبيه ـ فمرَّ بجدْي أسَكَّ ـ أي: صغير الأذن ـ ميِّت، فتناوله بأذنه ثم قال: «**أيُّكم يحبُّ أنَّ هذا له بدرهم؟**». فقالوا: ما نحبُّ أنَّه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: «**أتحبُّون أنَّه لكم؟**». قالوا: والله لو كان حيًّا لكان عيبًا فيه؛ لأنَّه أسكُّ، فكيف وهو ميت؟! فقال: «**فوالله للدنيا أهون على الله عز وجل من هذا عليكم**»[1].

فانظر ـ يا أخي القارئ ـ كيف بيَّن النبيُّ ﷺ المفهوم الَّذي أراد إيصاله إلى أصحابه مستخدمًا هذه الوسيلة العجيبة من الوسائل المُعينة.

= وابن حبان في المقدمة (٦)، والحاكم في التفسير (٣١٨/٢)، وصحَّح إسناده على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(١) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٥٧)، وأحمد (١٤٩٣٠).

QaradawiBooks.com

إنَّها وسيلة لم يشترها، ولم يصنعها، ولم يتكلَّف أو يفتعِل في الاستعانة بها. إنَّها وسيلة يراها الناس، ويمرُّون بها كثيرًا، ولكنَّ النبيَّ ﷺ أراد أن يتَّخذ منها أداةً لتوضيح قيمة الدنيا التي يتهافت الناس بل يقتتلون عليها.

إنَّ هذا الدرس في تفاهة الدنيا عند الله ـ بجوار الآخرة ـ لا يمكن أن يُمْحى من الذهن أو يُنْسى من الذاكرة لارتباطه بالجدي الأسكِّ الميِّت، وبمسـلك النبيِّ ﷺ وهو يأخذ بأذنه ويسـألهم: أيُّكم يحـبُّ أنَّ هذا له بدرهم؟ ويسألهم حتَّى يقرر لهم الحقيقة المرادة في النهاية: «**والله للدنيا أهونُ على الله من هذا عليكم**».

وغير هذا كثير ممَّا استخدمه النبيُّ ﷺ وسيلة إيضاح أو وسيلة مُعينة على غرس القيمة الدينيَّة والخلقيَّة، أو العقليَّة التي يحرص على تعليمها.

ومن الأسـاليب المعينة على الفهـم والاسـتيعاب، المُثبِّتة للمعنى المطلوب: أسـلوب الإشـارة الحسـيَّة التي يرتبط فيها المعقول بشيء ملموس.

وكان النبي ﷺ كثيرًا ما يستخدم هذا الأسلوب لتنبيه الغافل، وتثبيت المنتبه، ومن أمثلة ذلك:

قوله في الحديث الَّذي رواه مسـلم وغيره: «**التقوى هاهنا**»، وأشار إلى صدره ثلاث مرات[١].

فهذه الإشارة إلى الصدر في بيان حقيقة التقوى ومحلها، أبلغُ كثيرًا من قوله: التقوى محلها القلب، فهذه كلمة قد تمرُّ على الكثيرين دون أن يُلقوا لها سمعًا، أو يلقون سمعًا ولا يُحضرون مع السمع قلبًا.

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، وأحمد (٧٧٢٧)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

ومثله حديث جابر عند مسلم: «**بعثت أنا والساعةَ كهاتين**»، وأشارَ بأصبعيه: السبابة والوسطى وفرَّق بينهما[١].

فهذه الإشارة بأصبعيه في بيان قُرب مبعثه من الساعة لها من الوقع في النفس غير ما يقوله: بُعثت قرب الساعة.

وكذلك حديث البخاري وغيره: «**أنا وكافل اليتيم في الجنَّة هكذا**»، وأشار بالسبابة والوسطى وفَرَّج بينهما[٢].

فهذه الإشارة توضح المراد من الحديث الشريف بأكثر ممَّا تعطيه عبارة معتادة مثل: كافل اليتيم قريبٌ من الرسول في الجنَّة.

ومن ذلك: حديثه لمعاذ بن جبل حين أوصاه بجملة وصايا، ثم قال له: «**ألَا أدلُّك على ملاك ذلك كلِّه؟**». قال: بلى. قال: «**كفَّ عليك هذا**». وأشار إلى لسانه[٣].

إنَّ هذه الإشارة الحسيَّة إلى اللسان تجعل معاذًا، وكل من حضر هذا القول لا ينسى أهمية اللسان وآفاته التي تكبُّ الناس في النار على مناخرهم.

وكل هذه الأمثلة بدَت الإشارة فيها إلى جزء من كيان المعلم نفسه: صدرًا، أو يدًا، أو لسانًا.

---

(١) رواه مسلم في الجمعة (٨٦٧)، وأحمد (١٤٤٣١).

(٢) رواه البخاري في الطلاق (٥٣٠٤)، وأبو داود في الأدب (٥١٥٠)، عن سهل بن سعد.

(٣) رواه أحمد (٢٢٠١٦)، وقال مخرِّجوه: صحيح بطرقه وشواهده. والترمذي في الإيمان (٢٦١٦)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٣)، والحاكم في التفسير (٤١٢/٢، ٤١٣)، وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، عن معاذ بن جبل. وهو الحديث التاسع والعشرون من أحاديث الأربعين النووية.

QaradawiBooks.com

ومن ذلك ما رواه البخاري، عن سهل بن سـعد قال: مَرَّ رَجُلٌ عَلَى النبيِّ ﷺ، فقَالَ لرجل عنده جالس: «**ما رأيك في هذا؟**». قال: رجل من أشـراف الناس، هذا والله حَرِيٌّ إن خطب أن يُنكَح، وإن شَفَعَ أن يُشَفَّعَ. فسكتَ رسـول الله ﷺ، ثمَّ مرَّ رجلٌ، فقال رسول الله ﷺ: «**ما رأيك في هذا؟**». فقال: يا رسـول الله هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حريٌّ إن خطب ألَّا يُنكَح، وإن شـفع ألَّا يُشَـفَّع، وإن قال ألَّا يُسمَع لقوله. فقال رسول الله ﷺ: «**هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا**»[1].

١٢ ـ تَخيُّر أحسن الأساليب:

ومن أدب التعليم ومبادئه في السُّـنَّة النبويَّة: تخيُّـر أفضل الطرائق وأرفق الأسـاليب، وأقربها إلى عقل المتعلِّم وقلبه، وأحسـنها وقعًا في سمعه وبصره.

وذلك لتساعد المعلِّم على حُسـن توضيح ما يريد إعطاءه من العلم لتلاميذه، وحُسن تثبيته في أذهانهم وأنفسهم.

ومن دَرَس السُّـنَّةَ، وعاش فـي كتب الحديث رأى من الأسـاليب التربويَّة، واسـتخدام الوسـائل المعينة ما يحسـب جمهور المشتغلين بالتربية أنَّه شيء غريب عن تراث الإسلام.

فقد يسـتخدم عليه الصلاة والسلام الطريقة الإلقائيَّـة في خطبه العامَّـة، في الجمع والعيدين ونحوها، فهذا ما يقتضيه المقام.

ولكنَّه مع هذا لا يدعها تمرُّ خطبة إلقائيَّة بحتة، بل يُطعِّمها بعناصر تعليميَّة خاصة تشدُّ الأبصار وتجْذب الانتباه وتدعو إلى التركيز.

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٤٧).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وحسبنا أن نذكر هنا أشهر خطبه ﷺ، وهي خطبة حجَّة الوداع التي ألقاها في أكبر جمعٍ حاشدٍ عرفته جزيرة العرب في تلك العصور في يوم النحر بمِنى.

فحين أراد أن يبيِّن لهم حرمة الدماء والأعراض، والأموال لم يسق هذا المبدأ الخطير مساقًا تقريريًّا إلقائيًّا كما يفعل كثيرٌ من الخطباء في خطبهم والزعماء في بياناتهم.

وإنَّما بدأهم بالسؤال الَّذي يُحرِّك الشوق ويثير الانتباه.

يروي أبو بكرة أنَّه ﷺ قعد على بعيره وأمسك بخطام البعير، ثم قال: «**أيُّ يوم هذا؟**». فسكتنا حتَّى ظننَّا أنَّه سيُسمِّيه سوى اسمه. فقال: «**أليس يوم النحر؟**». قلنا: بلى.

قال: «**فأيُّ شهر هذا؟**». فسكتنا حتَّى ظننَّا أنَّه سيسمِّيه بغير اسمه، فقال: «**أليس بذي الحجَّة؟**». قلنا: بلى.

ثم سألهم عن البلد أيضًا فسكتوا، ثم بَيَّن لهم أنَّه البلد الحرام، ثم قال: «**فإنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام كحُرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا**»[(١)].

قال القرطبي في شرح مسلم: «سؤاله ﷺ عن الثلاثة، وسكوتُه بعد كل سؤال منها كان لاستحضارِ فهومهم، وليُقبلوا عليه بكلِّيَّتهم، وليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه، ولذلك قال بعد هذا: «**فإنَّ دماءكم**» إلخ؛ مبالغة في بيان تحريم هذه الأشياء»[(٢)].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الحج (١٧٤١)، ومسلم في القسامة (١٦٧٩). انظر: الفتح (١٥٨/١).

(٢) المفهم (٤٧/٥)، تحقيق محيي الدين ديب ميستو وآخرين، نشر دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، ط١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

QaradawiBooks.com

ومناط التشبيه في قوله: «**كحُرمة يومكم هذا**» وما بعده: ظهوره عند السامعين، لأنَّ اليوم والشهر والبلد كان ثابتًا في نفوسهم، مقرَّرًا عندهم بخلاف الدماء والأموال والأعراض، وكانوا في الجاهليَّة يستبيحونها، فبيَّن لهم أنَّ تحريم دمِ المسلم وماله وعرضه أعظم من تحريم البلد والشهر واليوم[١].

والمقصود هنا أنَّه ﷺ لم يسرد خطبته سرْدًا، ولم يُلق بيانه إلقاءً رتيبًا يثير الملل، ويبعث على النوم، بل حرَّك بأسئلته العقول، وأشرك المخاطَبين معه، فاشرأبَّت إليه الأعناق، وَرَنَتْ له الأبصار، وأنصتَت له الآذان. وفي ختام خطبته يُشهدهم على أدائه الأمانة وتبليغه الرسالة، بنفس هذا الأسلوب: «**ألَا هل بلغت؟**». فتَجاوبت معه الأصوات من كل جانب: أن نعم. قال: «**اللهُمَّ فاشهد. فليبلِّغ الشاهد منكم الغائب**».

ومن الأساليب الناجحة في التأثير والإقناع: التشبيهُ وضرب الأمثال بحيث يظهر المعقول في صورة المحسوس، والغامض البعيد في صورة الواضح القريب.

والدارس للسُّنَّة يجدها حافلة بالعديد من التشبيهات والأمثال التي تمثل ذِروة البلاغة البشريَّة وقمَّة الروعة الأدبيَّة، والرسولُ ﷺ في هذا يقتدي بالقرآن الكريم في تشبيهاته وأمثاله.

وفي «الجامع الصغير» للسيوطي فقط نجد (٤٢) اثنين وأربعين مثلًا، وكل واحد منها وكأنَّما هو مُعلِّم يشرح ويُوضِّح ويقرِّب.

يكفي أن أذكر نماذج قليلة منها:

---

(١) فتح الباري (١/١٥٩).

QaradawiBooks.com

«مثل الَّذي يُعلِّم الناس الخير وينسى نفسه، مثل الفتيلة: تضيء للناس وتحرق نفسها»[(١)].

«مثل المؤمن مثل النَّحلة: إن أكلت طيِّبًا وإن وضعت طيِّبًا، وإن وقعت على عود لم تكسره»[(٢)].

«مثل المنافق كمثل الشاة العائرة ـ المتردِّدة المتحيرة ـ **بين الغنمين: تعير إلى هذه مرَّة وإلى هذه مرَّة لا تدري أيهما تتبع»**[(٣)].

«إنَّما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارًا، فلمَّا أضاءت ما حوله جعل الفراش، وهذه الدوابُّ التي تقع في النار يقعنَ فيها، فجعل الرجل يزَعُهنَّ ويَغلبْنه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحُجَزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها»[(٤)].

ولم يذكر السيوطي في «الجامع» أمثالًا أخرى مشهورة، منها ما في «الصحيحين»:

«مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهَموا على سفينة» الحديث[(٥)]، ومنها: **«مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل**

---

(١) رواه الخطيب في اقتضاء العلم العمل (٧١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٦٩): رواه الطبراني في الكبير، وفيه محمد بن جابر السحيمي، وهو ضعيف لسوء حفظه واختلاطه. وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٣٧)، عن أبي برزة.

(٢) رواه أحمد (٦٨٧٢)، وقال مخرِّجوه: صحيح لغيره. والطبراني (٥٩١/١٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨١٢١): رجاله رجال الصحيح غير أبي سبرة، وقد وثقه ابن حبان. عن عبد الله بن عمرو.

(٣) رواه مسلم في صفات المنافقين (٢٧٨٤)، وأحمد (٥٠٧٩)، عن ابن عمر.

(٤) متَّفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٨٣)، ومسلم في الفضائل (٢٢٨٤)، عن أبي هريرة.

(٥) رواه البخاري في الشركة (٢٤٩٣)، عن النعمان بن بشير.

QaradawiBooks.com

بنى بيتًا فأتمَّه وأحسـنه» الحديث[١]. ولهذا سـمَّاه «الجامع الصغير»؛ لأنَّه لم يقصد منه الاستيعاب.

ومن الأساليب المؤثرة في الأنفس والعقول كذلك: أسلوب القصَّة، ولذا عُنيَ بها القرآن، وقـصَّ علينا من أنباء الرسـل، وأخبار المؤمنين وصراعهـم مع أهـل الكفر والطغيـان، ما يُثبِّـت الفـؤاد ويدفع ريب المرتابين، ويهدي الحائرين، ويزيد الذين اهتدوا هُدًى.

وكذلك استخدام الرسول القصَّة في تبيين قيم ومعاني معينة وتثبيتها، مثل: بيان أثر الإخلاص في نجاة الإنسـان من المهالـك كما في قصَّة الثلاثة أصحاب الغار[٢].

ومثل بيان أثر الشـكر في بقاء النعمة وكفر النعمة في زوالها كقصَّة الأعمى والأبرص والأقرع[٣].

ومثل بيان عاقبة الرحمة ولو كانت لحيوان أعجم مثل الكلب كما في قصة الَّذي سـقى كلبًا يلهث من شدَّة العطش فشـكر الله له فغفر لـه[٤]. إلى غير ذلـك من القصـص المنشـورة في كتـب الحديث وما أجدرها أن تُجمع[٥].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٥٣٥)، ومسلم في الفضائل (٢٢٨٦)، عن أبي هريرة.
(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٧٤)، ومسلم في الرقاق (٢٧٤٣)، عن ابن عمر.
(٣) متَّفق عليه: رواه البخـاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦٤)، ومسـلم فـي الزهد (٢٩٦٤)، عن أبي هريرة.
(٤) متَّفق عليه: رواه البخاري في المظالم والغضب (٢٤٦٦)، ومسـلم في السـلام (٢٢٤٤)، عن أبي هريرة.
(٥) حاول ذلك مشكورًا منذ عدة سنوات الشـيخ الصالح محمد خليل الخطيب، وأعتقد أن كتابه نشر.

QaradawiBooks.com

١٣ ـ إثارة الانتباه بالسؤال والحوار:

وما أكثر ما استخدم الرسول المعلِّم الطريقة الاستنباطيَّة لاستخراج الحقيقة العلميَّة المنشودة من أفواه المتعلِّمين أو على الأقل تفتيح أذهانهم لتلقِّيها بعد تَشوُّق النفوس لها، وتطلُّع العقول إلى معرفتها. وذلك عن طريق طرح السؤال عليهم؛ ليجيبوا عنه إن استطاعوا أو يسمعوا الإجابة الصحيحة منه ﷺ.

ذكر الإمام البخاري في «صحيحه» بابًا بعنوان (باب طرحِ الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم)، وأخرج فيه حديث عبد الله بن عمر: أنَّ النبيَّ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ من الشجر شجرة لا يسقطُ ورقُها** ـ أي: لا في الشتاء ولا الصيف ـ **وإنَّها مِثلُ المسلم، فحَدِّثُونِي: ما هي؟**». قال: فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله: ووقع في نفسي أنَّها النخلة، ثمَّ قالوا: حَدِّثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: «**هي النخلة**»[1].

فها هو عليه السلام لم يُلق عليهم هذه الحقيقة إلقاءً تقريريًّا: أنَّ المسلم مثل النخلة. بل أراد أن يستثير دفائن ما عندهم، ويلفتهم إلى ملاحظة ما حولهم، ويشركهم معه في البحث. وبهذا لا يصبح المتعلِّم مُجرَّد جهاز تسجيل ينفعل ولا يفعل، ويتلقَّى ولا يفكر. بل هو كائن حيٌّ عاقل يبحث ويفكر، ويحاور ويناقش، ويخطئ ويصيب.

وذكر ابن كثير في تفسيره حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدِّه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيُّ الخلق أعجب إليكم إيمانًا؟**». قالوا: الملائكة. قال: «**وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟**». قالوا: فالنبيُّون.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (٦٢)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨١١)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

قال: «**وما لهـم لا يؤمنون والوحيُ ينـزل عليهم؟**». قالـوا: نحن. قال: «**وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟**». قال: فقال رسـول الله ﷺ: «**أَلَا إنَّ أعجب الخلق إليَّ إيمانًا لقوم يأتون من بعدكم، ويجدون صحفًا فيها كتاب يؤمنون بما فيها**»[١].

فلم يذكر لهم الرسـول ﷺ ما يريـد بيانه لهم إلَّا بعـد هذا الحوار الممتع، وطرح السؤال، ومناقشة الأجوبة حتَّى إذا تشوَّقت النفوس إلى معرفة الحقيقة جاءت على لسانه ﷺ ناصعةً جليَّة.

وممَّا كان يستخدمه ﷺ للتشويق وإثارة الانتباه: أن يسألهم عن معاني بعض الألفاظ المعروفة معانيها عندهم، فيجيبوه بما يعرفونه من معانيها المشـتهرة بينهم، فإذا فعلوا بادر إلى تفسـيرها لهـم بإعطائها المدلولَ الجديد الَّذي يريده، وهو في الغالب مدلول مجازيٌّ قد لا يلتفتون إليه، ولكنَّه عند النبي ﷺ أحق أن يفهم من اللفظ.

وذلك كقوله لأصحابه يومًا: «**ما تعدون الصُّرَعَة فيكم؟**». قالوا: الَّذي لا تصرعـه الرجال. قـال: «**ليس ذلك، ولكـن الَّذي يملك نفسـه عند الغضب**»[٢].

---

(١) رواه الحسـن بن عرفة في جزئه (١٩)، والبيهقي في دلائل النبوة (٥٣٨/٦)، والخطيب في شرف أصحاب الحديث صـ ٣٢. قال ابن كثير في تفسـيره (١٦٧/١): قال أبو حاتم الرازي: المغيرة بن قيس البصري منكر الحديث.
قلت (ابن كثير): ولكن قد روى أبو يعلى في مسنده (١٦٠)، وابن مردويه في تفسيره، والحاكم في مستدركه (٨٥/٤)، من حديث محمد بن أبي حميد، وفيه ضعف، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر، عن النبي ﷺ، بمثله أو نحوه. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وقد روي نحوه عن أنس مرفوعًا. رواه البزار (٧٢٩٤)، وقال: غريب من حديث أنس.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٦٠٨)، وأبو داود في الأدب (٤٧٧٩)، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

ومثل ذلك قوله: «**أتدرون من المفلس؟**». قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «**المفلس مِن أمَّتي مَن يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا؛ فيُعْطَى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقْضَى ما عليه أخذ من خطاياهم فطُرحت عليه، ثم طُرح في النار**»[(١)].

ونحو هذا أن يلقي إليهم عبارة يُستنكر ظاهرها ليسألوا عن المراد منها، فيأتي الجواب مصحِّحًا المفهوم الخاطئ لها، فيتمكَّن المعنى من النفس فضل تمكُّن.

وفي هذا جاء الحديث الصحيح المشهور: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**». وكانت هذه كلمة متداولة في الجاهلية العربية أشبه بالمثل السائر، دلالةً على الانتصار للعصبيَّة، ودفاع كلِّ امرئ عن قومه، على حقٍّ كانوا أو على باطل. ولأجل هذا حين قال النبيُّ ﷺ هذه الكلمة وقفوا منها موقف الدهشة والاستغراب؛ فالإسلام قد جاء بالعدل المطلق، ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ [المائدة: ٨]، وبرِئ من العصبية بكل ألوانها، فكيف يُقرُّ الرسول الَّذي جاء بالهدى ودين الحق هذه الكلمة الجاهلية؟ ولا عجب أن بادر الصحابة رضي الله عنهم بالسؤال والاستفهام قائلين: يا رسول الله: ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا؟!

فقال ﷺ: «**تمنعه من الظلم، فذلك نصرٌ له**»[(٢)].

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٨١)، وأحمد (٨٨٤٢)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري في الإكراه (٦٩٥٢)، عن أنس.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فهذا تعديلٌ أساسيٌّ في مفهوم النصرة للأخ والقريب، فإنَّ إعانته على الظلم، وتأييده في الباطل، معناه: جرُّه في الدنيا إلى كوارث وفي الآخرة إلى النار، أمَّا منعه من الظلم فهو إبعادٌ له عن الشـيطان، وتقريبٌ له من الرحمٰن، وزحزحةٌ له عن النـار، وإدْناءٌ له من الجنَّة، ولهذا كان هذا هو النصر الحقيقي له.

ولكن هـذا المعنى الكبير لو ألقـي إليهم تقريرًا ما اسـتثار اليقظة الفكرية التي واجه بها الصحابة الكلمةَ المشهورة، وجعلتهم يعجبون من ظاهرها، وينكرونه، ويسألونه عن المراد حتَّى يفهموا ويقتنعوا.

ويدخل في هـذا الباب بعض العبـارات التي كان يلقيها الرسـول المعلِّم بصورة تشـدُّ الانتباه شـدًّا كمثل قوله يومًا عند أصحابه: «**والله لا يؤمن! والله لا يؤمن! والله لا يؤمن!**». هكذا بصيغة القسم، وبالتكرار الَّذي يفيد التأكيد أيضًا بضمير الغائب الَّذي لا يعود على مذكور أو أحد معروف؛ فالفعل المنفي حتمًا لا يُعرف منْ فاعلُه، ولهذا قالت الصحابة حين سمعت هذه الجملة العجيبة المكرَّرة: قيل: من يا رسول الله؟ فقال عليه صلوات الله وسـلامه: «**مـن لا يأمن جارُه بوائقَـه**»[1]. ألَا ما أعظم الفرق بين تأثير هذه الجملة: «**لا يؤمنُ مـنْ لا يأمن جارُه بوائقَه**». حين تُذكر جملة تقريريَّة خبريَّة كالمعتـاد، وبين تأثيرها حين ذُكرت بالصورة التي ذكرها النبيُّ ﷺ.

والمهم بعد ذلك كله: أن يكون المعلِّمُ مؤمنًا بمهنته، مُحبًّا لرسـالة العلم، راغبًا في الارتقاء بتلاميذه، شاعرًا بأبوَّته لهم وبنوَّتهم له، حريصًا

(١) رواه البخاري في الأدب (٦٠١٦).

QaradawiBooks.com

على أن يبلغ ما في نفوسهم، وأن يبلِّغهم ما في نفسه، متفنِّنًا في بيان ذلك بكل طريقة ميسورة، ولو بالكلمة بشرط أن تكون مُبينةً مُشرقة.

وكذلك كان ﷺ حريصًا على أن يبين عمَّا في نفسه أبلغ الإبانة، وأن يُفهَم عنه ما يريد، ولا يدع سامعه حتَّى يفهم عنه.

أعان على ذلك أسلوبه البليغ في القول الَّذي بلغ قمَّة البيان البشري، في إصابة المعنى وحُسن التعبير، وموافقة المقال للمقام، كما أعانه طريقته الحَسنة في الأداء التي تختلف من شخص لآخر، ومن ظرف إلى ظرف.

وعن عائشة رضي الله عنها، أنَّ النبيَّ ﷺ كان يحدِّث حديثًا لو عدَّه العادُّ لأحصاه[١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان كلام رسول الله ﷺ كلامًا فصْلًا يفهمه كل من يسمعه[٢].

وعن أنس، أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا تكلَّم بكلمة أعادها ثلاثًا؛ حتَّى تُفهم عنه[٣].

وكان أصحابه الذين تلقوا عنه، واقتبسوا من مشكاته، يسيرون على هدْيه في تعليم الخلق، وهدايتهم إلى الحقِّ، والافتنان في الأساليب التي تعينهم على الوفاء بما يقصدون، من إنارة الألباب وتزكية الأنفس.

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٥٦٧)، ومسلم في الزهد (٢٤٩٣).

(٢) رواه أحمد (٢٦٢٠٩)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. وأبو داود في الأدب (٤٨٣٩)، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠١٧٣)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٠٩٧).

(٣) رواه البخاري في العلم (٩٥).

QaradawiBooks.com

وأكتفي بهذه الصورة الحيَّـة من صُور التعليم الذكـي أبدعها فكر الصحابي المُفتَرى عليه أبي هريرة رضي الله عنه.

فعن أبي هريرة أنَّه مرَّ بسـوق المدينة، فوقف عليهـا فقال: يا أهل السـوق، ما أعجزَكم؟ قالوا: ومـا ذاك يا أبا هريرة؟ قـال: ذاك ميراث رسول الله ﷺ يُقسَّم وأنتم هنا؟ ألَّا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه؟ قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجد فخرجوا سراعًا، ووقف أبو هريرة لهم حتَّى رجعوا، فقال لهم: ما لكم؟ فقالوا: يا أبا هريرة، قد أتينا المسجد، فدخلنا فيه، فلم نر فيه شيئًا يُقسم! فقال لهم: وما رأيتم في المسجد أحدًا؟ قالوا: بلى، رأينا قومًا يصلُّون، وقومًا يقرؤون القرآن، وقومًا يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم: ويحكم! فذاك ميراث مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام[1].

فأَكْرِمْ بمدرسةٍ خرَّجت مثل هؤلاء العلماء المعلِّمين!

* * *

(١) رواه الطبراني في الأوسط (١٤٢٩)، وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (١٣٨)، وكذا الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٠٥)، وحسَّـنه الألباني فـي صحيح الترغيب والترهيب (٨٣).

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

آثار وثمار

هذه التعاليم النبويَّة الهادية، التي عرضنا جملة وافرة منها حول العلم والتعليم والتعلم والتعليم ـ ولا نزعم أنَّنا استوعبنا كل ما جاء فيها ـ لم تكن مجرَّد حبر على ورق، بل كانت لها آثارها ونتائجها على أرض الواقع الإسلامي، ولا عَجَب، فهي ليست محض كلام يقال، بل هي دين يُعتقد، ومنهاج يُتَّبع، وأوامر تُطاع، وتعليمات تنفَّذ، ودعوة تلبَّى.

وكان لهذه الدعوة إلى العلم، والإشادة به، والتَّنويه بأهله، والتَّحريض على طلبه ثمرات جمَّة، وآثار واضحة في الحياة الإسلاميَّة، منها:

١ ـ أنَّا وجدنا الصحابة يحرصون أبلغ الحرص على التزوُّد من العلم، والاغتراف من منهل النبوة، مجتهدين في ذلك بكل الوسائل الميسورة لديهم.

يقول عمر بن الخطاب: كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد (يعني: في منطقة سكناهم) وهي من عوالي المدينة، وكنَّا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ينزل يومًا، وأنزل يومًا، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك[1].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (٨٩)، ومسلم في الطلاق (١٤٧٩).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

هكذا كانوا في حياة النبيِّ ﷺ وبعد وفاته عليه الصلاة والسلام، كان يسأل بعضهم بعضًا، ويأخذ بعضهم عن بعض، ويرحل بعضهم إلى بعض، قاطعًا الفلوات، أو راكبًا البحار، ولو من أجل حديث واحد، فيتلقَّاه من مصدره المباشر، الَّذي سمعه من النَّبيِّ ﷺ كما فعل جابر بن عبد الله الأنصاري وغيره.

وكذلك مضى التابعون من بعدهم على نهجهم.

وروى الدارمي بسند صحيح عن بسْر بن عبد الله قال: إن كنت لأركب إلى مصر من الأمصار في الحديث الواحد لأسمعه[1].

وعن أبي العالية قال: كنَّا نسمع الحديث عن الصحابة، فلا نرضى حتَّى نركب إليهم فنسمعه منهم[2].

وهكذا كانت سنَّة العلماء بعدَهم: الاجتهاد في حذف الوسائط أو تقليلها، والعلوُّ بالإسناد، لأخذ العلم من مصدره الأول أو أقرب المصادر إليه، ما استطاعوا.

وقد ذكرنا في حديثنا عن التعليم نماذج من رحلة علماء المسلمين في طلب العلم ومعاناتهم في تحقيقه ما أصبح مضْربَ الأمثال.

٢ ـ أصبحت مساجد المسلمين حيثما وجدت دورًا للعلم، ومدارس للتعليم، فما من مسجد أنشئ إلَّا أصبحت فيه حلقة أو أكثر، يجلس فيها طلبة العلم إلى شيوخهم في علوم الدين، أو اللغة، أو الأدب، أو التاريخ، أو الإنسانيَّة، أو غير ذلك ممَّا يهم الناس في دينهم أو دنياهم.

(١) رواه الدارمي في المقدمة (٥٨٢).

(٢) انظر: فتح الباري (١٩٢/١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وهكذا كانت المساجد أو الجوامع الإسلامية «جامعات شعبيَّة» مفتوحة الأبواب صباحًا ومساءً، وصيفًا وشتاءً، لكلِّ راغب في الاستفادة من مجالسها وحلقاتها، كبيرًا وصغيرًا، رجلًا أو امرأةً، حرًّا أو عبدًا، أبيض أو أسود، غنيًّا أو فقيرًا، ليس لهذه الجامعة رسوم ولا نفقات ولا قيود، إلَّا الرغبة في العلم، والإصرار على التعليم والاستمرار فيه.

وقد تطوَّرت هذه الجامعات الشعبيَّة فيما بعد إلى جامعات علمية، لها أساتذتها وطلابها ورؤساؤها وأوقاتها ونظامها، كما في جامعة القرويين في فاس بالمغرب، وجامعة أو جامع الزيتونة في تونس، وجامعة أو جامع الأزهر في مصر. وتعدُّ هذه أقدم الجامعات في العالم كله. وقد ظلَّت هذه الجامعة محتفظة بخصيصتها الإسلاميَّة. إنَّها لكلِّ الناس، ليست محتكرة لجنس، ولا للون، ولا لطبقة، فلم يُحرم منها الموالي ولا الفقراء ولا المكفوفون، ونحوهم من الفئات الضعيفة بالمجتمع.

٣ ـ كان المسلمون هم أول من أنشأ المدارس النظاميَّة للتعليم المنهجي، ولم يعْرف التاريخ قبل المسلمين «مدرسة» بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة اليوم. مثل المدرسة النظاميَّة وغيرها من المدارس التي أسَّسها الأمراء والسلاطين، وأهل الخير من المسلمين في شتى العهود الإسلامية.

٤ ـ قامت حركة تأليفٍ واسعةٍ في شتَّى العلوم. بدأت أول الأمر بالعلوم الدينيَّة من حديث، وتفسير، وفقه، وأصول، وآداب، وزهد، وعقائد، وغيرها من كل ما يشرح الدين، ويوضِّح حقائقه أو يردُّ أباطيل خصومه.

QaradawiBooks.com

وكانت هناك علوم أخرى لخدمـة هذه العلوم، كعلوم اللغة والآداب والتاريخ ونحوها، ولهذا سـمَّوها العلومَ الآلية؛ لأنَّها وسـائل، والعلوم الدينيَّة مقاصد.

ونشأت بعد ذلك علوم أخرى، جاءت نتيجة التلاقي الفكري الَّذي بدأ بالترجمة من تراث الأمم الأخرى، واختلاط المسلمين بغيرهم من حاملي الثقافات المختلفة، فظهرت كتبٌ في الفلسفة، والطب، والفلك، والهندسـة، والكيمياء والطبيعة، والنبـات، والجغرافيـا، والتصوف، والتربية وغيرها.

وقد طوَّر المسلمون ما نقلوه من هذه العلوم، وهذَّبوه وأضافوا إليه، وابتكروا علومًا جديدة، واكتشـفوا حقائق لم تكـن معروفة، وصحَّحوا أوهامًا كانت شـائعة، وسـجَّلوا ذلك في كتبهم التي بلغت مبلغًا هائلًا، والتي أفنَوا في تصنيفها أعمارهم، وإن ضاع ـ للأسـف الشديد ـ أكثرها في الكـوارث والمحن التي أصابت الأمة الإسـلامية على يـد التتار، والصليبيين، والفِرنجة في بغداد، والأندلس وغيرهما.

كانت العصور الوسطى عند الغربيين التي يسمُّونها «عصور الظلام» كانت بالنسبة للمسلمين عصور النور، والازدهار العلمي والحضاري.

كانت اللغة العربية هـي اللغة الوحيدة في العالـم في تلك القرون لتدوين العلم ونشره وتداوله.

كانت الجامعات الإسلامية في الأندلس، وصقليَّة وغيرها هي مراكز العلم والتعليم الراقي فـي العالم، وكان طلاب العلـم يفِدون إليها من أنحاء أوربا، ليتتلمذوا على أساتذتها، ويقتبسوا من نورها.

QaradawiBooks.com

كانت أسماء العلماء المسلمين أشهر الأسماء في دنيا المعرفة والعلم، بل هي الأسماء الوحيدة التي يتحدَّث عنها أهل العلم في المعاهد والمجامع والحلقات مثل ابن رُشد، الخوارزمي، ابن الهيثم، ابن حيَّان، الرازي، ابن سينا، الغزالي، البيروني، الزهراوي، ابن النفيس، وغيرهم وغيرهم.

كانت المراجع العلميَّة الإسلاميَّة هي المراجعَ العالمية في تخصصاتها المختلفة، وظلَّت كذلك لعدة قرون، مثل «القانون» لابن سينا، و«الحاوي» للرازي، و«الكليَّات» لابن رشد، وكلها في علم الطب. وكتاب الخوارزمي في الجبر والمقابلة، وكتب ابن الهيثم في البصريات. وغيرها.

لقد سبق العلماء والمفكرون والمسلمون الأصلاء إلى نقد منطق أرسطو الصُّوري القياسي قبل أن ينتبه لذلك فلاسفة الغرب بقرون، وكتب في ذلك الإمام ابن تيمية كتابه الرائد المبتكر ـ بل كتابيه ـ في نقض المنطق الأرسطي، الَّذي وصفه بأنه لا يحتاج إليه الذكي، ولا ينتفع به البليد.

٥ ـ قرَّر الفقهاء ـ على اختلاف مذاهبهم ـ في ضوء الأدلة الشرعيَّة جملة من الأحكام، يبدو بها مدى ما للعلم وتعلُّمه وتعليمه ونموِّه واستمراره من قيمة وأهمية في نظر الشريعة الإسلامية.

من ذلك:

أ ـ أنَّ نفقة طالب العلم واجبة على أبيه الموسر، وإن كان الطالب قادرًا على كسب قُوته بتجارة، أو احتراف، أو غير ذلك؛ لأنَّ الاشتغال بها يقطعه عن التفرغ لطلب العلم، فوجبت نفقته على أبيه كما تجب عليه لأولاده الصغار.

QaradawiBooks.com

ب ـ أنَّ المتفرِّغ لطلب العلم يجوز له أن يأخذ من الزكاة، وإن كان قويًّا على الكسب، على حين أنَّ المتفرِّغ للعبادة ممَّن يقدر على الكسب لا يجوز له أن يأخذ منها، عملًا بحديث: «**لا تحلُّ الصدقة لغني ولا لذي مِرَّة سويٍّ**»[1].

والفـرق بينهمـا: أنَّ العبـادة لا تحتاج إلـى تفرغ وانقطـاع لها، ولا رهبانية في الإسلام، بخلاف العلم الَّذي يحتاج إلى انقطاع له حتَّى يحسنه، كما أنَّ عبادة المتعبِّد لنفسـه، أمَّا علم المتعلِّم فله وللمجتمع من حوله.

ج ـ أنَّ كتـب العلم لأهلها مـن علماء وطلاب تُعتبـر من الحوائج الأصليَّة لهم، فلا تدخل قيمتها في اعتبار الغنى المُوجب للزكاة، ولا بدَّ أن يكون النصاب المملوك فاضلًا عنها.

كما أنَّها تعتبر من تمام الكفاية للعالـم، أو لطالب العلم، فلا بدَّ أن توفر له من النفقة أو من الزكاة إذا أعطي من الزكاة، شأنُها شأن المسكن والأثاث والملبس وآلة الاحتراف للمُحترف.

وإنَّما اعتبر علماؤنا كتب العلم من الحوائـج الأصليَّة، لأنَّ الحاجة الأصليَّة عندهم ما يدفع الهلاك عن الإنسـان تحقيقًا أو تقديرًا. والجهل عندهم بمنزلة الهلاك، أي هو موتٌ أدبيٌّ.

ومن هنا قرَّروا أيضًا: أنَّه لا يلزمـه بيع كتبه ليتمكن من أدائه فريضة الحـج، إذا لم يكن يملك من المـال ما يكفيه لنفقات السـفر والإقامة

(١) رواه أحمد (٦٥٣٠)، وقال مخرِّجوه: إسـناده قوي. وأبو داود (١٦٣٤)، والترمذي (٦٥٢)، وقال: حسـن. كلاهما في الزكاة، وصحَّحـه الألباني في صحيح أبـي داود (١٤٤٤)، عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

هناك، كما أنَّ الغارم ـ المدين ـ الَّذي يُحكم بإفلاسه لمصلحة الدائنين، تترك له كتبه إذا كان من أهل العلم.

د ـ وما قرَّروه في باب الزكاة كذلـك: أنَّ الأصل في الزكاة ألَّا تنقل من إقليم إلى إقليم، ولكن في حالات لاعتبارات معيَّنة يجوز النقل، كما إذا نقلت لطالب علم محتاج، كمـا اعتبر بعضهم طالب العلم داخلًا في (سبيل الله) وبذلك اعتبروا طلب العلم ضربًا من الجهاد.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

خاتمة

لقد بيَّنت لنا الدراسة السابقة مجموعة من الحقائق المهمة، أبرزها:

١ ـ أنَّ السُّنَّة المحمديَّة نبعٌ سخيٌّ، ومصدرٌ ثريٌّ، للأمة الإسلامية، دائم العطاء، متجدِّد النفع، وليس ذلك في الناحية التشريعيَّة فقط، كما يقال دائمًا: السُّنَّة هي المصدر الثاني للتشريع، بل هي مصدرٌ أيضًا لإرشاد الفكر، وتوجيه السلوك، وبناء الحضارة الإنسانية على أقوى الدعائم.

ولذا تكون كل محاولة للنَّيْل من السُّنَّة أو التشكيك فيها، ليست إلَّا محاولة لضرب بنيان الإسلام من قواعده، وتهديمًا لمقوِّمات الحياة الإسلامية الحقَّة، وينتهي إلى إنكار القرآن ذاته، إذ لا يفهم القرآن بدون السُّنَّة؛ لأنَّها هي البيان النظري والعملي لكتاب الله، وقد كلَّف الله تعالى رسوله أن يبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم. كما أنَّ كل خدمة للسُّنَّة وتجلية لحقيقتها، هي في النهاية خدمة للقرآن، والإسلام، والأمة الإسلامية بلا ريب.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

٢ ـ أنَّ العلم في نظر القرآن والسُّـنَّة ليس خصمًـا للدين، ولا ضدًّا للإيمان، ولم يعرف المجتمع الإسـلامي ما عرفته مجتمعات أخرى من الصراع بين العلم والدين، ومن اعتبار العلم مقابلًا للإيمان؛ فالحقيقة أنَّ العلم عندنا دين، والدين عندنا علم، والعلم في حضارتنا دليل الإيمان، وإمام العمل، وباب السعادة في الآخرة والأولى.

ولهذا قرَّر علماؤنا الكبار الاتصال بين الشـريعة والحكمة، وموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول.

٣ ـ أنَّ الإسـلام لا يضيق بالعلم التجريبي، بل يحترمه ويدعو إليه، ويصنع المناخ النفسـيَّ والفكريَّ الملائم لازدهاره. مثل: تكوين العقلية العلمية الموضوعية (التي ترفض اتِّباع الظنِّ والهوى والتقليد)، وإشاعة التعلم والكتابة والقراءة، والحث على تعلم لغات الآخرين عند الحاجة، واسـتخدام أسـلوب الإحصاء وأسـلوب التخطيط لمواجهة احتمالات المستقبل. وإقرار مبدأ التجربة في شؤون الدنيا، والنزول عند رأي أهل الخبرة في مجال خبرتهم، واقتباس كل علم نافع من أهله، واحترام سنن الله تعالى في الكون، والحملـة على الأوهام والخرافـات والمتاجرين بالكهانة والعرافـة، إلخ. وكل هذا أتـاح للعقل أن يفكِّـر، وللعالِم أن يبحث، وللعلم أن يزدهر.

٤ ـ أنَّ الإسـلام ـ في ضوء ما جاءت به السُّـنَّة ـ لا يفصل بين العلم والأخلاق، فالعلم وإن كان مفضلًا في ذاته، ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، فهو يراد للعلم، والعلماء إنَّما يضيئون الحياة بالمعـارف والأخلاق جميعًـا. ومن هنا ركَّزت السُّـنَّة على أخلاقيَّـات العلم ومسـؤولية العلماء، حتَّى لا يكونـوا كعلماء بني

QaradawiBooks.com

إسـرائيل الذين كانوا يأمرون الناس بالبر، وينسـون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب!

٥ ـ أنَّ طلـب العلـم فريضـة على كل مسـلم ومسـلمة، والعلم المفروض هنا يعني الحدَّ الأدنى الَّذي لا بدَّ منه، سواء كان علم الدين، أم علم الدنيا. والحـدُّ الأدنى لعلم الدنيا يتمثل فـي محو الأمية التي أصبح بقاؤها وانتشـارها في العالم الإسـلامي، وصمة عار في جبين الأمة الإسـلامية، يجب أن تمحى. وعلى علماء المسـلمين أن يعلنوا وجوب التخلُّص شـرعًا من هـذا المنكر الَّذي وصـم أمتنا بالتخلُّف والعجز، في مواجهة أمم الحضارة، ولن تؤدي أمتنا رسـالتها، وتثبت وجودها وأسـتاذيَّتها، كما أمر الله، إلَّا بتعليم أبنائها جميعًا، وما لا يتم الواجب إلَّا به فهو واجب.

٦ ـ أنَّ الإسلام ـ في ضوء ما فصَّلته السُّنَّة ـ قد وضع مبادئ وأُسُسًا للتعلُّم والتعليم سـبق بها أفضل ما يباهي به عصرنـا ومفكروه من قيم تربوية، في جانب التعلم أو التعليم. مثل: مبدأ استمرار التعلم أو طلب العلم من المهد إلى اللحـد، ومبدأ التخصص في أحـد العلوم، ومبدأ التوقير للمعلم، والرفق بالمتعلم، والتدرج في التعليم، ومراعاة الفروق، والإشفاق على المخطئ وتشجيع المحسن، واستخدام الوسائل المعينة، وغير ذلك.

٧ ـ أنَّ هذه التوجيهات وتلك التعاليـم، قد آتت أُكلها، في تكوين الفرد المسـلم، والمجتمع المسـلم، ونشـأ في ظلالها العقل المسلم المتميِّز، الَّـذي يجمع بين العلـم واليقين، فهو يؤمـن بعالم الغيب، ويسـخِّر بعلمه عالَم الشـهادة، وبهذا ازدهـرت العلـوم الكونيَّة كما

QaradawiBooks.com

ازدهرت العلوم الدينيَّة، وقامت نهضة علميَّـة، تتلمذ عليها العالم كله لعدة قرون، وتركت آثارًا لا زال بعضها مكنونًا إلى اليوم يحتاج إلى من يُحييه ويجلو الصدأ عنه.

فهذا هو ديننا، وهذا هو علمنا، والحمد لله الَّذي هدانا لهذا، وما كنَّا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

❊ ❊ ❊

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

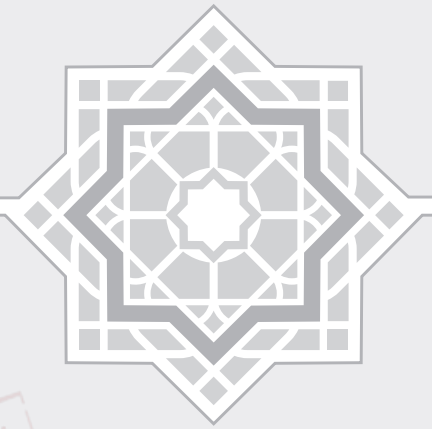

الفهارس العامة

- فهـرس الآيات القرآنيـة الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشـريفة.
- فهرس الموضوعات.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة البقرة		
﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾	٤٤	٩٦
﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾	١١١	٢٠
﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾	١٤٠	١٠٤
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ ﴾	١٥٩، ١٦٠	١٠٢
﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا ﴾	١٧٠	٥٤
﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾	١٩٨	١٢٥
﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً ﴾	٢٠١	٤٦
﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾	٢٣٥	٢١
﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾	٢٥٥	١٦٧
سورة آل عمران		
﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾	٢	١٦٧
﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾	٧٩	١٤٥
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم ﴾	١٠٠	١٦٥

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾	١٣٧	٥٥
﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ ﴾	١٥٩	١٥٤
﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ ﴾	١٨٧	١٠٢، ١٠٤
سورة النساء		
﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾	٥	١٨٠
﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾	٥٩	٤٥
﴿ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾	١٣٥	١٩٨
﴿ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾	١٥٧	٢٠، ٥٣
سورة المائدة		
﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾	٨	١٩٨
﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ ﴾	٧٨	١٤٨
﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾	٩٨	٢١
﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾	١٠٤	٢٠
سورة الأنعام		
﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾	٨٢	١٤٠
﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ ﴾	١٥٣	١٨٧
سورة الأعراف		
﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾	٣٨	٥٤
﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾	١٤٤	١٣٦

QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾	١٥٨	٥٧
﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ﴾	١٧٦	٩٩
﴿ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾	١٨٥	٥٥
سورة التوبة		
﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾	١٩ ـ ٢١	٣٠
﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾	٤٠	٦٤
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾	٧٣	٤٤
﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ ﴾	١٢٢	٤، ١١٩
﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾	١٢٨	١٥٢
سورة يوسف		
﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾	٤٧ ـ ٤٩	٦٠
﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾	٥٥	٢٨
سورة إبراهيم		
﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾	٤	١١٣
سورة النحل		
﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾	٤٣	١١٨
﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾	٧٨	١١١
سورة الإسراء		
﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾	١٨	١٢٥

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾	١٩	١٢٥
﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾	٣٦	١١١
﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾	٨٥	٨٦
سورة الكهف		
﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾	٦٠	١٣٠
﴿ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾	٦٢	١٣١
﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾	٦٦	١٢٨، ١٣٤، ١٣٦
﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾	٦٧	١٣٤
﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾	٦٨	١٣٤
﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾	٦٩	١٣٤
﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾	٧٠	١٣٤
﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾	٧٨	١٣٤
﴿ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾	٩٨	٢٣
سورة طه		
﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾	١١٤	٤، ١٢٨
﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾	١٣٢	١٤٦
سورة الأنبياء		
﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾	١٠٧	٥٧

QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الحج		
﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ ﴾	٥٤	٤، ٢٢
سورة المؤمنون		
﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾	٨	٨٣
سورة الفرقان		
﴿ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾	١	٥٧
﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۞ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾	٥١، ٥٢	٤٣، ٤٤
﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾	٥٩	٦٧
﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾	٦١	٧٥
سورة النمل		
﴿ عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾	٤٠	٢٣
﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾	٦٤	٥٣
سورة القصص		
﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ ﴾	٥٠	٥٤
سورة الروم		
﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۞ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾	٢، ٣	٦٢
﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾	٦، ٧	٤٨
﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ﴾	٥٦	٢٢

غير مرخصة للطباعة

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة لقمان		
﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾	١٣	١٤٠
﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾	١٤	٣٢
﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾	١٥	٣٢
سورة الأحزاب		
﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦ﴾	٤	١٣٣
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾	٢٨، ٢٩	١٦٣
﴿إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾	٦٧	٢٠
سورة سبأ		
﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾	٤٦	٢١
سورة فاطر		
﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا﴾	١٠	٩١
﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾	١٤	٦٧
﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾	٢٨	٤، ٢٥
سورة الزمر		
﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾	٩	٢١٠
سورة الزخرف		
﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡ﴾	١٩	٥٣
سورة الأحقاف		
﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾	٤	٥٣

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة محمد		
﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾	١٩	٢١، ٢٥
سورة الذاريات		
﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾	٢١	٥٥
﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾	٥٦	٣٤
سورة النجم		
﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ ﴾	٢٣	٢٠، ٥٤
﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾	٢٨	٢٠، ٥٣
﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾	٢٩	١٢٥
سورة الرحمن		
﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾	٣٣	٧٤
سورة الحديد		
﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾	٢٥	٤٥
سورة الصف		
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾	٢، ٣	٩٧
سورة الجمعة		
﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾	٢	٤، ٥٥
﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾	٥	٩٨
سورة المنافقون		
﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾	٨	٩١

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة التحريم		
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾	٦	١٤٦
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾	٩	٤٤
سورة الملك		
﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾	٢	٣٣
سورة القلم		
﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾	١	٥٦
سورة النازعات		
﴿طَغَىٰ ۞ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾	٣٧، ٣٨	١٢٥
سورة العلق		
﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾	١	٢٣، ٢٤
﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۞ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾	١ ـ ٥	٥٥
سورة الزلزلة		
﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾	٧، ٨	٢٦

* * *

نسخة مجانية
غير مرخصة للبيع

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

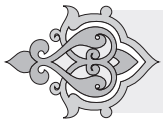

الحديث	رقم الصفحة
أ	
ابدأ بمن تعول	١٠٨، ١٤٦
ابدأ بنفسك	١٠٨
أبدعوى الجاهليَّة وأنا بين أظهركم	١٦٥
أتدرون من المفلس؟. قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع	١٩٨
أتشفعُ في حدٍّ من حدود الله يا أسامة؟	١٨٥
اتَّق الله حيثما كنت، وأتْبع السيئةَ الحسنةَ تمحها، وخالق الناس بخُلق حسن	١٧٤
أثنى على أبي هريرة لمَّا سأله: مَنْ أسعدُ الناسِ بشفاعتك يوم القيامة	١٦٨
اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: وما هنَّ يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر	٧٢
أحبُّ البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها	٨٤
أحصوا لي كم يلفظ الإسلام	٥٨
أحيٌّ والداك؟. قال: نعم. قال: ففيهما فجاهد	٤١
ادْنه. فدنا، فقال: أتحبُّه لأمك؟. قال: لا والله، جعلني الله فداك	١٥٨
إذا اؤْتمن خان	٨٣
إذا سمعت الرجل يقول: هلك الناس، فهو أهلكهم	٩٠

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
إذا سمعتم به بأرض، فلا تدخلوا عليه	٧٨
إذا مات ابنُ آدم انقطع عمله إلَّا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به	٣٦
ارجع فصلِّ فإنَّك لم تُصل	٢٧
أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في الله عمر. وفيه: وأقضاهم عليٌّ	١٦٨
أرسل طبيبًا إلى أُبي بن كعب، فقطع له عرقًا وكواه عليه	٧٨
ارْمِ فداكَ أبي وأمي	١٦٨
استحيا أن يسأل النبي ﷺ عن المذي	١٣٩
أسر رسول الله ﷺ يوم بدر سبعين أسيرًا، وكان يفادي بهم على قدْر أموالهم	٥٦
أشار على رسول الله ﷺ بحفر الخندق حول المدينة	٦٨
اعقلها وتوكَّل	٦١
اغْدُ عالمًا أو متعلِّمًا أو مستمعًا، أو محبًّا، ولا تكن الخامسة فتهلك	١١٢
أفضل الصدقة أن يتعلَّم المرء علمًا ثم يعلِّمه أخاه المسلم	١٤٣
اكتبوا لي منْ يلفظ بالإسلام من الناس	٥٨
ألَا أدلُّك على ملاك ذلك كلِّه؟. قال: بلى. قال: كفَّ عليك هذا	١٩٠
ألَا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة؟	١٧٧
ألَا هل بلغت؟. فتَجاوبت معه الأصوات من كل جانب: أن نعم	١٩٣
اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من علمٍ لا ينفع، ومن قلبٍ لا يخشع	٩٩
أما إنِّي أخشاكم لله وأتقاكم له، ولكنِّي أقوم وأنام، وأصوم وأُفطر	١٦٦
امتنعَ ﷺ عن مبايعة مجذوم بوضع اليد في اليد	٧٧
أمُتَهَوِّكون فيها يا ابن الخطاب؟ والَّذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاءَ نقيَّةً	٧٠، ١٦٥
أمثقال ذرَّة؟ قال: نعم. فقال الأعرابي: وا سوأتاه! ثم قام، وهو يقولها	٢٦

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
أمر سعد بن أبي وقاص أن يأتيَ الحارث بن كلدة الطبيب العربي المشهور	٧٩
إنَّ أخوف ما أخاف عليكم بعدي: كلُّ منافقٍ عليمِ اللسان	٩٨
إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعًا من العباد ـ أي: محوًا من الصدور	٤٨
إنَّ الله لم يبعثني معنِّتًا ولا مُتعَنِّتًا، ولكن بعثني مُعلِّمًا مُيسِّرًا	١٤٥
إنَّ الله وملائكته، وأهل السماوات والأرض حتَّى النملة في جحرها	١٤٢
إنَّ الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا، ويضع به آخرين	٤٦
إنَّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته	٧٢
إنَّ الملائكة لتضعُ أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع	١٦
إنَّ ممَّا يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علمًا علَّمه ونشره	٣٦
إنَّ من إجلال الله: إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه	١٣٥
إنَّ من أشراط الساعة أن يُرفع العلم، ويثبت الجهل	٤٧
إنَّ من الشجر شجرة لا يسقطُ ورقُها ـ أي: لا في الشتاء ولا الصيف ـ	١٩٦
إنَّ هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنَّما هي التسبيح	١٦٢، ١٦٣
إنَّ هذه المساجد لا تصلح لشيءٍ من هذا البول ولا القذر	١٦٠
أنا وكافل اليتيم في الجنَّة هكذا	١٩٠
أنتم أعلم بأمر دنياكم	٦٥
أنزل الله في بعض الكتب، أو أوحى إلى بعض الأنبياء	١٠٠
انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا	١٩٨
إنَّك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فادْعهم إلى شهادة أن لا إلٰه إلَّا الله	١٧٠
إنَّما الأعمال بالنيَّات، وإنَّما لكلِّ امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله	١٦١
إنَّما أنا بشرٌ إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به	٦٦

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
إنَّما أنا لكم مثلُ الوالد لولده	١٥٢
إنَّما بُعثتم مُيسِّرين، ولم تُبعثوا مُعسِّرين	١٥٨، ١٦٠، ١٦١
إنَّما الدنيا لأربعة نفر: عبدٌ رزقه الله مالًا وعلمًا، فهو يتَّقي فيه ربَّه	٩٥
إنَّما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارًا	١٩٤
إنَّما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتابَ الله بعضه ببعض	١٦٦
إنِّي لا أتَخوَّف على أمتي مؤمنًا ولا مشركًا. فأما المؤمن فيحجزه إيمانه	٩٨
إنِّي والله ما آمَن يهود على كتابي، فما مرَّ لي نصف شهر حتَّى تعلَّمته وحذقته	٥٨
أيُّ الخلق أعجب إليكم إيمانًا؟. قالوا: الملائكة	١٩٦
أيُّ يوم هذا؟. فسكتنا حتَّى ظننَّا أنَّه سيُسمِّيه سوى اسمه. فقال: أليس يوم النحر	١٩٢
إيَّاكم والظنَّ؛ فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث	٥٣
أيكما أطب. فقالا: أوَفي الطب خير، يا رسول الله؟	٧٩
أيُّكم يحبُّ أنَّ هذا له بدرهم؟. فقالوا: ما نحبُّ أنَّه لنا بشيء	١٨٨
أيُّها الناس، إنَّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا يخسفان لموت أحدٍ	١٨٦
أيُّهما أكثر أخذًا للقرآن؟	١٣٥
ب	
بعثت أنا والساعةَ كهاتين	١٩٠
بلِّغوا عنِّي ولو آية	١٠١
بُني الإسلام على خمس	١١٤
ت	
تأتي قومًا من أهل الكتاب	١٧١
تُطعم الطعام، وتقرأ السلام على مَنْ عرفت ومَن لم تعرف	١٧٦

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم	١٥٥، ١٧٤
تفقَّهوا قبل أن تُسَوَّدوا	٢٨
تناصحوا في العلم، فإنَّ خيانة أحدكم في علمه أشدُّ من خيانته في ماله	٨٣
ث	
ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بمحمد ﷺ	١٤٧
ح	
حذَّرَنا رسول الله ﷺ كلَّ منافق عليمِ اللسان	٩٨
حفظتُ من رسول الله ﷺ وعاءين، فأما أحدهما فَبَثَثْتُه	١٠٦
خ	
خذوا العلم قبل أن يُقبض أو يُرفع. فقال أعرابي: كيف يُرفع؟	٤٩
خُذوا القرآن من أربعة: من ابن أمِّ عبد ومعاذ بن جبل، وأُبي بن كعب	١٦٨
خرج عليهم كأنَّما يُفقأ في وجهه حبُّ الرمان	١٦٦
خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه	١٤١
د	
دعْه فقدْ فَقِهَ	٢٦
ر	
رجل تعلَّم العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن فأتيَ به، فعرَّفه نعمه، فعرفها	١٢٤
ز	
زادك الله حرصًا، ولا تعد	١٦١
س	
سيأتيكم أقوامٌ يطلبون العلم، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم: مرحبًا	١٥١

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ص	
الصلاة على وقتها. قلتُ: ثم أي؟ قال: بر الوالدين. قلتُ: ثم أي؟	١٧٥
ط	
طلبُ العلم فريضةٌ على كلِّ مسلم	٥، ١١٢
ع	
علَّمت الشفاءُ بنت عبد الله أمَّ المؤمنين حفصة بنت عمر الكتابة	٥٧
العلم علمان: علمٌ في القلب، فذاك العلم النافع، وعلمٌ على اللسان	٩٨
علم ممَّا يُبتغى به وجه الله تعالى	١٢٦
علِّموا ولا تعنِّفوا، فإنَّ المعلِّم خير من المُعنِّف	١٥٤
علِّموا ويسِّروا ولا تُعسِّروا، وبَشِّروا ولا تنفِّروا، وإذا غضب أحدكم فليسكت	١٥٤
ف	
فارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما	٤١
فإنَّ الله لم ينزل داءً إلَّا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله	٧٧
فإنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام كحُرمة يومكم هذا في شهركم هذا	١٩٢
فـرَّ من المجذوم فرارك من الأسد	٧٧
فضلُ العالم على العابدِ كفضلِ القمر ليلةَ البدر على سائر الكواكب	٣٥، ٣٦
فضلُ العلم خيرٌ من فضل العبادة	٣٥
فمن اتَّقى الشبهات فقد استبرأ لدِينِه وعِرْضه	٢٧
فمن رغب عن سنتي فليس مني	٧٦
ق	
قام موسى ! خطيبًا في بني إسرائيل، فسُئِل: أيُّ الناس أعلم؟	٨٧

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
القضاةُ ثلاثة: واحدٌ في الجنَّة، واثنان في النار؛ فأمَّا الَّذي في الجنَّة	٢٩
قل: آمنت بالله، ثم استقم	١٧٥
ك	
كان إذا تكلَّم بكلمة أعادها ثلاثًا	٢٠٠
كان كلام رسول الله ﷺ كلامًا فصْلًا يفهمه كل من يسمعه	٢٠٠
كان النبي ﷺ يَتَخَوَّلُنا بها مخافةَ السآمة علينا	١٨١
كان يحدِّث حديثًا لو عدَّه العادُّ لأحصاه	٢٠٠
كفى بالمرء إثمًا أن يُحَدِّث بكل ما سمع	١٠٦، ١٧٩
كِلا المجلسين على خير، وأحدهما أفضل من صاحبه	١٤٥
الكلمةُ الحكمةُ ضالَّة المؤمن، أنَّى وجدها، فهو أحقُّ بها	٦٩
كنَّا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ينزل يومًا، وأنزل يومًا	٢٠٢
ل	
لا تحلُّ الصدقة لغني ولا لذي مِرَّة سويٍّ	٢٠٧
لا تزرموه، دعوه. فتركوه حتَّى بال، ثمَّ إنَّ رسول الله ﷺ دعاه فقال له	١٥٧، ١٥٨، ١٦١
لا تعلَّموا العلمَ لتُباهوا به العلماء، ولا لتُماروا به السفهاء	١٢٤
لا تغضب	١٧٥
لا تكن عونًا للشيطان على أخيك	١٦٠
لا تلعنه؛ فإنَّه يحبُّ الله ورسوله	١٦٠
لا حسدَ إلَّا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسلَّطه على هلَكَته في الحق	١٤٣
لا يكن أحدُكُم إمَّعة، يقول: أنا مع الناس، إن أحسنوا أحسنت	٥٤
لا يُورِدنَّ مُمْرض على مُصحٍّ	٧٨

غير مرخصة للطباعة
نسخة إلكترونية

الحديث	رقم الصفحة
لأنْ يهديَ الله بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من حمر النَّعَم	١٤٣
لقد أُوتيت مزمارًا من مزامير آل داود	١٦٧
لقد دخل قلبَ الأعرابيِّ الإيمانُ	٢٦
لكلِّ داءً دواء، فإذا أصاب دواء الداء برئ بإذن الله	٧٧
لم يجب أبا ذر إلى طلبه حين سأله أن يوليه	١٧٨
لن تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتَّى يُسأل عن أربع خصال	٨١
لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة!	١٦٧
لولا أنَّكم تُذنبون لذهب الله بكم وخلق خلقًا يذنبون فيغفر الله لهم	١٠٥
ليبلِّغ الشاهدُ منكم الغائبَ	١٠١
ليس بمؤمن ـ وفي رواية: ليس منا ـ من بات شبعان وجاره إلى جنْبه	١٤٧
ليس الغنى عن كثرة العَرَض، إنَّما الغنى غنى النفس	٩٢
ليس من أمَّتي من لم يُجلَّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا	١٣٦
ليس منَّا من تَطيَّر أو تُطيِّر له أو تَكهَّن أو تُكهِّن له، أو سَحَر أو سُحِر له	٧٢
م	
ما أنزل الله داءً إلَّا أنزل له شفاء	٧٧
ما بال أقوام لا يفقِّهون جيرانهم، ولا يعلِّمونهم، ولا يعظونهم	١٤٨
ما تعدون الصُّرَعَة فيكم؟. قالوا: الَّذي لا تصرعه الرجال. قال: ليس ذلك	١٩٧
ما رأيك في هذا؟. قال: رجل من أشراف الناس	١٩١
ما زال جبريل يوصيه بالجار حتَّى ظنُّوا أنَّه سيورِّثه	١٤٦
ما ضرب بيده شيئًا قط، لا امرأةً ولا خادمًا، ولا دابة	١٥٥
ما ظنُّك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما	٦٤

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ما لنخلكم؟!. قالوا: قلت كذا وكذا. قال: أنتم أعلم بأمر دنياكم	٦٦
ما المسؤول عنها بأعلم من السائل	٨٤
ما من عبد يخطب خطبة إلَّا الله ﷻ سائله عنها. أظنُّه قال: ما أراد بها؟	٨٢
ما نَحَل والدٌ ولدَه نحْلًا أفضلَ من أدبٍ حسن	١٤٦
ما يصنع هؤلاء؟. قال: يأخذون من الذكر فيحطون في الأنثى يلقِّحون به	٦٥
مثل الَّذي يُعلِّم الناس الخير وينسى نفسه، مثل الفتيلة: تضيء للناس	١٩٤
مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهَموا على سفينة	١٩٤
مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمَثَل غيث أصاب أرضًا	١٤٤
مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين: تعير إلى هذه مرَّة وإلى هذه مرَّة	١٩٤
مثل المؤمن مثل النَّحلة: إن أكلت طيِّبًا وإن وضعت طيِّبًا	١٩٤
مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأتمَّه وأحسنه	١٩٤
مرحبًا بطالب العلم! إنَّ طالب العلم تَحفُّه الملائكة بأجنحتها	١٥١
مررتُ ليلة أسريَ بي بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار	٩٧
مروهم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين	١١٥، ١٥٦
من أتى عرافًا أو ساحرًا أو كاهنًا يؤمن بما يقول، كفر بما أُنزل على مُحَمَّد ﷺ	٧٣
من أتى عَرَّافًا فسأله عن شيء فصدَّقه، لم تُقبل له صلاة أربعين يومًا	٧٣
من أُفتِيَ بغير علم، كان إثمه على من أفتاه	٨٤
من اقتبس علمًا من النجوم فقد اقتبس شعبةً من السحر، زاد ما زاد	٧٤
من تطبَّب ولم يُعلم عنه الطب فهو ضامن	٧٩
من تعلَّم علمًا، ممَّا يُبْتغى به وجْه الله تعالى	١٢٤
من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتَّى يرجع	٤٤

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه	١٤٣
من دلَّ على خير فله مثل أجر فاعله	١٤٣
من سرَّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنَّة فلينظر إلى هذا	١٧٩
من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا، سلك الله به طريقًا إلى الجنَّة	٥، ١٥، ١٥٠
من سلِم المسلمون من لسانِه ويده	١٧٦
منْ سنَّ في الإسلام سُنَّةً حَسنةً فله أجرُها وأجرُ من عمل بها من بعده	١٨٧
منْ سُئِل عن علم فكتمه أُلجِم يوم القيامة بلجامٍ من نار	١٠٣
من عقد عقدة، ثم نفث فيها فقد سحَر، ومن سحَر فقد أشرك	٧٢
من كان همُّه الآخرة، جمعَ الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وتأتيه الدنيا	١٢٦
من كتم علمًا ألجمه الله	١٠٣
من يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّين	٥، ١٥، ٢٥
ن	
نحن أمَّة أميَّة لا نكتب ولا نحسب	٥٥
نَضَّرَ الله امرأً سمع منَّا حديثًا فبلَّغه غيره، فرُبَّ حامل فقهٍ إلى من هو أفقه منه	١٠١
نَضَّرَ الله امرأً سمع منَّا شيئًا فبلَّغَه كما سمعه، فرُبَّ مُبلَّغ أوْعى من سامع	١٠١
نعم. قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله؟ قال: الإيمان بالله	١٧٥
نِعْمَ المال الصَّالح للرجل الصَّالح؟	١٢٦
هـ	
هذا أمين هذه الأمَّة	١٦٨
هذا سبيل الله مستقيمًا، وخطَّ عن يمينه وشماله	١٨٧، ١٨٨

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
هل لك أحد باليمن؟. فقال: أبواي. فقال: أذِنا لك؟. فقال: لا	٤١
هل لك من أم؟. قال: نعم. فقال: الزمها؛ فإنَّ الجنَّة عند رجليها	٤٢
و	
والله لا يؤمن! والله لا يؤمن! والله لا يؤمن	١٩٩
والله للدنيا أهونُ على الله من هذا عليكم	١٨٩
ي	
يا أبا المنذر؛ أتدري أيُّ آية من كتاب الله معك أعظم؟	١٦٧
يا أيُّها الناس، إنكم مُنفِّرون! فمن صلَّى بالناس، فليُخفِّف	١٦٥
يا أيها الناس تعلَّموا، إنَّما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقُّه	١١٢
يا حسان، أجب عن رسول الله ﷺ، اللهم أيده بروح القدس	١٧٨
يا عائشة، إنَّ الله لم يبعثني معنِّتًا ولا مُتعنِّتًا، ولكن بعثني معلِّمًا مُيسِّرًا	١٦٤
يا عائشة؛ لقد قلتِ كلمةً لو مُزجت بماء البحر لمزجته	١٦٤
يا معاذ بن جبل. قال: لبيك يا رسول الله وسعديك. ثلاثًا	١٠٥
يتقي فيه ربَّه، ويَصل فيه رحِمه، ويعلم لله فيه حقًّا	٩٦
يُجاء بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النار، فتندلق أقتابه، فيدور بها	٩٧
يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا	١٥٣
يَظهر الإسلام حتَّى تختلف التجار في البحر	٨٩

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

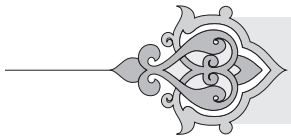

فهرس الموضوعات

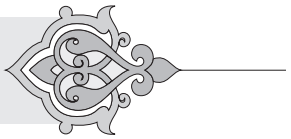

- **من الدستور الإلٰهي للبشرية** ٤
- **من مشكاة النبوة الخاتمة** ٥
- **مـقـدمـــة** ٧

بين القرآن والكتب المقدَّسة ٧

العلم في كتب الحديث ٩

عمدتنا الأحاديث الصحاح والحسان ١١

عملنا التمحيص والاستنباط ١٢

انتشار الأحاديث الواهية ١٣

❖ **منزلة العلم والعلماء في ضوء السُّنَّة** ١٥

العلم دليل الإيمان ١٩

العلم دليل العمل ٢٤

العلم شرط لصحَّة العمل ٢٦

لا تصحُّ عبادة بلا علم ٢٧

لا تصح معاملة بلا علم ٢٧

العلم شرط لتولي المناصب القيادية ٢٨

العلم هو المبيِّن لمراتب الأعمال وأولوياتها ٢٩

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

خلل في فقه الأولويات ٢٩
الابتداع في الدين سببه نقص العلم ٣٣
فضل العلم على العبادة ٣٤
الاشتغال بالعلم أفضل ما يُتطوَّع به ٣٨
فضل العلم على الجهاد ٤٠
العلم ينفع في الدنيا قبل الآخرة ٤٦
ضَياع العلم مُؤْذن بخراب الدنيا ٤٧

❖ **الرسول والعلم التجريبي ٥١**
١ ـ تكوين العقليَّة العلميَّة ٥٢
٢ ـ محاربة الأميَّة ٥٥
٣ ـ تعلم اللغات عند الحاجة ٥٧
٤ ـ استخدام أسلوب الإحصاء ٥٨
٥ ـ التخطيط ٥٩
٦ ـ إقرار منطق التجربة في الأمور الدنيويَّة ٦٤
٧ ـ النزول عند رأي الخبراء وأهل المعرفة ٦٦
٨ ـ اقتباسُ كلِّ علمٍ نافع ٦٨
٩ ـ الحَمْلة على الأوهام والخرافات ٧١
١٠ ـ الطب نموذجًا لعناية الرسول بالعلم التجريبي ٧٥

❖ **أخلاقيَّات حملة العلم ٨١**
١ ـ الشعور بالمسؤولية ٨١
٢ ـ الأمانة العلمية ٨٣
٣ ـ التواضع ٨٦

QaradawiBooks.com

٤ ـ العـزَّة ٩١
٥ ـ العمل بمقتضى العلم ٩٤
الحرص على نشر العلم ١٠١
مسائل وملاحظات تتعلق بكتمان العلم ونشره ١٠٦
متى يجوز حجب بعض المعلومات؟ ١٠٦
حكم إعارة الكتب ١٠٧
حق التأليف والنشر ١٠٨
على أنَّ ممَّا يجب التنبيه عليه هنا جملة أمور ١٠٩
❖ **التعلُّم وآدابه** **١١١**
ضرورة التعلم ١١١
ما يجب على كل مسلم تعلُّمه ١١٢
ولكن ما العلم الَّذي جعل الحديث طلبه فرضًا على كل مسلم؟ ١١٣
ما يفترض تعلُّمه على سبيل الكفاية ١١٨
تصحيح النيَّة ١٢٣
استمرار التعلم ١٢٨
الصبر على متاعب الطلب ١٣٠
توقير المعلم وإكرامه ١٣٤
حسن السؤال ١٣٨
❖ **التعليم ومبادئُه وقيَمُه** **١٤١**
١ ـ العناية بالمعلِّم والتنويهُ بقدره ١٤٢
٢ ـ تكافل المجتمع في تعليم أبنائه ١٤٦
٣ ـ الترحيـب بالمتعلم والبشاشـة له ١٥٠

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

٤ ـ الرفق بالمتعلم والحنو عليه ١٥٢
٥ ـ الإشفاق على المُخطئ ١٥٧
تَنْبيهُ المُخطئ على خطئه ١٦٠
٦ ـ تشجيع المُحسن والثناء عليه ١٦٧
٧ ـ التدرج في التعليم ١٧٠
٨ ـ رعاية الفروق الفرديَّة ١٧٣
٩ ـ الاعتدال وعدم الإملال ١٨١
١٠ ـ استغلال المواقف العمليَّة للتربية والتوجيه ١٨٤
١١ ـ استخدام الوسائل المُعينة ١٨٧
١٢ ـ تَخيُّر أحسن الأساليب ١٩١
١٣ ـ إثارة الانتباه بالسؤال والحوار ١٩٦

❖ **آثار وثمار ٢٠٢**

• **خـاتمـــة ٢٠٩**

• **فهرس الآيات القرآنية الكريمة ٢١٥**

• **فهرس الأحاديث النبوية الشريفة ٢٢٣**

• **فهرس الموضوعات ٢٣٤**

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فهرس كتب المجلد

١٠٦ ـ السُّـنَّة مَصدرًا للمَعرفةِ والحَضارة ٥

١٠٧ ـ الرسـول والـعـلـم ٤٦٩

* * *

غير مرخصة للبيع

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com